أحمد يوسف داود

ÑÞÕÉ ÇáÔíØÇä

برنامج العمل الصهيوني لنصف القرن المقبل

* دراســـــــة *

1994-1995

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
1998

**ÇáÍÞæÞ ßÇÝÉ
ãÜÍÜÜÜÝÜÜÜæÙÜÉ
áÇÊÜÍÜÜÇÏ ÇáÜßÜÊÜøÇÈ
ÇáÜÜÚÜÜÑÈ**

ÊÕãíã ÇáÛáÇÝ ááÝäÇä : ÇÓãÇÚíá äÕÑÉ

Êäæíå áÇ ÈÏ ãäå

قبل الـدخول إلى صـلب هـذا الكتـاب أرى أن من واجـبي الإشـارة إلى أسـباب تـأخره في الصـدور، وإلى مسـائل أخـرى ستتضح لاحقاً في هذا التنويه.

وبخصوص تأخر صدوره فـإن المخطـوط قد ظل نحـواً من عــام في إحــدى دور النشر الدمشــقية دون أن ينشر رغم أنه كـانت هنـاك موافقة مسـبقة على ذلـك. أما لمـاذا لم تقم تلك الدار بإصـداره في ذلك العـام فهو ما لا أملك الإجابة عليـه، ولا أعتقد الآن أن لتلك الإجابة أية قيمة مهما تكن طبيعتها. على أن هذا الكتاب عاد فتأخر البتّ بأمر نشره عامين آخرين في اتحـاد الكتاب العرب بدمشق، وكـان العـام الأول بسـبب تقاليد النشر في الاتحاد حيث كـانت لي رواية قيد الصـدور الأمر الـذي حـال دون دفعه إلى لجــان القــراءة.. أما العــام الثــاني فقد انقضى والمخطوط يـدور بين أيـدي عـدد من الـزملاء والقـراء في تلك اللجان.

والمهم أنه خلال هذه السنوات حدثت تغيـيرات كبـيرة على السطح السياسي لدولة الكيـان الاسـتيطاني الصـهيوني إذ قتل رابين: زعيم حــزب العمــل، ورئيس الــوزراء في تلك الدولــة.. وحل محله شمعون بيريز- صاحب (الكتاب/ البرنامج الصهيوني) الــذي نحن بصــدد تحليلــه- في رئاسة الحــزب كما في رئاسة الوزارة. ومن تحت القناع- قناع حمامة السلام الـذي كـان يبـدو مقنعاً لكثـير من الأطـراف، والعربية منها على وجه الخصـوص- كان الجنرال الصهيوني المشبع بالحقد والمكر التلمـوديين يـبرز أنيابه وأظفاره التي تشتغل بضـراوة نـادرة المثـال ضد العـرب: سواء في الأرض المحتلة أم في الجنوب اللبناني.

غــير أن الثكنة العدوانية تظل -ضــرورةً- محكومة بــروح أنها ثكنة عدوانية، والعقل الصهيوني يظل مرغماً على أن يكون ذاته.. ولما كانت الأوضاع العربية عمومـاً آخـذة في المزيد من الـتردي، والوضع العالمي آخذاً في المزيد من الاضطراب في هـذه الفـترة الانتقالية من التاريخ العام للحضارة البشرية، وهو اضـطراب تـبيح فواعله للحلف الصهيوني /الأمريكي- ولو سطحياً وبصورة عرضية حسبما نعتقد- أن يشـتغل كما لو أنه قـادر على صـياغة المصـائر العامة للكوكب برمته، فإن العقل الصهيوني وروح الثكنة العدوانية قد بدا لهما أن أسلوب "المخاتلة الثعلبية" للسـيد بـيريز وحزبه ما عـاد ضـرورياً. وهكـذا صـعد الليكـود بزعامة ناتانيـاهو إلى سـدة السـلطة في دولة الكيـان الصـهيوني وسط تصـوّر يقـول: إنه لا داعي لمسايرة العرب كي يركعوا، بل يمكن تركيعهم نهائيـاً دونما قيد أو شـرط ومن غـير مسـايرة أو منـاورات.. فلقد بـدأ عصر (العولمــة) الــتي نــرى أنها -إن كــانت قابلة للتحقيــق- ليست إلا النموذج التطبيقي للتصـورات الإمبراطورية التلمودية حيث (العقل

والرأســـمال) الصـــهيونيان يعملان بكامل طاقتهما لجعل هـــذه (العولمة) متحققة، وفي قبضتهما!.. وعليه يكون مشروع (الشرق الأوسط الجديد) مجرد حلقة في سلسلة الحلقـات الـتي لا بد من تحقيقها مستقبلاً كي تصير (العولمـة) واقعـاً نـاجزاً... وكي تكـون الثكنة الاستيطانية في أرضنا الفلسطينية مركز إدارتها الفعلي!!

ما الذي قد تغير إذاً، من بـيريز إلى ناتانيـاهو- أو حـتى إلى من قد يليهما في إدارة الثكنة- بالنسـبة للمشـروع الصـهيوني وخططه حتى في أدقّ التفصيلات الإجرائية؟!

من جهتنا نجيب بثقة: لا شيء! ونضـيف أيضـاً: إن مشـروع بيريز في كتابه المعالج هنا هو برنامج مرحلي معتمد من الإدارة العليا للحركة الصهيونية، وكتابته -بيريزيا- لا تعني أنه غير ملـزم لنتانيـــاهو أو غـــيره من قـــادة الثكنة الاســـتيطانية الآخـــرين وبالأسلوب الذي تراه تلك الإدارة العليا مناسباً وفقاً للظـروف. ولعله من دواعي الســـرور لأي كـــاتب أن يـــرى بعضـــاً من اسـتنتاجاته التحليلية يتحقق بهـذا القـدر أو ذاك. وفي الواقع إن هذا ينطبق عليَّ- ولو قليلاً- في كتابي هذا، إذ تحقق بـروز بعض ما توقعته في عـــدد من المجـــالات العربية والدولية إلى درجة أبـدو معهـا، بسـبب تـأخر صـدوره، كأنما قد ادعيت ذلك بعد حدوثـه، وتبنّـهُ في سـياق بحـثي ونسـبتُ توقعه زوراً لنفسـي. لكنـني في الحقيقة لم أفعل شـيئاً من ذلـك، وكل ما في الأمر هو أن مقـدمات بعض الأحـداث تبـدو محتّمة لنتائجهـا، ولا يلـزم الباحث الجادّ إلا أن يتأملها بروية وتمعن وفقاً لمعرفته بما صار ثابتـاً من قـوانين حركة التـاريخ وما هو معـروف من طبـائع الأشياء.

فمثلاً ثمة وضوح أشد بروزاً في التناقض بين أوربا الساعية إلى الوحـدة بقيـادة فرنسا وبين أمريكا وحلفها مع الصـهيونية وتبعية انكلـترا لهـذا الحلـف. وفي اعتقادنا أن هـذا التنـاقض سيزداد حدة في المستقبل إلى درجة من التصارع المكشـوف لن نجـازف هنا بتقـدير كيفياته وأدواته وأبعـاده. وقد كـان من الطبيعي -وفق التقدير السليم لطبيعة التناقضات وسُلّم تـرتيب الصـراعات -أن يتجه العـرب المخلصـون لقضـيتهم إلى إجـراء تفاهم مع أوربا عموماً وفرنسا خصوصاً يحقق للطرفين مصالح مشروعة بالقدر الممكن ضد مشروع الهيمنة المتفردة من قبل الحلف الأمريكي /الصهيوني.. وهذا ما فعلته سورية على سبيل المثال.

وفي الوضع العالمي أيضاً يلاحظ الآن ما يمكن وصفه ببروز التوجه الروسي إلى استعادة دور روسيا كقوة كـبرى، اسـتعادة مـؤثرة في مجريـات حركة الوضع العـالمي- وإن على أسـاس قومي روسي رغم الوجود القوي نسبياً للحزب الشيوعي هنـاك - وهذا يعـني بالضـبط كسر تفـرّد الحلف الصـهيوني/ الأمـريكي بتقرير مصـائر العـالم، أو كبحه بالقـدر الممكن. وصـحيح أن جيرونوفسكي لم ينجح في انتخابات الرئاسة الروسية الماضـية ولكن ذلك لا يعني أن أطروحاته عن مصالح روسيا في منطقتنا لن تكون مأخوذة بحسبان أية قيادة في ذلك البلد مع التعديلات المناسبة تبعاً للظروف.

أما الانهيار الاقتصادي الأخير- في مطلع عام 1998- في كوريا الجنوبية وعدد من دول شرق آسيا بينها بعض (النمور) فإنه إذا كان مؤشراً على هشاشة بنيان النظام الاقتصادي العالمي القديم، وإذا كان ذا نتائج قد تهدد باكتساح اقتصاديات الولايات المتحدة نفسها عبر إغراق أسواقها بالبضائع الرخيصة التي قد تجر كارثة على تلك الاقتصاديات -وفقاً لتصريحات الرئيس الأميريكي كلنتون بهذا الخصوص- فإن على المرء أيضاً أن يخمّن، في رأس قائمة النتائج الكبرى لذلك الانهيار، نوعاً من حتمية الاستقطاب الصيني المتسارع لما سميناه (العالم الصيني) في متن هذا الكتاب.

على أي حال، إن ثمة ما لا يمكن حصره من الوقائع المحلية والعالمية التي جرت وتجري منذ أن أنجزت كتابة هذا الكتاب حتى وقت إصداره. لكن أي تغيّر في تقديراتنا لحركة العالم وانعكاساتها على وطننا العربي لم يحدث، حسبما نرى وحسبما سيراه القارئ في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وما يهمنا أن نظهره في هذا "التنويه" -ونحن نتابع مجريات حركة الحلف الصهيوني /الأمريكي في تعامله مع وطننا العربي- هو مجموعة من القضايا الأساسية العامة التي أظهرها، ويظهرها، العدوان المتواصل لدولة الكيان الاستيطاني الصهيوني على البنى الدولتية والمجتمعية العربية، مستندة إلى إجمالي الفعالية العامة للحلف المذكور، حيث نرى أن تلك القضايا تؤيد بوضوح كامل عدداً من الاستنتاجات الهامة التي كنا قد خلصنا إليها في عدد من فصول هذا الكتاب.

* تتلخص القضية الأولى في أن دولة الكيان الصهيوني هي (تلفيقُ دولةٍ أصوليةٍ تلمودية غيتوية) نازية التكوين والسلوك، إرهابية النزوع، عنصرية التوجه، ومحكومة بروح خرافية مريضة تناقض كلياً منطق العصر الذي يحاول بشره -لا سياسيوه الامبرياليون- جعله أكثر إنسانية، وجعل عالمنا أكثر قابلية للعيش وللبقاء المشترك الناجع. وعلى هذا فإن هذه الدولة الصهيونية لا تريد "سلاماً" بالمعنى الذي يفهمه البشر من كلمة "سلام" بين أطراف متحاربة، وإنما هي تريد إستسلاماً عربياً غير مشروط لمخططاتٍ هيمنتها "الشرق أوسطية" وهذا الاستسلام (يجب!) -صهيونياً- أن يُفرَضَ على العرب تحت طائلة الإبادة والتدمير لهويتهم الحضارية عبر تدمير البشر والمؤسسات والبنى التحتية التي ترتكز عليها مفردات تلك الهوية.

* وتتلخص القضية الثانية في أن دولة الكيان الصهيوني- ومجتمعها الملفق أيضاً- هي دولة مأزومة البنيان، كما هي هذه المرحلة الرأسمالية من تطور الحضارة، وهي دولة محكومة بالرعب الداخلي الدائم من كونها ليست وليدة لتطور تاريخي اجتماعي حقيقي بل هي قد زرعت استيطانياً- لغايات غير إنسانية- في "وسطٍ" لا يمكن له بتاتاً أن يصفح عن جرائمها التي لا تحصى بحقه، أياً تكن صيغ المعاهدات والاتفاقات التي توقعها مع هذا الطرف الحاكم أو ذاك.

إن هـــذه الدولة الاســـتيطانية "تســـلك ســـلوك المجـــرم المرعـوب" الـذي يأمل في أن يجد خلاصه وسـلامه النفسي بالإبـــادة التامة لكل من هم شـــهود أو ضـــحايا لجريمته الأساسية.

وبإختصـــار، فـــإن أزمة الدولة الصـــهيونية ومجتمعها الملفق تتلخص في (الرعب العام) غير المعلن عنه من وجـود الضـحية التي لا تـزال تقـاوم ولو في أدنى حـدّ للمقاومـة، ومن ارتبـاط وجـود (الدولـة) بـالوجود الإمبريـالي الـذي بـدأ يتضح لكل ذي بصيرة مدى تفسخه ومشارفته على الانهيـار انهيـاراً تبـدو معه أزمة الثلاثينيـــات وكأنها "لعبة طفـــل" على حد تعبـــير أحد المعلقين الأميركـيين. ولهـذا وذاك تـدفع الأزمة ورعبها غـير المعلن بقيادة الكيان الاسـتيطاني، وبـالإدارة الصـهيونية العليـا، إلى الانـدماج في "الهـرب إلى أمـام" أي إلى شن مزيد من العدوانات الإرهابية المجرمة بمختلف الوسائل، وفي أي مكـان يجدونه مناسباً من العالم. وبالطبع، تنصبّ العدوانات الأساسـية على "الوسط" العربي: فعلاً وتهديداً. وهم يستخدمون في ذلك آلة الحـرب الـتي أمـدهم حلفـاؤهم بها والـتي تفـرض عليهم - بـدورها- نوعـاً من التـوق الغـريب إلى وجـوب تجريبها في محيطهم المعادي، وفي الوقت ذاته الذي يتظاهرون فيه بـأنهم (دعاة سلام!).

* وتتلخص القضية الثالثـة- وهي مستخلصة من سـابقتَيْها- في أنّ ما تسميه الدولة الصهيونية (حدودها الآمنـة) هو مفهـوم مخاتل وغائم، إذا إنه -في واقع الحال- يقع حيث يمكن لآلة حـربهم أن تضرب، في المدى العربي، وفي المدى الإسلامي.. وحـتى في المدى العالمي أيضاً! فسيكولوجية المجـرم المرعـوب لا يمكن لها- بسـبب من إجرامه ذاتـه- أن تسـمح بتفكـير جـدي في أن هناك "حدوداً آمنة" في نهاية الأمر سوى حدود إرهابه للآخـرين عبر محاولات إبادتهم.

وإذا كانت هذه القضـية تعكس -في الجـذر- نظـرة (الشـعب المختار!) إلى "الغـوييم"، أي الأمم الأخـرى الـتي أحل يهـوه لليهود أموالهم وأعراضهم ودمـاءهم وفقـاً للتـوراة وللتلمـود معاً، وتعكس بالتالي عقدة اليهودي المتصهين من وجود بشر آخـرين ســواه على الأرض.. فإنها -أي هـذه القضـية- تـدل بوضـوح كـافٍ على أن الصـهاينة لايمكنهم قبـول أية صـيغة للسلام مع غـيرهم في المـدى الاسـتراتيجي، حـتى لو كـانت صيغة استسلام!

إن (الحدود الآمنة)، وفقاً للجهاز المفاهيمي الصهيوني، هي - في نهاية التحليل الـدقيق- حـدود المقـدرة على إبـادة "الغوييم" إلا من يلـزم منهم لزومـاً ضـرورياً لخدمة الوجـود الصهيوني المهيمن ذاته.

* أما القضية الرابعة فترتبط بطبيعة هذا العصر الـتي سـمحت وســاهمت بقـــوة في إنشـــاء دولة الكيـــان الاســـتيطاني الصـــهيوني، أي بطبيعة البنيـــان الرأســـمالي الإمبريـــالي واتجاهات حركته وتوازنات قواه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي

ومنظومته الاشـتراكية. وإذا كنا قد ألمحنا إلى بعض من ذلك في إشـاراتنا إلى بـروز التنـاقض بجلاء بين أوربا وأميريكـا، وإلى التحرك الروسي الجديد، والانهيارات "الشرق آسـيوية" وبعض نتائجها المحتملة.. فإن علينا هنا أن نشدّد على وجوب تـذكر المبـدأ العـام الـذي يحكم بصـورة جذرية وجـود رأس المال وحركته ومصيره.

إن قدَر البنيان الرأسمالي العالمي الكلي هو أن يكون متنافساً، وأن يصل تنافسه الداخلي إلى درجة قصوى من التصارع الذي لا رحمة فيـه، عـاجلاً أم آجلاً، وذلك بحكم طبيعة عمله ذاتهـا، وبحكم عجزه عن أن يكون كوسموبوليتانياً بصورة مطلقة.. أي بحكم تمزقه التكويني بين نزوعه الكوسموبوليتاني وبين منشئه القومي وترابطاته القومية في الحاصل الأخـير. وتتضـمن هـذه القضـية العامة جملةً من القضـايا الفرعية نأمل من القـارئ الكريم ملاحظتها جيداً في متن الكتاب.

ويشير هذا كله إلى حتمية حدوث استقطابات كـبرى مضـادة جميعها للـنزوع الامـيريكي /الصـهيوني إلى التفـرد بتقرير مصائر العالم. وكمثال، نجد أن ما فعلته دول "نادي بـاريس" قبل نحو من سنتين ونيف بخصوص /42/ مليـار دولار مترتبة على روسـيا من ديـون الاتحـاد السـوفييتي السـابق يحمل لمسة خاصة ودالة على بعض من مؤشـــــــــــرات تلك الاستقطابات.

على أن الأهم هنا بالنسـبة لنا هو أن نتـذكر أن إنشـاء الدولة الاسـتيطانية الصـهيونية إنما تمّ تحت تـأثير رغبة الرأسـمال الصـهيوني القـويّ في أن تكـون له (أرض) خاصة ينطلق منها ويرتكز عليها، وأن يكون له (مجتمع قومي) يحمل تطلعاته، مع ملاحظة التنـاقض الحـاد والفكه بين هـذه الرغبة وبين الطبيعة الكوسـموبوليتانية شـبه المطلقة لـذلك الرأسـمال ذي التكـون اللاتاريخي بالمعنى الاجتمـاعي /القـومي. ويقودنا هـذا مباشـرة إلى اسـتكناه جـوهر عملية التحـالف الفريـدة بين الصـهيونية وأميريكا حيث للوجود الدولتي لكليهما هو وجود اسـتيطاني ولا تاريخاً اجتماعيـاً له إلا إذا اعتبرنا أنّ عمليـات الإبـادة الإجرامية العنصـرية تشـكل تاريخـاً حـاملاً لهوية وثقافة أساسـها وغايتها (عبادة المال).

* تقودنا القضية السابقة، ومباشرة أيضاً، إلى قضـية (العولمـة) الـتي أخـذت تُطـرح- في إطـار من الثـورة في تكنولوجيا المعلوماتية ووسـائل الاتصـال- على أنها مسـتقبل البشـرية الآخذ في التحقّق، حيث تنتفي الهويـــات القومية وتهـــدر سيادات الدول وحدودها وثقافات شعوبها.. إلى آخره لصـالح عمليـات السـوق المفتوحة بـإطلاق، حيث ينعـدم كل حـافز أخلاقي للوجود البشري وكل قيمة- باستثناء قيمة ربح المـال - ويتم مسخ الكائنـات نهائيـاً إلى كائنـات مسـطحة تقـوم بالإنتـاج والاسـتهلاك وتتجـرد من كل عمق وذاكـرة ومن كل إيمان باستثناء الإيمان بالملذات الجسدية البهيمية.

والنـاظر في أطروحـات صـموئيل هنتنغتـون حـول "الصـراع

الأخـــير" بين الهويـــات العالمية الخمس الكـــبرى، بما هي "هويات دينية"، وبإعتبار أن حسم هذا الصراع غربياً ضـرورة وشرط لتحقق العولمة، يجد أن (اليهوديـة) مسـتثناة في تلك الأطروحات ومُغفلة. ويشير هذا التنظير (لنهاية العالم)- وهذا عنوان كتاب لمنظر موازٍ هو فرنسيس فوكوياما- إلى المنشأ التلمودي لفكرة العولمـة، وبالاسـتناد إلى الأسس الفلسـفية لحضارة الغـرب الإمبريـالي الـذي نـرى أنه قد جـرى تهويـده ضمنياً منذ فتراته المسيحية المبكرة.

إن الأطروحة الصـهيونية بخصـوص دولتها الاسـتيطانية -كما تظهر في كتـاب بـيريز- تجعلها نوعـاً من "الغيتـو" الـديني الرأسـمالي الكـتيم الـذي يرتـدي مسـوحاً قوميـاً مصـطنعاً. وعليه فإن ما يفترض أن تحققه (العولمة) يستثني كليـاً ذلك "الغيتو" دون سواه، الأمر الذي يعني -في التحليل الصـائب- أن تحقيق العولمة هو تحقيق للتصـــــــورات التلمودية عن "الإمبراطورية اليهودية" النهائية. لكن، وبما أن الاستقطابات الكبرى للقوى العالمية تكاد تكون نـاجزة أو إنها قيد الإنجـاز، تبدو الصهيونية مرغمة على التكيف مع حركة التاريخ، فتبـادر إذاً إلى العمل على إقامة "استقطابها" الخاص مستفيدة من الظـروف الانتقالية الراهنـة، وتولد بالتـالي مرحلة (الشـرق الأوسط الجديـــد) الـــتي هي أمبراطورية اقتصـــادية/ ثقافية صهيونية مرحلية تندرج ضـمن الاسـتقطابات الكـبرى وتتمـيز عنها بأنها خطـوة نحو الإمبراطورية الخرافية التلمودية الـتي يأمل الصهاينة أن يتمّ إنجازها تحت شعار (العولمة) الكاملة.

* إن آخر القضايا التي يمكن استخلاصها هنا هي ما يهمنا فعلياً: كوطن عربي، وكعالم إسلامي، وكمنطقة أو مجموع اقليمي. فما هو ملاحظ بما لا يقبل الشك هو انصـــــــــباب الفعالية القصوى للحلف الصهيوني الأمـيريكي على الـوطن العـربي، وعلى عمقه الاستراتيجي الإسلامي، ومداه الإقليمي المتنوع. والوطن العربي -صـدقنا ذلك أم لم نصـدقه- هو فعلاً "قلب العـالم" :موقعـاً وثـروة وعراقة أصـالةٍ تاريخية حضـارية مؤسِّسةٍ ومؤصِّـلة. وليست هنـاك قـوة كـبرى لا مصـلحة لها فيه أساساً، بصرف النظر عما يقال من "إن العـالم قد صـار قرية كونية صغيرة".

إنه في النهاية ساحة التصارع الأساسية بين القوى العالميـة: ماضياً وحاضراً، ومستقبلاً أيضاً. وهذا الـوطن/ القلب قد دفع ولا يـزال يـدفع أكـثر من سـواه ضـريبة النمـوّ والاسـتمرار الرأسـماليين الامبريـاليين. وشـروط المرحلة الانتقالية الآن، في الأوضاع والتوازنات ومعـادلات علاقـات القـوى العالميـة، تبـدو كأنما تضع العـرب موضع الامتحـان الصـعب بخصـوص البقـاء النـاجع أو الخـروج الفعلي من التـاريخ إلى هوامشه الميتة. وفيما تستسلم بعض القوى والأنظمة العربية لمسألة الخـروج من التـاريخ، وفيما يـدير بعض آخر ظهـره للامتحـان المذكور إدارة سلبية، يقوم بعض ثالث بخـوض معركة البقـاء مســـتخدماً كل ما يمكنه اســـتخدامه من إمكانـــات. ومن

الإنصاف القول: إن سورية العربية هي قائدة هذا الاتجاه في هـذه المعركة المصـيرية مسـتعينة بعـدد من القـوى العربية والإسـلامية والإقليمية ومحركـةً بمهـارة ظـروف المعركة وممكناتهـا، ومسـتفيدة إلى أقصى مـدى ممكن من الفـرص المتاحة في مستجدات الأوضاع الدوليـة. وعلى هـذه الأسس تم كسب "نقـــاط" مهمة -تكتيكية واســـتراتيجية- إبـــان الحوارات الصعبة التي تركزت في دمشق حول إقرار (ورقة التفاهم) المتعلقة بوقف إطلاق نـار الصـهاينة على المـدنيين اللبنـانيين كمثـال.. وبتـأثير التفـاهم السـوري/ المصـري، ثم السـعودي لاحقـاً، وبـدفع من قـوة الفعل السياسي السـوري أساسـاً، لم يحضر غالبية العـرب "مـؤتمر الدوحـة" المنعقد برعاية أمريكية وحضور صهيوني في أواخر عام 1997.

وبـالطبع، كسب الاتحـاد الأوربي ويكسب مكاسب هامة في المنطقـة: سـواء عـبر مـؤتمر برشـلونة ومشـروع "السـوق المتوسـطية" -الـذي يبـدو بـديلاً ملائمـاً للتفـرد "بالشـرق الأوسط الجديد"- أو حـتى بـدخول فرنسا إلى جـانب أميريكا في اللجنة المعنية مباشـرة بتطـبيق بنـود (ورقة التفـاهم) سابقة الـذكر.. غـير أن في ذلك كله أيضـاً مكاسب مباشـرة وغـير مباشـرة للقـوى العربية والإقليمية الـتي من مصـلحتها كسر التفـرد الأمـيريكي /الصـهيوني في تـرتيب أوضـاع المنطقة.

على أن الدلالة الأهم في ما حققته هـــذه القـــوى هي أن توسـيع قواعـدها الشـعبية على مسـتوى الـوطن العـربي والبلـدان الإسـلامية المختلفـة- في إطـار برنـامج واضح لمقاومة هيمنة الحلف الصـهيوني/ الأمـيريكي- إضـافة إلى تحقيق حـدٍّ أدنى من التضـامن بين شـعوب المنطقة ودولها التي لا مصلحة لها في الخضوع لتلك الهيمنة، كل ذلك يمكنه أن يـوفر مقـدمات هامة وفواعل إيجابية قوية في إعـادة صـياغة التوازنـات الدولية والإقليمية صـياغة تسـتجيب ولو للحدود الدنيا من المصالح المشتركة بين شعوب المنطقة.

***

إننا نـرى -بعد هـذا الـذي قـدمناه -أن أطروحـات كتابنا هـذا وتحليلاته واسـتنتاجاته الرئيسة لا تـزال صـحيحة، وسـوف تظل صـحيحة على مـدى غـير قصـير، ما لم تحـدث مفاجـآت حـادة وحاسمة في مركّب توازنات القوى العالمية.. هذه التوازنات الـتي نـرى أن سـمتها الأساسـية الراهنة هي الفوضـى، حيث يمكن للترسـانة الأميريكية أن تتحـرك (بحريّة السـلبطة) كي تـرمم ما يمكن ترميمه في البنيـان الأمـيريكي: الاجتمـاعي /الاقتصـادي/ الثقافي/ الأخلاقي، المأزوم أزمة عميقة ربما تكون طاحنة.. وحيث يمكن للصـهيونية المتمترسة هنـاك أن تسـتفيد من تلك الفوضى كي تعجّل بإرسـاء المقـدمات الضـرورية لبنـاء (الإمبراطورية التلمودية العالمية)، معمقة أزمات أميريكا كي تتمكن من ابتزازها إلى الحد الأقصى!

ما يبقى علينا أن نقوله في ختـام هـذا التنويه هو أننا جميعـاً يجب ألا نكون (ضحايا أمل كـاذب)، بل علينـا- رغم كل شـيء- أن

نكون صُنّاع الأمل بمستقبل أكثر عدالة لنا وللبشرية جمعاء. فميّزة حركة التاريخ هي أنها -في جوهرها- لا تعرف الثبات، وأن الصراع فيها لا يمكن أن ينعدم ولا حتى أن يتوقف. وعراقة الحضارة لدى أمة كالأمة العربية يجب -بحكم منطق الأشياء، وبالإستناد إلى الدروس الكبرى في التاريخ -أن تكون كفيلةً بتحريضٍ لإجتراحِ معجزة الإنقاذ ولو بعد حين.

المؤلف -كانون الثاني 1998ـ

❐❐❐

ãÌÎá

-1-

يقول أحد التعريفات الشائعة للسياسة: إنها فن الممكن.

ويعـني هـذا التعريف ببسـاطة أن السياسي محكـوم، في حركته داخل أطر العلاقـات الدولية القائمة في زمنـه، بحجم وعدد "أوراق القوة" التي يملكها بلده، سواء كانت أوراق القوة هـذه نابعة من حقـائق واقعية داخلية أو مسـتمدة من عناصر الضـعف الخاصة بالخصـم. فممارسة السياسة هي -في نهاية المطاف- عملية صراع مسـتمرة بصـيغ قد تكـون بالغة التنـوع، تخوضـها "بنية فوقية معينـة"، في دولة مجتمع معين، لغاية تحقيق ما يفترض أنه المصالح العليا لهذا المجتمع. والصراع هنا هو كما المصـالح: مشـروط- ومشـروطة- بمسـتويات النمو في ذلك المجتمع، مثلما بالأفق الحضاري العالمي القـائم، وأشـكال تجلياته المختلفـة. فالكل مترابط تركيبيـاً وبصـورة ديالكتيكية مستمرة الحركة، شئنا ذلك أم أبيناه.

وإذا حاولنا نقل التفسير السابق إلى مجال أوضاعنا العربية الراهنة فإنه يمكننا أن نرى ما يلي وبإيجاز شديد:

* هناك سياسات عربية لا سياسة واحدة، لأن هناك دولاً عربية تتقاسم "مشـهد موجودية الأمـة" وإدارة مصـالحها: ليس بأشكال وصيغ مشتتة وحسب، بل بتعـارض متنـاقض إلى حد التحارب العسكري وغير العسكري في أحيان كثـيرة، وإن لم نقل: غالبة!
* إن الأفق الحضـاري العـالمي الـراهن هو أفق الهيمنة الإمبريالية الإبتزازية النهّابة. حيث تتمركز، منذ قرون، عناصر القـوة المباشـرة الـتي تصـنع (هيبة الدولـة) وهي: (القـوة العسكرية- قوة المـال- قـوة المعرفة العلمية والتكنولوجيـة) وذلك وفقاً لقواعد حضارة هذا العصر ذاتها.
*إذا كان الثقل الضاغط للهيمنة المذكورة قد طال العالم برمته فـإن وطأته الأشد لا تـزال منصـبة على المنطقة العربية لأسباب كثيرة: اسـتراتيجية واقتصـادية وثقافيـة.. وفي جملة الظـواهر الـتي تكـونت من نتـائج وطـأة الهيمنة هنـا: إنشـاء الكيان الاستيطاني الصهيوني. وقد استلزم إنشاء هذا الكيـان والإبقاءُ عليه تكـريس الوجـود المجـزأ للأمة العربيـة، إضـافة إلى ما يقدمه هـذا التكـريس من شـروط مسـاعدة على أستمرار الهيمنة الإمبريالية المذكورة.
*خلال نصف القـرن المنصـرم ارتبطت المصـالح العربية العليا

بضرورات مكافحة العـدوان الاسـتيطاني ومسـتجراته، مثلما ارتبطت - أو لنقل ترابطت جدلياً- باشكال الابتزاز الامبريالي الـذي صـار الكيـان الاسـتيطاني الصـهيوني نوعـاً من "رأس جسـر" مباشـر لـه. وفي ذلك تبـاينت اتجاهـات السياسـات العربية، وتناقصّت إلى درجة حدّيّةٍ في مـرات وأحـوال غـير قليلة.

*يمكن القــول -عمومــاً- إن محصــلة الصــراع العــربي ضد الإمبريالية والصـــهيونية، أي ضد الاســـتيطان والنهب، هي "الهزيمة".. حتى الآن، وبصورة إجماليـة! وهي ليست هزيمة استراتيجية نهائية. ومع ذلك فـإن مجمل الأوضـاع المتحصـلة فيها تبيح للكثيرين أن يفسروا مسألة (فن الممكن)- بما هذه العبارة تعريف للسياسة، حسبما سبق لنا القـول بأنه ما عـاد يتجــاوز، في الشــروط المحلية والعالمية الراهنــة، إمكانية التخلي عن خصـومة ومقاومة "ثبت" أنه لا جـدوى منهمـا!.. وعن أهـداف ومشـروعات نهضـوية وقومية وتحررية "ثبت" أنه لم يعد هناك مجـال لتحقيقهـا!!.. وفي هـذا الإطـار تـدور اتجاهات غالبية السياسات لغالبية الدول العربية حسبما صـار معروفاً بصورة لا تقبل الجدال.

*في هذه الشروط جميعاً جرى (إخراج "عـرض" السـلام) على العرب: دولاً وتنظيمات معنيةً مباشرة بـأمر الصـراع أو غـير معنيــة.. وتم ســريعاً نقل "مســرح العــرض" من (خشــبة الشرعية الدولية) إلى خشبة الصـفقات السـرية، فغـرق من غرق كما هو معلوم.. وقاوم الغرق من قـاوم كما هو معلـوم أيضاً!

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو:

-هل حقاً إن ممارسة"فن الممكن"، في ماهو راهن عربياً، لا تتضمن إلا عدداً محدوداً من الخيارات.. أم إنه- ضمن الحدين الأدنى والأعلى للـــذاتي والموضـــوعي في ســـياق علاقاتهما المتبادلة واشتراطات كل منهما- يمكن سياسـياً اسـتيلاد المزيد من الخيارات الأفضل مما هو مطروح كإلزام؟!

-2-

هل ما يطـرح على العـرب -بنـوع من الإلـزام- هو "سـلام" بالفعل، أم إنه شكل جديد من أشـكال الحـرب، ومسـتوى جديد من العدوان؟!

هـذا التسـاؤل هو ما يحـاول كتابنا هـذا أن يجيب عليه من خلال "عملية التشــريح" الــتي قمنا بها للمشــروع -أو برنــامج العمل - الصـهيوني المقبل في منطقتنـا، والمنشـور في كتـاب بعنوان: (الشرق الأوسط الجديد) يحمل اسم الجنرال شــمعون بيريس على أنه مؤلف له.

وقد عمـدنا في "عملية التشـريح" هـذه إلى الابتـداء برسم صـورة عامة للمسـرح الـدولي، بمختلف قـواه، وكما هو الآن: بتوتراته، وقلق توازناته، واضـطراب حركتـه، والأزمـات البنيوية

الشـاملة الـتي تجتاحـه.. ثم بالاحتمـالات الممكنة للتطـورات المستقبلية التي ينطوي عليها ذلك كله.

وبعد ذلـك، قمنا بتحليل ومراجعة أهم أطروحـات المشـروع /البرنامج الصهيوني: فصلاً فصلاً، مستندين إلى جملة من الثـوابت الناظمة لحركة التـاريخ العـام كي نـبرهن على أن سـيرورة هـذه الحركة في منطقتنا -كما في العـالم كلـه- لا يمكن أن تـبرمج بالقوة، مثلما لا يمكن إخضاعها لرغبات الأقوياء الذين يريـدون لها هذه البرمجة. وفي إطار ذلك قمنا بمعايرة أطروحـات المشـروع/ البرناج المذكور على الوقائع التاريخية الثابتة، واستدللنا- في كثير من الأحيان- على صحة تلك المعايرة بالوقـائع المسـتجدة يومياً.. وكل هذا لإبراز ما يمكن أن نسميه "الفضائح المفهوميـة"، وإبـراز عمق الـتزوير والـدجل اللـذين قـام عليهما المشـروع /البرنـامج، وإيضاح غاياته الحقيقية ومرجعيته الثابتة في التعاليم الصهيونية.

وقد بينا في الفصل الأخـير من كتابنا هـذا مـدى التطـابق الكلي بين أطروحات الجنرال بـيريس وبين أساسـيات (الجهـاز المفاهيمي الصهيوني) الذي كان إنشاء دولة الكيان الاستيطاني الثمرة العدوانية الكبرى له على الأمة العربية، مثلما هذه الدولة -وحسب الجهـاز المفـاهيمي المـذكور- هي الثكنـة/ المنطلق لإنجاز وإكمال بقية الخطط والأهـداف العدوانية على العـرب!.. ودائمـاً كـان الترابط الصـميمي بين الإمبريالية والصـهيونية موضوعاً في حسابنا كأساس لذلك كله.

وقد عمدنا في "الكلمة الختامية" إلى مراجعة أهم الأطروحات الشائعة الآن عالمياً -أو المشيعة عمداً- حول قضية: انحسار مفهوم الدولة/ الأمة لصالح ما يسمى (العولمة)، وما سميناه نحن "الإدارة العالمية الكوسموبوليتانية العليا" لعمل الكتل الاقتصادية الإمبريالية. وإذا كنا قد أوضـحنا بشـيء من الاختصـار، تهـافت تلك الأطروحة على المستويين: التاريخي، والواقعي الإجـرائي، رغم ما يطفو الآن من ظواهر على سطح حركة القوى الإمبريالية التقليدية المأزومة، فإنه ليؤسـفنا أن نكتشف أن أعـداداً من مشـاهير المفكـرين والمثقفين العـرب غـارقون -معتمـدين أو بحسن نيـة- في التبعية الثقافية للغرب الإمبريالي إلى درجة يصح معها أن نقول:

إن مؤسسة اسـتغراب حقيقية -من حيث مسـتوى فعاليتها في الوعي العام، ومن حيث مردوداتها السـلبية- قد حلت بقـوة محل مؤسسة الاستشراق القديمـة.. بوسـائل مختلفة ولغايـات ليست خافية.

وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه من فصول هذا الكتاب.

-3-

في الفقـرتين السـابقتين وضـعنا ما هو سياسي إجـرائي عـربي أمـام ما هو "مفهـومي/ برنـامجي" في العمل الصهيوني/الإمبريالي الذي يتمـوّهُ ببافطة (السـلام!).. وإن يكن ذلك بمنتهى الإيجاز.

والسؤال الذي أنهينا به الفقـرة الأولى - وهو أساسـاً موجه

إلى "رجل السياسة" العربي- يمكن أن نكمله بما يلي:

-قد يجد رجل السياسة العربي نفسه مجبراً، في الشروط العربية والدولية الراهنة، على توقيع اتفاقيات لن تتضمن حتماً إلغاء العدوان الذي تم على الأمة حتى الآن، مثلما توجب إيقاف مقاومة هذا العدوان ولو مؤقتاً /ولنلاحظ أننا لا نتكلم عن جماعة الصفقات ومتابعيهم/ والسؤال الإكمالي هنا هو: إلى أي مدى يمكن ويجب إستيلاد الخيارات الملزمة بحفظ روح المقاومة الشعبية العربية للعدوان مستقبلياً.. وكيف يمكن حمايتها وإعادة ترتيبها، وعياً وروحيةً، في سياق آليات الممارسة الإدارية الداخلية؟

لقد قال الرئيس حافظ الأسد في إحدى خطبه المشهورة قبل عدة أعوام:

(لماذا يجب أن نورث أجيالنا المقبلة هزائم ممهورة بالصكوك)؟!

ولعله من حقنا وواجبنا ونحن نختتم هذا المدخل، أن نكرر تلك القولة الهامة، ولو بشيء من التعديل، الآن:

-بلى!.. ومن أجل ماذا يجب توريث تلك الأجيال المقبلة هزائم ممهورة بالصكوك؟!

-المؤلف- نهاية شباط/ فبراير 1995.

❐❐❐

ÇáÝÕá ÇáÃæá

Úä ãÓÑÍ ÑÞÕ ÇáÔíØÇä

-1-

مبـدئياً، يجب الاعـتراف بـأن حركة التـاريخ في بلـدٍ مـا، أو منطقة ما، أصـبحت- رغم خصوصـيتها وتمايزها العميقين- وثيقة الارتباط بالحركة الإجمالية للمجمـوع الحضـاري العـالمي الـذي تنتظمه اليوم سيرورة تطور شبه كلية.

وبعبـارة أخـرى فـإن كل وضع تـاريخي محـدد بالنسـبة لأي مجتمع على هذا الكوكب اليوم لا يـتركب من محصلة التناقضـات بين العناصر والقــوى الداخلية في ذلك المجتمع وحســب، بل إنه يتركب أصلاً من محصلات التفاعل العميق بين عناصر كينونة ذلك المجتمع وبين جملة واسـعة من الأوضـاع المجتمعية الأخـرى في العـالم، من حيث هي متعاصـرة ومتفاعلة فيما بينها بتـأثير فواعل تاريخية منظورة وغير منظورة.. الأمر الـذي يسـفر، ضـرورة، عن جملة توازنـات أقـلّ ما يقـال فيها إنها ملغومة بالتنـاحرات الـتي يشـكل امتـداد ماضـيها واحتمـالات مسـتقبلها ما يسـمى- إجمالياً وعالميـاً- "حركة التـاريخ". إن "التـاريخ" إذاً هو محصـلة حيـوات البشر عموماً. وعليه فإن حركة هـذا التـاريخ غـير قابلة لأن تصـنّع تصـنيعاً "بـالإرداة الواعيـة" لمختلف صـنوف النّخب المـؤثرة على مسارات تلك الحيوات: تأثيراً راهنياً محدوداً، أو تأثيراً على شــيء من الديمومة المرحلية.. سواء كانت محاولة التصنيع تلك تستخدم أهم معطيـات التكنولوجيا وتجهيزاتها وأدواتهـا، أو أعـتى وسـائل العسكرة وقواها القامعة في سـائر أنمـاط عملها وترتيباتهـا.. ذلك أن حركة عـــدة مليـــارات من البشر -بكل ما يملأ عقـــولهم ووجداناتهم من تنوعات المـواريث والمكونـات ومسـتجراتها، فيما هم يتطلعـون إلى آفـاق تفتحـاتهم المسـتقبلية ويعملـون من أجل ذلك -لهي حركة لا تشـــبه في شـــيء أمر "ميزانية عائليـــة" ولا تقترب الحسابات بخصوصها أيما اقـتراب من حسـابات المبيعـات في "دكان الضيعة"!

إنه يجب حـتى على التـاجر الصـغير في دكـان الضـيعة أن يجــري حســاباته على أســاس من تراكمــات الــديون القديمة وعلاقاتها "برأسماله" الموضوع قيد التداول، وفي الوقت ذاتــه: باحتمـالات الـربح والخسـارة على ضـوء ذلك كلـه.. فكيف هي الحـال إذاً، والأمر يتعلق بـأكثر من خمسة مليـارات من البشر يجـــرّون وراءهم أكـــثر من خمسة آلاف عـــام من التفاعل الحضاري المتسع باضطراد، بكل ما لهذا التفاعل وما عليه؟!

أيــاً كــان الأمــر، فإنه يمكن وصف "حركة التــاريخ" بأنها سلسلة مترابطة من الأوضاع التاريخية ذات التنوع الغني- سلباً

وإيجاباً- وكل وضع تاريخي، خاص أو عام، إنما هو محصلة لما لا يمكن إحصاؤه وحصره من صراع الإرادات، على حد أحد التعبيرات المشهورة لفريدريك أنجلز. غير أن معنى "الإرادة" ليس مجرد الرغبة الدافعة إلى "الفعل الواعي" من قبل هذه النخبة الحاكمة المسيطرة أو تلك، بل هو يتضمن أبعاداً سيكولوجية أشد عمقاً واتساعاً وتنوعاً وقوة بما لا يقاس.. أبعاداً فردية وجمعية، متحركة ومحركة، داخل أطرها المتمايزة، المتفاعلة (من وراء ظهر النخب المسيطرة ورغباتها المصوغة في عدد وفير من أشكال الصياغات الفوقية)... وهو ما يكوّن الفواعل العميقة الحقيقية وغير المنظورة لحركة التاريخ، وبالتالي لمختلف الظروف التاريخية المحددة، في هذا المجتمع أو ذاك، والتي -بتفاعلها المشروط- تنضج وتنتج سويات جديدة للتطور البشري العام: سويات يمكن القول، كمصطلح هنا، إنها هي ما يسمى "الظاهرات التأريخية".

في سياق هذا الكتاب إذاً، سنستخدم مصطلح "الظاهرة التاريخية" للدلالة على ما يشكل وضعاً مفصلياً في سيرورة التطور العام للحضارة الإنسانية، بينما سنستخدم مصطلح "الظرف التاريخي المحدد" من أجل الدلالة على وضع معاين لمجموعة بشرية متمايزة قومياً أو اجتماعياً، وعليه فإن "الظاهرة" تعني محصلة تفاعل مجموع متعاصرٍ من الظروف التاريخية العالمية، وهذا بالنسبة لاصطلاحاتنا هنا.. ليس أكثر.

وإذا كنا قد نقلنا قبل قليل عن أنجلز علاقة نضوج ظرف تاريخي ما -وبالتالي ظاهرة تاريخية ما- بصراعِ ما لا يمكن حصرُهُ من الإرادات، وبيّنّا أن الإرادة ليست مجرد الفعل الواعي أو الرغبة الواعية في الفعل، وأن الامتداد اللاشعوري في عمق كل شخصية بشرية لهذا الفعل، أو تلك الرغبة الشعورية الواعية في الفعل، هو امتداد شديد التعقيد وشديد القوة والتأثير على الوعي برمته- حسبما يقرر علم النفس المعاصر بمختلف مدارسه واتجاهاته-.. فإن مؤدّى هذا القول كله هو أن "السيكولوجيا" الفردية والجمعية لأية مجموعة مجتمعية محدّدة هي، في النهاية، صاحبة الدور الحاسم في تغيير الشروط التي ينبني عليها ظرف تاريخي ما، وبالتالي: ظاهرة تاريخية إجمالية.

والسيكولوجيا، الفردية /الجمعية، مترابطة بقوة راسخة مع الثقافة القومية الخاصة. وهذه الثقافة- كل ثقافة قومية في العالم- هي "حامل" لنظام من القيم يحدّد ويصوغ بدوره نظاماً للعلاقات الداخلية والخارجية، وعلى أساس من أن كل نسق ثقافي إنما هو ببساطة مجرد "صياغة هيكلية" لفهم أصحابه لكينونتهم، ولرؤيتهم الخاصة لطبيعة وجودهم في العالم.. وهنا يكون الاقتصاد وعملياته نوعاً من "التعبير الإجرائي" الهادف إلى استمرار الموجودية وفقاً لتلك الرؤية الخاصة ولما ترسمه أصلاً من مصائر للكينونة في ما وراء هذا العالم أيضاً.

لكن السيكولوجيا، الفردية/ الجمعية، مع سائر ما تترابط معه وتُشكّل توازناتها الحيوية فيه، وإنما تتأسس وتستقر

وتستمر في "الجغرافيا".. أي في المجال البيئي الحيوي الذي نشأت فيه الجماعة المجتمعية واستقرت وتطورت خلال تاريخها الخاص، الذي هو جزء من التاريخ البشري العام. وهذا المجال البيئي الحيوي - ولنقل هنا: إنه الوطن بكل ما يحمله هذا المفهوم من "مفرداتٍ" مكونة له -يكتسب قداسته المطلقة من حيث هو محطٍ العواطف والمشاعر والانفعالات المختلفة، وباعتباره ضامناً موضوعياً لتوازن ما هو متأسس منها على طموحات خلود الكينونة مع ما هو متأسس منها على القلق والخوف الوجوديين اللذين هما في أساس مكونات تلك الكينونة.

وعليه، فإن كلمة "وطن" تعني ما هو أكبر بما لا يقاس من مجرد الدلالة على حيز جغرافي معين، إنه -إذا كان لا بد من مقاربة لتعريفه هنا - هو ذلك "الأفق الموضوعي" لتطور السيكولوجيا، مع سائر مترابطاتها ومستجراتها المفصلة قبلاً، حيث كينونة الكائن ورثت وورّثت كل ما ترتب على الصراعات البشرية التي ملأت التاريخ العام، وما يترتب الآن من صراعات قائمة ومستجدة.. فدخلت وتدخل ترسباتُ وانعكاساتُ ذلك كله في سياق السيرورات السيكولوجية، الفردية والجمعية، لتصير بذلك عناصر مهمة - سلباً أو إيجاباً- في الفواعل غير المنظورة لإعادة التوازن المفقود أو المفتقد في حركة تاريخ هذا "الأفق الموضوعي" الذي هو مدارٌ لتفتحُ كينونة من هم مرتبطونٍ به، وفق ثقافتهم ونظامهم القيمي المعياري، وباعتبارهم جزءاً من "بنيان إنساني" كلي.

وإذا تذكرنا أن كل ما في الطبيعة والحياة البشرية هو محصلة لمركبات توازن بين عناصر ومجموعات لا نهائية من المكونات والقوى المتعارضة المتناقضة، والتي -بتعارضها وتناقضها- تستمر الحركة المتدفقة لكينونة الكون ولكينونات البشر، فإن ما ينبغي استنباطه هنا -كضرورة حيوية- هو أن معيار صلاحية نمط حضاري ما إنما هو مدى نجوعه في الحفاظ على مختلف كينونات البشر، فردية كانت أم جمعية، ودفعها باتجاه تفتحها الحر نحو صيغ أرقى فأرقى.. وداخل "آفاقها الموضوعية" الخاصة أو "أوطانها"، ريثما يتمكن الجميع من التطور المتوازن -والحر أيضاً- نحو اعتبار هذا الكوكب كله "بيتاً" فعلياً لهم مع افتتاح ما يكفي من "نوافذ" بين مختلف الحجرات المتمايزة لمختلف الجماعات والمجتمعات.

أما اعتبار الاقتصاد- وما يتضمنه من صراعاتٍ مفتوحةٍ لغايةِ المزيد من تملك الثروة -معياراً وحيداً وبديلاً لما سبق ذكره، فهو اعتبار أقل ما يقال فيه: إنه أحاديّ ومشوّه وكارثيّ، أيا تكن المنجزات العلمية والتقنية التي يحققها. إنه في الأساس، مجرد صفقة "فاوستية" مع الشيطان كما عبر (غوته) بدقة.

على أن حركة التاريخ البشري العام لا تستطيع أن تستجيب إلى ما لا نهاية له من الزمن لمثل هذا المعيار المشوه الذي يديره الشيطان، ولأن التوازن شرط لاستمرار الحركة،

بفعل القوى المتناقضة المتصارعة جدلياً كدافع ومولّد لها، فإن ما يمكن قوله هنا هو: إن أية "فاتورة" غير مسَّددة لا يمكن لأية برمجه - من فوق- أن تُسقطها من حسابات حركة التاريخ هذه. وبالتالي فإن ما يبدو لنا- بعد كل ما قلناه حتى الآن- هو أن للتاريخ مستحقاتٍ مؤجلة لا بد أن تستوفيها حركته بحكم طبيعتها ذاتها!.. وقد يخيل لأحد أن هذا الاستنتاج، الذي سيكون هاماً جداً في سياق كتابنا هذا، هو نتيجة منطقٍ تأمليّ تحكمه الرغبة المسقطة إسقاطاً على حركة التاريخ... لكن الحقيقة هي أن هذا الاستنتاج له طبيعة المسلمة الهندسية التي لا تحتاج إلى برهان، لدى كل من له إلمام موضوعي بتاريخ الحضارة الإنسانية منذ نشوئها. وعليه فإننا سوف نعتمده كأساس منهجي أولي لمناقشة ما نحن بصدد مناقشته في هذا الكتاب.

***

ما نحن بصدد مناقشته في هذا الكتاب هو أفكار وتصوراتُ- ولنقل: رؤى!- السيد شمعون بيريس في كتابه الشرق الأوسط الجديد(*) حول مستقبل هذه المنطقة، العربية وغير العربية، من وجهة نظره.

وإذا شئنا الدقة، فإن كتاب السيد بيريس هو نوع من "البرنامج الاقتصادي" لسياسي" المصمم عمداً بصورة غائمة، وعلى أساس المستجدات العالمية التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتي السابق وكتلته الشرقية قبلاً.. وبالتالي على أساس ما يدعى الآن -إعلامياً- باسم "النظام العالمي الجديد". وعليه فإن أية مناقشة موضوعية لأطروحات السيد بيريس في "كتابه/ البرنامج" الذي يظهر ما يظهر ويخفي ما يخفي، هي مناقشة لا بد أن تبدأ من رسم صورة إجمالية وعامة لحقائق المرحلة التاريخية الراهنة، بما هي نتاج مسيرة كلية للتاريخ العالمي المعاصر- وإن شئتم: التاريخ العالمي الحديث- وبما لهذه المسيرة وما عليها.

إن رسم هذه الصورة- ولو إجمالياً- هو عمل ضروري لنا كيَمْا نرى الأفق الحقيقي الذي يتحرك فيه برنامج السيد بيريس: بإشباح وعوده الخلابة، وبشياطين توعُّداتِهِ التي أخذت تتموه فجأة بأقنعة ملائكية!

وربما، كي نبدأ، علينا أن ننظر أولاً في هذا المصطلح الذي كثر فيه اللغط واللغو الإعلامي الغربي: مصطلح "النظام العالمي الجديد"، فما الذي يعنيه هذا المصطلح على وجه التحديد؟!

لقد أطلق السيد جورج بوش، الرئيس الأميريكي السابق، هذا المصطلح أثناء فترة الاستعداد لحرب الخليج الثانية، وفيما كان الاتحاد السوفييتي ومنظومته الاشتراكية آخذين في الانهيار ثم في التفكك النهائي الكامل، ولكل هذا دلالته بالطبع!

إن المصطلح في صيغته السابقة أعلاه، يتضمن- على المستوى المعرفي المحض- بعداً حضارياً كلياً.. بمعنى أنه

(*) ترجمةُ إلى العربية: محمد حلمي عبد الحافظ، منشورات "الأهلية للنشر والتوزيع" -الأردن، عمان، طبعة أولى 1994.

يشير إلى تغيير جذري في البنيات الحضارية العالمية الراهنة، وفي وظائفها الإجمالية. ولكن هل الأمر كذلك فعلاً أم إن السيد بوش لم يكن يعني من مصطلحه هذا، وقت إطلاقه، غير إعادة ترتيب العلاقات الدولية داخل النظام الرأسمالي/ الإمبريالي القائم، ومن وجهة نظر المصالح الإمبريالية الأميريكية أولاً بأول، ومن حيث هي مصالح مترابطة صميمياً مع مصالح رأس المال الصهيوني؟!!

أعتقد أن هذا التساؤل يحمل إجابته في الشق الثاني منه، رغم كل مستجدات الوضع العالمي بما فيها الدخول في مرحلة الثورة التكنوإلكترونية -ثورة المعلوماتية- وما يبشّرُ به عنها من "عطاءات" حتى على المستويات البنيوية الحضارية: الباحث الأميريكي المستقبلي المشهور (ألفين توفلر) في كتبه: "صدمة المستقبل" و"خرائط المستقبل" و"الموجة الثالثة" و"تحول السلطة"... والثلاثة الأخيرة منها مترجمة إلى العربية لمن شاء الاطلاع عليها.

وأعتقد أيضاً أن سلامة البحث في ما هو إجمالي عن طبيعة المرحلة التاريخية الراهنة تقتضي التذكير بحقائق العصر الرأسمالي -الإمبريالي الراهن، وتطوراته، ومستجراته: الخاصة/ الأوربية، والعامة/ العالمية، مثلما تقتضي النظر في جوهر قِيَمِهِ، وفي نظام العلاقات المتأسس على تلك القيم، ذلك النظام الذي أعاد إنتاج ثقافة أوربا بمجملها وفقاً لمقتضياته، وحمّل سيكولوجية "الأوربي" بمزيد من المكوّنات الدافعة إلى شوفينية عرقية عنصرية بغيضة، مثلما حدد بدقة حدود وكيفيّات علاقات أوربا ببقية العالم خلال خمسة قرون متواصلة.

إن البحث التاريخي الجادّ يُظهر بوضوح أن أوربا هي منتجة أول عصر عبودي عالمي، بالمعنى الدقيق للمصطلح، انطلاقاً من الإغريق- أثينا واسبرطة خصوصاً، ثم الرومان لاحقاً. وفي نهايات هذا العصر تبنت أوربا نوعاً من "مسيحية" مُهوّدةٍ ومُهَلَيَنةٍ في وقت واحد، وبعد إبادة الاتجاه الآريوسي العربي -نسبة إلى البطريرك المصري آريوس الذي كان بطريرك الاسكندرية ورفض القول بأي شكل من أشكال لاهوتية السيد "المسيح(*)"-... وعليه، فقد تداخلت العناصر الوثنية، واليهْوِيّة- نسبة إلى يهوه- والسفسطة الهيلنستية المتأخرة في صياغة "مسيحية" أوربا، الأمر الذي سيجعل حتى من الأطروحات القيمية في الأناجيل المتداولة "مجرد أقوال" تُردِّد في الصلوات وأثناء ممارسة الطقوس، دون أن يكون لها أي أثر حي وحقيقي في الأفعال والممارسات.

(*) تفضل أحد الزملاء القراء فنبهنا إلى الأصل الليبي لآريوس. لكن ليبيا كانت طيلة العصور المصرية القديمة امتداداً جيوسياسياً وثقافياً لمصر. وعزلها هنا، تبعاً لتصنيفات الغربيين، أو حتى لسياسات روما زمن سيادتها، كي تنسب آريوس إليها لا يغير شيئاً من حقيقة وضعه. فنسبته إلى مصر منطقية ومقبولة ولو كان ليبيَّ المولد. وما الفرق ما دمنا هنا نهتم بكونه عربياً؟! ثم ألم يكن بطريرك الاسكندرية مركز المسيحية آنذاك فيستحق النسبة إلى مصر صانعة ثقافته ومفهوماته؟!

واستقراء التـاريخ الإغـريقي يشـير إلى أن نهضة الهيلينـيين تبدأ نحو 700ق.م عبر مسارين اجماليين اثنين:

الأول: هو التجـارة المعتمـدة على الـرق كنظـام عـام لسـائر دويلاتهم في شبه جزيرة إيتيكا الصغيرة وجوارها.

والثاني: هو العمل في الارتزاق العسكري لدى أواخر قراعنة مصر الراغـبين في مقاومة الفـرس. ومن هـذا الارتـــزاق ســـتتولد أسس النزعة الارســـتقراطية العسكريتارية ومتطلباتها.. وهذه النزعة ستصير- بدورها- إضـافة إلى الاسـترقاق، الأسـاس الإجمـالي للسـيطرة الرومانية اللاحقة على مجمـوع منـاطق حـوض البحر المتوسط.

وبصـرف النظر عن النتـاج الفكـري- الفلسـفي والعلمي- لكبار مشاهير المفكرين الإغريق، فإن جـوهر نظـام القيم الـتي حكمت مجمل علاقات النـاس، في إطـار "الاسـترقاق" المعمم بـالقوة العسـكريتارية، إنما يتمحـور جـذرياً على فكـرة "امتلاك الثروة" دون النظر إلى الأسلوب الذي يتحصل به هـذا الامتلاك. وبـالطبع ذهبت روما بعيـداً في هـذا الاتجـاه الـذي يتحـول فيه الإنسان إلى أداة للثروة بدل أن تكون هي أداة لتفتح روحه نحو ما هو أكثر إنسانية وأكثر نجوعاً للبقاء الحضـاري العـام، القـائم على الاعـتراف المتبـادل بـالحقوق والمصـالح والمنـافع لكل الأفـراد والمجموعـات الداخلة في نسج ذلك الكل الحضـاري الواسع والسائد آنذاك.

إن الإنسان -هكذا- يصبح عبداً لثروتـه، حيث وجودها وكبرها يحـددان درجة ترتيبه في الهـرم الأوليغارشي الارسـتوقراطي المهيمن.. بينما انعـدامها يلغي الاعـتراف بإنسـانيته، وينزله إلى درجة "الرقيق"، والقابل - بالتالي- لأن يكـون، في ذاتـه، سـلعةً ليس أكثر!

وإذا أضفنا إلى هذه النتيجة محصلة ما يستقرئه المرء أيضاً من الأسفار الأساسية في التوراة التي ستصير (العهد القديم!)- وهي محصلة ترفد تلك النتيجة وتعززها قدر ما تتعـزز بهـا- فإنه سـوف يتأكد من نوعية "الروحيـة" الـتي أخضـعت لها مسـيحية السيد المسيح، حيث هي لم تزد عن أن تصير مجرد قناع لنزوع الامتلاك البراغمـاتي!.. إن (ثلاثين الفضـة) الـتي قبضـها يهـوذا لتسـليم يسـوع، حسب رواية الأناجيل المتداولـة، سـتكون هي الأهم والأوفر حظاً من التقدير، والأجدر بالتقـديم على سـائر ما يتبقى في تلك الأناجيل.. تماماً مثلما كان (العجل الذهبي) وقت غيـاب موسى "لمقابلة رب الجنـود" هو المعبـود الفعلي لبـني إسرائيل- وحسب التوراة!- رغم وجود هارون!

إن عصر "النهضـــة!" في أوربا لم يكن الإعلان عن انتمائه إلى (الأجـداد!) الإغريق والرومـان محض مصـادفة، أو محض تعلـق بـآداب وفلسـفات وثقافة مجـردة.. وإنما كـان، وفي الصميم، إعلاناً عن الانتمـاء إلى "الروحيـة" الـتي أنجـزت عصر الرق ثم تكاملت بـدورها فيـه، وإعلانـاً عن الانتمـاء إلى أسـاس نظـام القيم في ذلك العصـر: "امتلاك الـثروة" وفق المبـدأ

الميكيافيلي المشهور (الغاية تبرر الوسيلة) وعليه، فإن السيد ميكيافيلي لم يكن -هكذا- أكثر من "نبّاش قبور" ولم يكن مبتكراً لشيء من "عنديّاته" على الإطلاق!

وفي إطار هذا كله، فإن ضوضاء "عصر الأنوار" الثقافية، وشعارات العدالة والإخاء والمساواة، ستموت بسرعة مذهلة.. وستتحول- بالسرعة ذاتها- إلى نوع من الغطاء الديماغوجي لفعالية "الروحية الحقيقية" التي تشتغل في عمق حياة الناس وهم "ينهضون!" في أوربا إلى امتلاك ثروات العالم بكل الوسائل المناسبة، وفقاً لقيمة فضة يهوذا الاسخريوطي، وعجل إسرائيل الذهبي، لا وفقاً "لمحبة" يسوع ولا "لمُثُلِ" أفلاطون!!

وفي إطار التحول: من "استنقاع" مرحلة الاقطاعية الأوربية، التي هزتها مستجدات الحروب الصليبية الفاشلة من الجذور، إلى "النهضة" نحو امتلاك ثروات العالم.. في ذلك الإطار سَنَحت الفرصة الكبرى "لعجل الذهب" اليهودي، المعبود في أحلك لحظات التيه، كي يضع نفسه في أساس العملية الهائلة المقبلة.. مثلما وجد أصحابه- من قبل- فرصتهم المواتية كي يجعلوا من أسفار "عهدهم القديم" أصلاً ومرجعاً للأناجيل، رغم كل ما بين هذه وتلك من اختلاف وتعارض وتناقضات وفجوات لا يمكن ردمها أو إقامة أية جسور فوقها بتاتاً!

وكاستطراد -وفيما نحن نسوق المقدمات للوصول إلى الإجمالي الذي يسم عصرنا الحضاري الراهن- فإن بعض التفصيلات كاضطهاد بعض اليهود في أوربا بين فترة وأخرى، لا تغير شيئاً من طبيعة السياق العام لإيقاع العصر، ولا من طبيعة العناصر المكونة لحركة التاريخ فيه... تماماً، كما لا يغيرها نمو العلم الغربي، أو وجود نزوع إنساني رفيع لدى كثير من مفكري هذا الغرب، مثلما لم تغير فلسفات أفلاطون وأرسطو وشراحهما شيئاً من إيقاع عصر الرق الإغريقي الروماني أو من علاقاته وطبيعة حركة التاريخ فيه.

وإذا كانت أوربا قد دفعت أثماناً باهظة لقاء الصراع المستمر بين دولها على الثروات ومصادرها فإن ما دفعته، وتدفعه حتى الآن، بقية العالم بمختلف شعوبه: من أطفال التحضر البدائيين.. إلى أصحاب الحضارات الباذخة الراسخة، لهي أثمانٌ تفوق كل تخيل وكل وصف. ودائماً يجد المتأمِّلُ في ذلك كله أن وراء كل ما جرى ويجري توجد فضة يهوذا وعجل الذهب المعبود: مطلوبَيْن وفق مبدأ ميكيافيلي الذي وجد صياغته المثلى في براغماتية السيد وليم جيمس وتابعيه.. ودائماً هناك مخالب الشيطان صاحب الصفقات الفاوستيّة، والذي غالباً ما يرتدي قناع قديس فيما هو يدير ترسانات التدمير كيما يقنع الضحايا -إلى الأبد- بطهارته الملائكية!.. وكيف لا، وهو يتكئ دائماً على الأصل المزعوم للأناجيل (=العهد القديم) حيث تتكرر بكثرة مثيلات هذه "العبارة/ الوصية" (متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك.. فإنك تحرّمهم-

أي تبيد كل حياة فيهم!- لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم)؟!
سفر التثنية 1/7-2

حقاً، إن الزواج القسري المنكود بين "مسيحية" سيئة الحظ وبين السفسطة الهيلنستية من جهة، والشوفينية التوراتية الحاقدة من جهة أخرى، وعلى قاعدة القيم الوحشية لعصر الرق.. ذلك الزواج قد أعيدت "يقظةُ!" محصلاته كيما يصير (الربّ العمليّ الحقيقيّ) لعصرنا هو المالَ/ رمزَ تملك الثورة الفوارة بالدم الإنساني المغدور!.. فهل سيكفي هذا لنجوع البقاء الحضاري للبشرية؟!

ولكن ما لنا نستعجل الأسئلة الفاصلة بصورة مسبقة، أو بلا ما يجعلها لازمة عبر سياق البحث ذاته؟!.. فلنعد إذاً إلى ما كنا فيه.

إذا كان القرن السادس عشر قد دشّن- أوربياً- قصّ الشريط الحريري لمرحلة الإبادة شبه الكاملة لهنود أميركا، وللسكان الأصليين في استراليا وجنوب إفريقيا.. وسواها، بغية الاستيطان محل أولئك البشر، وبغية التمتع بثرواتهم التي بدت مذهلة للمستكشفين الأوائل ومن لحقهم من المغامرين والرعاع والهاربين من (التصفيات الدينية المقدسة!)، فإن القرن السابع عشر قد قدم التسويغ البراغماتي- وعلى مستوى أحد أرقى فنون الأجداد!- لما كان يدور من افتتاحيات مرعبة للعصر النهضوي الذي ستتسلم "البيوريتانية(*)" قيادته بعد فشل أولئك (السذّج!!) من الفرنسيين الذين صدقوا حكاية (العدالة -الإخاء- المساواة)!

أما التقديم الفني لتسويغ البراغماتية فقد كان على يد شكسبير -العظيم جداً- وفق العقلية والقيم البيورتيانية التي ستعمم لاحقاً، وبمختلف أشكال القوة، على اعتبار أنها الصياغة الأرقى لقيم الأجداد الأغارقة والرومان.. وذلك على ذمة ليف تولستوي، العظيم بالفعل، والذي قام بتشريح وليم شكسبير من داخله، ومن منظور إنساني وموقف نقدي في كتابه الصغير الهام: "شكسبير والدراما(**)" ونحن نأخذ هنا باستنتاجات تولستوي خلافاً لكل ما بنته الثقافة الغربية المهيمنة حول شكسبير.

وفيما كان السيد شكسبير ينتج (تاجر البندقية) مسرحيته الشهيرة التي يصب فيها نقمته العارمة على النهج الشايلوكي اليهودي في التعامل(*) كان العقل السياسي الانكليزي يتهيأ لفترة كرومويل حيث ستُختَرعُ (الصهيونية) كتنظيم للأصولية اليهودية، وفي وقت كانت فيه انكلترا (نظيفة تماماً- والتعبير لهم هم الانكليز) من وجود أي يهودي فيها! وكان ذلك التنظيم هو الأساس الذي سيعيد هرتزل البناء عليه لاحقاً.

---

* (*) كلمة بيوريتاني تعني: "طهراني" في الأصل، لكنها هنا مصطلح يدل على اللؤم الحاقد والدهاء الماكر اللذين يحركان طهرانية التشدد في إلتزام التعاليم الأساسية الإبادية عند التعامل مع من يُعتبرون خصوماً- راجع المقبوس السابق من سفر التثنية.

* (**) ترجم إلى العربية ونشر قبل نحو عامين عن دار الحصار بدمشق. واستخفاف عوته أيضاً بشكسبير معروف جيداً للمهتمين.

* (*) الشايلوكي: نسبة إلى شايلوك، شخصية المرابي اليهودي في المسرحية المذكورة. وقد عاش شكسبير بين عامي 1564و1616 وعاش كرومويل بين عامي 1599-1658.

ويبدو في الأمر مفارقة شـديدة الغرابـة: شكسـبير الغـارق في الإنعامات الملكية، وإنعامات صناع السياسة الانكليزية الـتي كانت البيوريتانية سـمتها وجوهرها الأساسـيين، مثلما هو غـارق في نهج تفكـيرهم البراغمـاتي وصـراعاتهم الدينية والدنيوية في حينها، يصور اليهوديَّ النمطيّ وحشـاً من أكلة اللحم البشـري.. بينما صـناع السياسة اللاحقـون لمرحلته -خصـوم البيوريتـان، ومرسِّخو البراغماتية- يسعون بدأب مسعور لاسـتقطاب اليهـود في الأطر البرنامجية الصـهيونية الـتي ستصـوغ لهم مسـتقبلهم الخاص المميّز!.. فما هو إذاً سر هذه المفارقة؟!

إن اجـتزاء أية واقعة من سـياقها العـام، أو تجريد أي تعبـير فكـري/ فـني من وظيفته الأيديولوجية داخل مثل ذلك السـياق، لهما أمــران ينمــان: إما عن الجهل وإما عن "زعــبرة" معرفية متعمدة.

إن طبيعة الصراعات الـتي كـانت تـدور آنـذاك في مجمـوع "القارة الناهضـة!"، ومنها انكلـترا، حيث كـان اليهـود يشـتغلون بتجارة المال الربوية- كاسـتجابة لظـروفهم الخاصـة- فيمولـون مختلف الأطراف المتصارعة، ويقفون أخيراً إلى جانب المنتصر عـبر توظيف أمـوالهم في خدمة سـلطته.. كل ذلك هو ما يجب أن يكشف لنا عن سر المفارقة المذكورة.

فانكلترا المعزولة، والمنهكة بصراعاتها الدينية وغـير الدينية لم يكن ينقص سياسـييها ذلك الطمـوح إلى أخذ الـدور القيـادي للقارة في خضمّ الصراعات المفتوحة. وهـذه القيـادة كـانت قد استقرت نسبياً في اسبانيا والبرتغال، وإلى حدّ ما: في هولاندا.

ونحن هنا لا نريد التحـــدث عن الصـــراعات الدينية داخل القارة، رغم أنها لا تخرج عن كونها امتداداً أو مظهراً لصراعات تملك الـثروة ومصـادرها -ولنتـذكر جيـداً أنها إنما نشـبت بعيد انتهاء الحروب الصليبية- بل نحن نتحدث فقط عن الصراع على "الثروات- الحلم" ومصادرها في "العوالم الجديدة". ولقد كانت انكلترا آنـذاك مسـتنزفة بشـدة، وتفتقر بحـدة إلى التمويل كي تخـــــرج من عزلتها نحو تحقيق طموحها في اصـــــطياد تلك الـثروات/ الحلم، واقتنـاص الـدور القيـادي من مراكـزه القارية المـذكورة. وكـان "الشـايلوكيون" هم وحـدهم من يسـتطيعون تقديم التمويل المطلوب.

وهكـذا، فيما كـان السياسـيون يشـتغلون باسـتجلاب أولئك الشايلوكيين عن طريق اختراع (المنظمة الصهيونية) كـان الفن الشكسبيري قد أخذ على عاتقه تنفير "زبـائنهم" القـاريين منهم عبر المبالغة في بشـاعة ما ارتكبـوه في المراكز القاريـة، أو ما يمكن أن يرتكبوه قياساً على وقائع (تاجر البندقية).. وباختصار، كــان الفن الشكســبيري يــؤدي وظيفته بتقــديم الوجه الآخر الضروري "للعملة السياسية".وبالطبع، فإن الروحية البراغماتية لا تجد في مثل هذه اللعبة "النافعة" أي إخلال أو غرابة!

وكاسـتطراد، نـراه ضـرورياً جـداً، فـإن "لعبـة" شكسـبير السـابقة يجب ألا ينظر إليها إلا في إطـار يضم أيضـاً صـورة "عطيل" المغربي/ العـربي: ذي اللـون المرفـوض عرقيـاً، وذي

الطبيعة الانفعالية الغبية التي توحي بأن الانتصار على صاحبها- أو أصحابها بالأحرى- هو أمر ممكن وبسهولة تامة! فهذه الشخصية النمطية-عطيل- مهما تكن بطولاتها وحنكتها الحربية، فإنها لا ترى من العالم إلا "المرأة" أولاً وأخيراً! وعليه، فإنها ليست مصادفة ألاّ يجعل شكسبير هذه الشخصية إلا عربية!.. إن الفن الشكسبيري يخدم أيديولوجياً بقوة مؤثرة، وفي عمق الطموحات السياسية الإنكليزية وجذر خططها! أوليس المجال الذي سيكون (المجال الحيوي) للفعل الصهيوني المرتقب هو أرض العرب الذين ليس لهم إلا هذه "المواصفات العطيلية؟!(*).

إن هذه المسرحية: "عطيل" هي حبة الحلوى المعسّلة التي قدمت آنذاك، وعقب انتهاء الحروب الصليبية، للأصوليين الشايلوكيين كإغراء للمبادرة إلى المشاركة في مشروعات الطموح الانكليزي! فإذا عرفنا شيئاً مما كان يعانيه اليهود في "غيتواتهم" داخل القارة من إزدراء واضطهاد- كانت انكلترا برئية منه لأنها كانت نظيفة منهم!!- أدركنا قوة الإغراء الذي كان يقدمه برنامج الصهيونية لليهود- وللشايلوكيين منهم خصوصاً- كي ينخرطوا بقوة، وبدفع من المخاوف والإحباطات داخل القارة المضطربة، في مجموع العمليات المترتبة على مجمل الطموحات الانكليزية.

إن ما نريد أن نخلص إليه من وراء ما قلناه في هذا الصدد هو أن الدور اليهودي- الدور الأصولي والربوي الشايلوكي على وجه الدقة- كان دوراً جوهرياً في إرساء أسس العصر الذي سيصير رأسمالياً/ امبريالياً مقوداً بالمكر والحقد البيوريتانيين، مثلما سيستمر دوراً رئيسياً في مجموع التطورات اللاحقة عبر نمو هذا العصر. وهذه، بالطبع، ليست "أكذوبة ماركسية!" على الإطلاق.. ولا دعاية مضادة أو "موقفاً لا سامياً!" متبقيْن من رواسب الحرب الباردة وما قبلها في عقولنا العطيلية!!

ولن نستطرد في الجري وراء تفصيلات هذا الدور اليهودي الشايلوكي في صياغة عصر الرأسمال الربويّ، ولا في مستجرات ذلك على عامة اليهود. فالشايلوكيون "لعبوا" بزخم خفي بين القوى المتناحرة، فكسبت أكثرية هؤلاء بينما حصدت غالبية اليهود إذلالات انتهت بمذابح في كثير من الأحيان. وهذه محصلة طبيعية للدخول في "سوق مضاربات المصالح" التي كان حصاد الشعوب الأوربية منها أسوأ بكثير من حصاد اليهود. أما لماذا جعل قتل أيِّ يهودي في مذبحة -رغم أنه ليس أكثر من قربان للعجل الذهبي الشايلوكي- قضية تحفل بكل الجعجعات والطنطنات المعروفة المألوفة فذلك أمر يحتاج إلى تفصيل لسنا في صدده هنا. فللصهيونية وحلفائها أساليب غرائبية في تحصيل ما لها من "مستحقات التاريخ" /تاريخ " لعبها" هي بين القوى المتناحرة... وذلك في الوقت ذاته الذي يتعامى فيه قادتها أو ممثلوهم -كالسيد بيريس -عن أنهم

(*) أياً يكن التقدير النقدي لمسرحية "عطيل" فإن ما يعنينا منها هنا إنما هو الصورة الإجمالية لشخصية العربي في العقل الانكليزي بعد فشل الحروب الصليبية.

بدورهم كانوا، وسيكونون، مـدعوّين بقسـوة لأداء ما عليهم من تلك المستحقات!

والأهم بالنسـبة لنا هو أن عـدداً من كبـار الحاخامـات في أوربا ظلـوا نحـواً من قـرن يسـتخفون بالصـهيونية وأطروحاتها الدنيوية البيوريتانيـة. ولكن، حين تعـزز الـدور الشـايلوكي، وبـدا واضحاً ما لليهود من منفعة في تحـول المـال إلى "رب عملي" لملكوت السوق، فإنه سرعان ما طردت من ذهنية اليهـود بقايا الفكرة المقبوسة من ثقافة القرون الوسطى والقائلة: إن جبل صـهيون هو رمز روحي، وأنّ "مملكة الـرب" في أورشـليم هي مملكة روحية أيضـاً - حيث أصـداء تـأثيرات الثقافة العربية الإسـلامية في عصر سـيادتها العالمية شـديدة الوضـوح هنـا-.. وصـار يجب، بالتـالي، أن يسـتقر العجل الـذهبي في هيكل سـليمان المزعـوم الـذي لم يجد له أيّ بـاحث أيّ أثر رغم كل زخم الرغبة وكثرة التنقيب.. وذلك بدلاً من أن يبقى الرب الإله الحقيقي مستقراً في هيكل القلب والروح الإنسـانيين كما لـدى سائر المؤمنين بالإله الحقيقي، فلا يصـغّرون ملكوته إلى مجـرد كبسولة كوكبية في مجموعة شمسية على ذراع مجرة، تكـاد لا تساوي شيئاً إذا ما قيست بمجرات هذا الكون المعجز الفسيح!

إن دخول المال الشـايلوكي في صـلب البنيـات والعمليـات البنيوية الرأسمالية المتنامية، قد أعاد إحياء أسوأ ما في أسـفار "العهد القـديم" من نزعـات، وأحقـاد وطموحـات، وشـوفينية عرقية.. ونزع عنها كل قناع رمـزي محتمـل، وصـبها جميعـاً في صيغة "مشروع استيطاني" في ما عرف باسم (الوطن القومي لليهود) وكل ذلك بإشراف ومشاركة بيوريتانيين كاملين!

إن القـرن الثـامن عشر سيسـجل لنا إسـقاط كل ما هو إنساني الطابع في أفكار عصر الأنوار داخل فرنسا ذاتهـا، وذلك تحت وطـأة البراغماتية الـتي صـار يمكننا وصـفها أيضـاً بأنها (شايلوكية بيوريتانية مشتركة)! وإلى الشرق من فرنسا تمامـاً، أي في ألمانيـا، كـان يسـجل لنا أيضـاً بـدايات التفـاقم المتـازم للاتجاه العرقي تحت الوطأة السـابقة ذاتهـا.. أما القـرن التاسع عشر فسـيكون (قـرن الإنضـاج الكبـير): ليس للصـراعات الاسـتعمارية المباشـرة وحسـب، بل أيضـاً لكل طاقـات الفكر العـرقيّ وممارسـاته النخاسـية ذات الفـرادة المذهلة في وحشيتها، إذ لأول مرة في التاريخ يجري تقتيل وإختطـاف كـثرة واسـعة من سـكان قـارة برمتها كي يبـاع الأحيـاء منهم عبيـداً لإعمار المستوطنة الكـبرى الـتي ستسـمى (الولايـات المتحـدة الأميريكية).. والتتمة معروفة!..

وفي الـوقت ذاته صـار هـذا القـرن المـذكور قـرن إنجـاز العسـكرة الكاملة للقـارة الناهضة نحو أوسع عمليـات النهب المنظم والابتزاز التدميري العـالمي خلال تـاريخ البشـرية كلـه! وبالطبع، كان لا بد لهذه العمليات الواسعة - وهي تأخذ هذا الحد من الشـمولية العالميـة- أن تسـتجر تناميـاً موازيـاً في تطـور الصناعة والبحوث المتعلقة بها، وفي دورة الرسـاميل وتحـولات عملياتها والصراعات المتولـدة عنهـا.. إلى آخـره، وأن يمتد ذلك

كله إلى قرننا الراهن ويستغرقه حتى هذه اللحظة، حسب ما هو معروف من وقائع وتحليلات كتب عنها وفيها ما لا يمكن لأمثالنا حصره أو إحصاؤه من أبحاث وتقارير ودراسات ومؤلفات.

وما يهمنا بعد هذا العرض للنبذِ التي أوردناها عن إيقاعات حركة هذا "العصر الحديث" أن نشدد الملاحظة على بعض الأوليات والمسارات الأساسية لعمليات النهب الإبتزازي المشار إليها قبل قليل، أو أن نذكر بها -بالأحرى- باعتبار ذلك ضرورياً جداً للوقوف على أرض موضوعية فيما نحن نناقش مخطط السيد بيريس الذي يبدو أنه لا يريد أن نرى إلا ما يقدمه هو لنا باعتبارِهِ "أمراً واقعاً" لا مناص من التسليم به!

أولاً : إن ابتداء هذه المسارات التي نما النظام الرأسمالي العالمي عبرها وبها، إنما انطلق تاريخياً من حقيقة الاصطدام الأوربي -عسكرياً وقيمياً- بالنطاق العربي المواجه جغرافياً لأوربا في جنوب وشرق البحر المتوسط. ومن وراء هذا النطاق عمقه الإسلامي وثقافته السائدة عالمياً آنذاك، مع صرف النظر عن المراكز الحضارية الكبرى المعزولة ولو جزئياً عن التفاعل الكافي مع هذا "الكل" السائد: أعني الهند والصين.

لقد استقرت القبائل الآسيوية في أوربا عقب تصفية الإمبراطورية الرومانية الغربية، ولم تكن هذه القارة وقتذاك تستجيب لاحتياجاتها وأطماعها: لا كمصادر إنتاج ولا كمناخ. ولذلك بدا النطاق العربي وعمقه الإسلامي لتلك القبائل أشبه بسد منيع يحجر عليها حيث استقرت، فيما كانت ثرواته والمظاهر الثقافية /الاجتماعية/ الاقتصادية لحضارته تستثير أطماعها، وتُسيل لعابها رغبةً بامتلاك ذلك كله. وهكذا تفاقمت النظرة الأوربية إلى العرب، وامتدادهم الإسلامي، على أنهم "النموذج الشراني للخلق"... حيث يجب إستئصاله، ولغرض امتلاك ثرواته ليس غير!! وليس أدل على صحة هذا الذي نذهب إليه من الموقع الذي أعطاه دانتي في "كوميدياه الإلهية" للنبيّ العربيّ محمد(ص).

إن الطابع النوعي لهذه النزعة المضادة للعرب وعمقهم الإسلامي، مع ترافُق تلك النزعة ومستجراتها بالإحباطات المزمنة التي تؤسس نمطاً من السيكولوجيا الجمعية المرضية ذات الطابع الطفالي العدواني، قد عُمم عالمياً مع "النهضة الأوربية!"... فانفتحت الفعالية المرضية إلى مداها الأقصى: إبادة شعوب.. نهب لاحدود له.. تمركز مريض على الذات جسدته "نظرية المركزية الأوربية في الثقافة" ....إلى آخره، إلى آخره!

ثانياً : إذا كان الانطلاق الأوربي لامتلاك العالم عن طريق تدميره محكوماً بدئياً بالنظرة المريضة إلى العرب

ونمط عصرهم الحضاري، فإن ذلك الانطلاق قد استند على قيم الميراث الهجين الذي قلنا إنه تولد من إخضاع "مسيحية" منكودة الحظ للسفسطة الهيلينستية وأصولها الوثنية قديماً وللمفاهيم اليْهوِيّة الطاغية على أسفار العهد القديم لاحقاً.

أما تمويل ذلك الانطلاق فقد اعتمد -بدئياً- على المال الشايلوكي وقيَمِهِ التعاملية، حيث هو لا يعترف إلا بذاته، ولا يهدف إلا إلى تنمية ذاته ربوياً.. مع الاحتفاظ هنا للبراغماتية بأقصى حدود قوتها وحضورها كفلسفة تبريرية لتاليه هذا المال/ رمز الثروة التي تلغي الإنسان وتحيله إلى أداة لها كما سبق لنا أن قلنا.

ثالثاً : إن الآلة العسكريتارية التي هي وسيلة التغلب على الآخرين وابتزازهم، وبالتالي وسيلة الحماية لعمل الرساميل وفق قيمها الخاصة، تجد نفسها ملزمة باستمرار أن تستحداث المزيد من الابتكارات التقنية التدميرية والتسلح بها، كيما تتمكن من أداء وظائفها المنوطة بها بكفاءة! وهذه الحقيقة هي ما ستجعل من كل مجمّع صناعي حربي، في كل بلد رأسمالي، أحد أهم المؤسسات الصناعية والعلمية فيه وأقواها.

وفي مرحلة معينة من مراحل النمو الرأسمالي يتعزز دور العسكرة الكثيفة: ليس كمجرد حامية لنظام النهب الابتزازي وحسب، بل أيضاً كأحد أفضل مجالات الاستثمار بالنسبة للرساميل.

ولأن المنتجات الحربية تشترط استهلاكها، كأية سلعة أخرى، فإن مستجرات العسكرة على العالم كان أقلها خلق الشروط السياسية والديموغرافية، وحتى الثقافية، لدى مختلف المجتمعات البشرية على الصورة التي تتطلب ذلك الاستهلاك الواسع.. وهذا أمر "لغّم" الحياة الإنسانية عموماً بالحروب، وباحتمالات الحروب من كل صنف ولون.. ولا يزال "الحبل على الجرار" كما يقال في المثل الشائع!

على أنه يجب أن نشير إلى أن كل مؤسسة عسكريتارية سيظل "مجمّعها الصناعي الحربي" قوّمي الطابع: لجهة الإنتاج كما لجهة التصريف. وهذا هو ما سيجعلها أحد الأطراف المهمة في المفارقة التي ستبرز بين ما هو قومي، وما هو كوسموبوليتاني/ فوق قومي، في التطورات البنيوية الأخيرة للرساميل وحركتها العالمية.

رابعاً : إن النمو الصناعي الهائل للمنتجات غير الحربية- مع ما تبع ذلك من نشوء وارتقاء علوم جديدة، وكشوف نظرية، وابتكارات تقنية تطبيقية- كان بدوره الشرط الأساس لإنجاز الدورة الرأسمالية الربوية الناجعة. فالمال ما كان له، في البداية، أن يدور بذاته تلك الدورة العالمية الواسعة.. أي ما كان له أن يعيد إنتاج ذاته ربوياً،

إلا من خلال تجسده في "السلعة" أولاً. فالدوران الذاتي لرأس المال المالي يتطلب سوية معينة من نمو نظام النهب وأدواته وتوابعه.. الأمر الذي لن يبدأ تحققه الفعلي إلا في نهاية القرن الماضي، ولن يشهد اكتمال وتكامل عملياته إلا خلال هذا القرن، وخصوصاً في نصفه الأخير. وهذا ما سنعرض له بعد قليل.

وتتناسب دورة المال بذاته مع الوضع التاريخي الغيتويّ الخاص باليهود. لكن أولى خطوات البناء الرأسمالي بدأت "قومية"، أي إن الفعالية الرأسمالية الأولية في الأقطار الأوربية المختلفة مالت إلى توحيد "السوق القومية" باعتبارها منطلقاً إلى العالمية.

ولأن المال الشايلوكي تداخل -باعتباره ممولاً- في العمليات الرأسمالية الأولية في عدد من البلدان الناشطة، فإنه سوف يظل مشاركاً هاماً في جملة القوى المتنامية لمؤسسات النهب الرأسمالية الصناعية وغير الصناعية... وسيصير في المحصلة النهائية ركناً قوياً من أركان المنظومة الرأسمالية العالمية.

وينطوي المبدأ العام لدورات الرساميل: (دعه يعمل، دعه يمر) على مفارقة حادة وجوهرية، تنعكس فيها، بوضوح أكبر، أزمة الشايلوكيين والمال الشايلوكي.

إن النزوع القومي لرأسمال البلد الواحد يستجر -خلال فعاليته لتوحيد سوقه القومية- جملة من المترتبات الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والسيكولوجية، التي تُعنى جميعاً بما يشبه أن يكون انغلاقاً في الأفق القومي.. وهذا يتعارض جذرياً مع الطبيعة العليا لعمل رأس المال الربوي، أعني طبيعته الكوسموبوليتانية، فوق القومية.

وهذه المفارقة ستظل مستجراتها ناشبة، في شكل أزمات دورية، وحروب تجارية أو عسكرية، داخل البنيان الرأسمالي العالمي الكلي.. الأمر الذي يفسر حقائق الصراعات الرأسمالية/ الرأسمالية، والأمر الذي ربما لن يجد الحل- بتقديرنا- إلا مع السقوط التاريخي الشامل للنظام الرأسمالي العام، كنظام لعصرنا الحضاري الراهن برمته.

والرأسمال الشايلوكي، المفتقر أصلاً إلى (وطن فعلي) ينجز فيه سوقه القومية كمرتكز ومنطلق إلى العالمية، وجد نفسه بدايةً يتحرك في الأفق الكوسموبوليتاني، لكن أيّ أفق كوسموبوليتاني لا بد له من نقيضه- أي الوطن القومي- كي يتحقق فعلياً كأفق للفعالية.. في ضوء مختلف الشروط العامة والخاصة، لطبيعة العصر.

وهنا يبرز دور (الصهيونية) وما آل إليه أمرها ومصائرها داخل الشروط المذكورة.

خامساً : لقد قلنا إن الصهيونية كانت من نتاج العقلية الانكليزية البيوريتانية لأسباب ذكرناها في حينها. وفيما كانت "القوميات" الأوربية آخذة في تجميع "قطعها المبعثرة"، على أساس من الفعالية الرأسمالية الناشطة، وعلى قاعدة من فلسفة عصر الأنوار المادية، وقيم الامتلاك البراغماتية.. كان اليهود مستمرين في الانعزال الاجتماعي/ الديني داخل غيتواتهم، في سائر المدن والبلدان التي تواجدوا فيها، وكان هذا الانعزال يشكل تحدياً يمكن وصفه بأنه قومي بالنسبة للأوربيين، وينضاف إلى جملة موروثات التحديات العدائية الدينية القروسطية المتبادلة بين الطرفين.

وفيما كانت الصناعة الرأسمالية تتحول من المانيفاكتورة إلى "المصنع الضخم" ذي الإنتاج النمطي الكثيف، والقومي أساساً، كان رأس المال الشايلوكي يتلمس آفاقه الكوسموبوليتانية تلمساً يائساً، فيما هو مساهم رئيسي في بنيانات "الآخرين"! ومن وجهة نظر الشايلوكيين الذين يحملون في داخلهم كل عناصر التناقض السيكولوجي الغيتوي وإحباطاته المزمنة، فإن النزوع القومي الأوربي المتأسس على الشايلوكية ذاتها قد كشف لهم مدى تزعزع أوضاعهم بتعارضه المباشر مع المبدأ الكوسموبوليتاني لحرية الحركة للرأسمالية... وفي الوقت ذاته أخذ يستثير لديهم "نزوعاً قومياً" وجد أسسه المبدئية في أوهام الميراث الديني التوراتي التلمودي، وبالتالي أصبحت الصهيونية كمنظمة قادرة تماماً على الامتلاء!

وبقدر ما كانت الصراعات تحتد وتحتدم بين "القوميات الرأسمالية الأوربية" كي تتكيف جميعاً داخل نظام الفعالية الكوسموبوليتاني لرأس المال، كان اليهود عموماً يحصدون الاضطهادات التي كثيراً ما تحولت إلى مجازر في نطاقات استقرارهم الغيتوي.

وبالطبع، نحن لا نريد إغفال سائر الجوانب الأخرى التي ساهمت في جعل أوربا برمتها تقوم حيال اليهود بمثل تلك التصرفات، سواء منها العناصر الثقافية أو السياسية وكلها مستند على أسس السيكولوجيا الفردية والجمعية، والتي تجد تعبيرها الظاهر في: الفعل ورد الفعل.. لا، لسنا نريد إغفال تلك العناصر، ولكننا نريد هنا أن نركز على العام الأهم وعلى محصلاته.

إن أوربا- وانطلاقاً من الروحية البيوريتانية ذاتها- قد وجدت أن حل مفارقة اضطهاد اليهود، في الوقت الذي تمثل فيه رساميلهم الشايلوكية ركناً من أقوى أركان البنيان الرأسمالي العالمي العام، إنما هو حل يتمثل في إقامة "دولة قومية دينية" لليهود، أو "وطن قومي" لهم حسب تعبيرات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

ولأن العقل السياسي الانكلـــــيزي البيوريتـــــاني، بعد مجازفاته ونجاحاته في الســـــيطرة على الهند وامتلاك طريقها الأقـــرب، قد تعـــزز فيه عـــداؤه وعـــداء أوربا التاريخي للعرب حسبما ذكرنا قبلاً، فـإن الاختيـار قد وقع أخيراً- وبتأثير الميراث التوراتي ذاته- على فلسطين!!

وهذا الاختيـار جسـده تقرير كامبل بنرمـان الشـهير عـام 1907، أي إنه أعطــاه صـيغته السياســية النهائية في ســـلوك (الإمبراطورية الـــتي صـــارت لا تغيب عنها الشمس)!... وبالطبع، ما كان لهذه الصيغة الرسـمية أن تولد فجـأة. لقد جـاءت محصـلة قـرون من نمو النشـاط الرأسـمالي الشـايلوكي، ومحصـلة عصـور من العـداء التاريخي للعرب كما بيّنا.

وهكذا صار التخطيط لتجميع اليهود في (غيتو واحد كبير) هو الحل البيوريتاني الأمثل لإشكالية علاقة أوربا باليهود، بقـــدر ما هو تعبـــير عن الرغبة التاريخية الجامحة لأوربا بإبادة العرب، باعتبـارهم -مع عمقهم الإسـلامي- نمـوذج البشر المطلق: إذ إن محمداً (ص) قد أسقط عصر الرق الأول، ثم وقفت الحضـارة الـتي أنشـئت على أسـاس رسالته سداً في وجه الحـنين الأوربي لإعـادة اسـترقاق العــالم ونهب ثرواته على الطريقة الإغريقيــة/ الرومانية القديمــة، حــتى تم ذلك لأوربا أخـيراً، ولكن في صــورة معصرنة.

واختصـاراً، فـإن العقل الإنكلـيزي البيوريتـاني الـذي أنتج (المنظمة الصهيونية) كجاذب لتمويل طموحاته بـدئياً، قد حولهـا- وفق مقتضـيات تطـور العصر الـذي صـار برمته شايلوكياً- إلى وسيلة لإنتاج "أول دولة أصـولية" في هـذا العصر.. دولة شايلوكية النهج والقيم، وعلى مثال صــورة النمط الحضاري الذي أنتجها كجزء أساسي من بنيانه.

بعد هذه الملاحظات لا بد لنا من بعض التأمل في الخطـوط العامة لمصائر العالم في الفترة الراهنـة، وعقب خمسة قـرون من هذا الذي يسمونه (نهضة أوربا!)، كيما نسـتطيع أن نـرى أو نتلمس شـيئاً من الحقـائق المحيطة بهـذه " الدولة الأصــولية الشايلوكية": عالمياً وعربياً.. ثم نزن "طموحاتها" وفقاً لعلاقاتها بتلك الحقـائق، وانطلاقـاً مما يقدمه لنا مخطط السـيد بـيريس لصناعة(شرق أوسط جديـد) يسـتجيب لتطلعـات رأس المـال اليهــودي في حل مفارقة العلاقة بين حركته الكوســموبوليتانية وحاجته إلى "أرض" ينطلق منهـــا: أرض صـــالحة لحمل الحلم التــوراتي بأمبراطورية عالميــة، تــرث هي أيضــاً ما لا يجب أن تغيب عنه الشمس!!

-3-

لن نفصّـــــل، ونحن نتلمس الســـــمات الإجمالية للوضع العالمي، في تـاريخ إنجـازات الصـناعة الضـخمة المركـزة -أو مرحلة المصـنع الضـخم ذي الإنتـاج النمطي الكـثيف، على حد

تعبير توفلر- ولن نغوص وراء الذي اقتضته هذه المرحلة من نهب واسع للموارد الأولية ولمصادر الطاقة خارج أوربا واستطالاتها الاستيطانية المصنّعة .. مثلما لن نتحدث عن السوق المتسعة والتي صارت الآن تشمل الكوكب كله.. ولن نفصّل في ما استجره ذلك من برمجة لزمن الإنسان بما ينسجم مع شروط ميكانيكية ذلك الانتاج الكثيف، أو برمجة لسيكولوجيته الفردية ولعلاقاته المجتمعية وقيمه التعاملية التي أعادت صياغتها حركة السوق وغايات الربح الشايلوكي.. الخ.

وبالمقابل أيضاً لن نتفاءل بما يبشر به توفلر عن التغيرات التي ستدخلها الثورة التكنوإلكترونية مستقبلاً على ذلك كله. فما يهمنا هنا هو: صورة الوضع العالمي الراهن التي أطلق السيد بوش على خطط أميركا لإعادة صوغ معادلاتها المتغيرة وتوازناتها الهشة إسم: "النظام العالمي الجديد".. مع إسناد تلك الصورة دائماً إلى خلفياتها التاريخية دون أن نذكر من ذلك إلا ما يعيننا على إقرار ما نحن في صدده وحسب.

وكأساس لا بد من البدء منه، فإن علينا أن ننظر في ما حدث خلال العقود الخمسة الماضية، ولكن بطريقة مكثفة ومحسوبة.

لقد تمكنت الولايات المتحدة (ولاحقاً سندعوها "أميريكا" وحسب) من أن تعيد بناء النظام الرأسمالي العالمي المنهار عقب الحرب العالمية الثانية، وأن تقوده وفق مقتضيات جديدة من تطور الفعالية ذاتها -وعلى الطريقة الأميريكية- تحت شعار: (مواجهة الخطر الشيوعي) ممثلاً في الاتحاد السوفييتي السابق ومجموعة الدول التي صارت متحالفة معه وتدور في فلكه. وقد عرفت هذه المرحلة بمرحلة الحرب الباردة. ومن المهم هنا أن نذكر القارئ بأن أهم حدث دولي تُفتَتَح به هذه المرحلة هو بالنسبة لنا "الإنجاز الرسمي" للدولة الأصولية الأولى الشايلوكية: أي الكيان المسمى رسمياً "دولة إسرائيل"!

ولن يفوتنا هنا أن القيادة الأميريكية هي نخبة الأوليغارشية البيوريتانية: عقلاً ومنشأ. فهي إذاً بدورها في ذلك الحدث لم تزد على أن أكملت الخط التاريخي البيوريتاني الأصلي في دفع الصهيونية، التي صارت منظمة للذراع الرأسمالي الشايلوكي، إلى أن تُوجِد "ثكنة" لتمركزها في قلب الوطن العربي، مع دمغ هذه الثكنة باسم "الدولة القومية اليهودية" كبداية حل للمفارقة التي يعاني منها الرأسمال الشايلوكي، حسبما ذكرنا في الفقرة السابقة.

ولكن، لنؤجل الحديث في هذا الأمر مؤقتاً، ولنعد إلى "قصة" الحرب الباردة.

إن الشيوعية إذا كانت قد نبتت -كمنهج معرفي وكفلسفة ونهج ممارسة ضد الرأسمالية- في أواسط القرن الماضي، فهي إنما نبتتْ في "رحم" تلك الرأسمالية: أي في أوربا، وداخل نظامها القيمي المادي، مع الاختلاف الجذري بشأن توزيع الثروة ونظام التملك.. وما إلى ذلك مما لا يخرج في

جوهره عن أسس النظام القيمي المذكور.

وإذا شئنا تلخيص ذلك كله قلنا: إن الشيوعية ولدت من رحم نظرية المركزية الأوربية في الثقافة، ونمت وشبت ونضجت في أحضانها بحيث لم تتمكن من رؤية أي بنىً مجتمعية/ حضارية خارج أوربا إلا على أساس معايرتها بما هو أوربي وقياساً عليه.

وهكذا، فإن النظم السياسية الشيوعية المتأسسة -نظرياً- على المنهج الماركسي، والمعتمدة على تطويراته اللينينية المنبثقة من واقع روسي مخصوص، إنما هي محصلة "ظاهرة فرعية" نقيضة للنظام الحضاري الكلي: نظام الرأسمالية الشايلوكية. وعليه، فإن انهيار الاتحاد السوفييتي وتفككه وتحلل النظام السياسي /الاقتصادي العام له وللدول التي كانت تابعة له، إنما يساوي -في الحقيقة- انتصاراً للنمط الحضاري العام، أي الرأسمالي ثم الإمبريالي، على إحدى النقائض الكبرى المتولدة عن حركته ذاتها في السياق الإجمالي لحركة التاريخ.

وبناء على ذلك فإن التفكير بأي بعدٍ حضاري مختلف في ما يعنيه مصطلح (النظام العالمي الجديد) إنما هو مجرد جهل أو كذب على الذات، لا أكثر ولا أقل.

وفي مرحلة الحرب الباردة مورست- بعمد أو بغير عمد- إحدى أكبر الكذبات المعرفية في التاريخ الحديث. فقد صار العالم ينقسم رسمياً، ومن قبل الجميع، إلى: عالم رأسمالي، وعالم اشتراكي موازٍ، وعالم ثالث أو مجموعة الدول النامية حسب التعبير "رفيع التهذيب!" للإعلام العالمي، وحتى لكبار السياسيين والمفكرين والكتاب.. إلى آخره.

وما دمنا نعرف الآن ما هو "العالم الرأسمالي"، وصار "العالم الاشتراكي الموازي" شيئاً في ذمة التاريخ، فما هو بالفعل ذاك "العالم الثالث" أو الدول النامية، أو ما شئتم من المصطلحات المرادفة؟!

في حقيقة الأمر لم يكن "العالم الثالث" إلا مجموعة الأقطار التي كانت "موضوع" الاستعمار العسكري المباشر قبل الحرب العالمية الثانية، ثم "استقلت" بعدها.. مع تحفظنا الواسع على المدلول الشائع لكلمة "الاستقلال" هنا.

لقد قلنا قبلاً إن "تلغيم" العالم بأسباب الحروب وفقاً لمتطلبات "المجمع الصناعي الحربي العالمي" ذي المكانة والفعالية المتزايدة بتواتر بالغ الاضطراد، كان ولا يزال أحد أهم أساليب الابتزاز الرأسمالي العالمي للأقطار المستقلة بعد الحرب العالمية الثانية.

إن التطور في أساليب وميكانيزمات النشاط الرأسمالي/ الإمبريالي هو الذي قاد -إضافة لما خلفته الحرب من أعباء على أوربا- إلى انسحاب الجيوش المستعمرة من المستعمرات، تاركة وراءها "حكومات" تملك أعلاماً وأناشيد وطنية، وحدوداً غالباً ما تفتقر إلى تطابقها مع الحقائق

الجغرافية والديموغرافية /الاجتماعية: حدوداً يعج ما هو داخلها بالمشكلات المتخلفة عن النهب الإبتزازي المزمن والياته، وكثيراً ما هي حدود وهمية رسمت حول مجموعة من آبار النفط أو حول منجم يورانيوم أو نحاس أو أي مورد منجمي آخر.. فهي بالتالي حدود ملغومة إلى الحد الأقصى باحتمالات الحروب المحلية بين "الجيران"! وهكذا، كان شعار الدفاع عن الأوطان يستجر استهلاك المزيد والمزيد من منتجات المجمعات الصناعية الحربية بقروض تسدد من الموارد المحلية التي تتحكم بأسعارها مصالح الكونسرسيومات النهابة.. وهي في كل الأحوال موارد مستنزفة قبلاً، وأحادية، ومصدّرة في شكلها الأولي الخام.. إلى آخره.

ومن جهة أخرى تم جر "الدول حديثة الاستقلال" وراء فكرة للتنمية بما لا يراعي مواردها وقواها وحاجاتها الحقيقية، وزرعت فكرة "المكننة المتقدمة" كأساس لعملية التنمية. وهكذا جُرَّت هذه الدول الجديدة إلى "سباق صناعي" أقل ما يقال فيه إنه كاذب. وصار عليها أن تستورد (المصنع الضخم) دون توفر الذهنية المتطورة لتشغيله، ناهيك عن توفر حاجاته من الموارد الأولية، أو توفر السوق التي يجب عليه أن ينافس فيها!.. وفوق ذلك كله، فإن ذاك "المصنع الضخم" ما كان يتم تصديره إلا إذا كان منسقاً من الخدمة في بلد المنشأ، وفي أحسن الأحوال لا يُصدّر ما لم يبق مربوطاً ببلد المنشأ أثناء تشغيله، مع تناسينا لإرتباطه الحتمي بمصادر قطع التبديل وما إلى ذلك!

وبالطبع، ما كان لهذه التنمية- المستحيلة، في الحاصل النهائي- أن تبدأ إلا بقروض استثمارية أو خدمية ذات فوائد عالية.. وكانت النتيجة - باعتبار العملية برمتها وسيلة جديدة لمزيد من النهب- أن فشلت هذه التنمية في غالبية بلدان العالم الثالث الذي تجدد استنزاف موارده إلى درجة الخراب الشامل على مستوى البنى التحتية. أما المديونية المترتبة على " العسكرة الدفاعية"، وعلى هذه التنمية المستحيلة، فقد وصلت أرقامها إلى ما يشبه الأرقام الفلكية: نحو من /3500/ مليار دولار في بداية التسعينيات، وتزيد خدمة هذه الديون- ناهيك عن دفع أقساطها- عن مجموعة فوائض الانتاج القومي في عديد من البلدان!.. وبينما يولد كل فرد في العالم الثالث مديناً بنحو من ألف دولار للمؤسسات الرأسمالية العالمية، فإن تقديرات ربح تلك المؤسسات عن كل دولار جرى "توظيفه" في الدول النامية يقارب أربع دولارات أو أكثر. وهكذا وجد هذا "العالم الثالث" نفسه يعوم في المجاعات والخراب غالباً، أو يقف على حافتهما في نماذج قليلة، هذا عدا ما استجره ذلك كله من كوارث حربية وبيئية لا نظير لها في التاريخ. وعليه، فإن العالم قد انقسم فجأة -عقب تحلل الاتحاد السوفييتي وتوابعه- إلى:

-شمال غني مصنع ومتخم.

-وجنوب فقير مدين، أو بالأحرى جنوب يعوم في

لجة الكارثة!

غير أنه -ووفقاً لمسلمتنا القائلة بأن مستحقات التاريخ لا بد أن تدفع عـاجلاً أو آجلاً- يجب أن نلاحظ أن أول ما يـترتب على هذا الوضع هو (انكسار الدورة الرأسمالية) بسبب من عجز هذا (العــالم النــامي المنهــوب/ أو الجنــوب المفقر المــدين) عن الإستجابة لمتطلبات حركة السوق، اللازمة بدورها لسلامة دورة رأس المال الربوية ونجوعهـا... وهـذا ما يفسر لنا -بـدوره- سر الأزمة العاصفة التي تجتاح الحصون الإمبريالية التقليدية، وعلى رأسها (أميريكا القائـدة!)، ويفسر بالتـالي حـدود المعـنى الـذي يتضمنه مصطلح (النظام العـالمي الجديـد) يـوم أطلقه المسـتر بوش وهو على أبواب الحرب الثانية في الخليج.

***

إذاً الجنــوب المــدمّر بالشراسة الموصــوفة أعلاه أصــبح عـاجزاً تمامـاً عن القيـام (بـدوره!) كموضـوع لفعالية الـدورة الربوية للرساميل. ورأس المـال -المـالي منه والصـناعي- نضج الآن شرط إظهـار طابعه الكوسـموبوليتاني، فاتّحـدتْ كثـير من مؤسســاته في كونسرســيومات فــوق قوميــة، بينما لا تــزال المجمّعــات الصــناعية الحربية قومية الطــابع والبنية بصــورة إجماليـة، بل تكـاد تكـون مبالغـاً فيهـا! وهـذا يعـني أن التعـاون الصناعي الحربي بين مختلف الحلفـاء الرأسـماليين تعـاون جـدّ محـدود، وكـذلك جملة الآلة العسـكريتارية الخاصة بكل دولـة، والمكلفة بحماية "مصالحها" القومية في نهاية الأمر!..

وكلما اشـتدت أزمـات الكسـاد والبطالة في دول الشـمال الغني، بسبب الصدع الهائل الـذي يسـببه وضع الجنـوب لـدورة الرساميل، فـإن المجموعـات المجتمعيـة، في كل دولـة، يـزداد انغلاقها القــومي فعليــاً.. بل إنه يأخذ شــكل تعصب يصل في بعضها إلى حد النزوع الفاشي المعلن.

إن السؤال الذي يطـرح نفسه هنا هـو: ما الـذي يخبئه فعلاً إجماليٌّ وضع العـالم، بعد تفكك الاتحـاد السـوفييتي وملحقاتـه، وبعد أن صــار "الجنــوب" إلى ما شخّصــناه فيه في الفقــرة السابقة؟!

ويمكن أن يطرح مضمون هذا السـؤال بصـيغة أخـرى هي: هل يمكن لأية "إعادة ترتيب تجميلية" لصورة الوضع العـالمي -ولو بأعتى آلة حرب كالآلة الأميريكية - أن تصـادر الفواعل غـير المنظورة في سياق حركة التاريخ والتطور التـاريخي، وأن تمنع بالتالي دفع المستحقات المؤجلة لهذه الحركة منعاً نهائياً؟!

دعونا أولاً نتملس بعض تفصيلات صورة العالم في مختلف أجزائه - بما في ذلك الجنــوب المــدمر- كيما نضع أيــدينا على شيء من حسـابات الاحتمـالات المفتوحـة، متـذكرين دائمـاً أن "صــورة اليــوم" إنما هي محصــلة للأمس وما قبلــه.. وأن الغد مرهون بذلك كله، وفي عمق مجريات حركة الحياة البشرية، لا في تصـــريحات السياســـيين ولا في خطط الجـــنرالات أو مشروعات ملوك المال!

أ- إذا كان الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفييتي قد كشف -في الحقيقة- ليس فقط عن تحلل لآلة الدولة هناك وحسب، بل أيضاً عن تحلل بنيوي -كان مخبوءاً ومسكوتاً عنه تحت ستار الإجترار الطويل للشعارات الدوغمائية - شمل سائر البنى التحتية: الاقتصادية/ الاجتماعية/ الثقافية/ المؤسساتية التي عاشت نحواً من ثلاثة أرباع القرن.. فإن قراءة متعمقة لأوضاع مجتمعات الجنوب المنهوب تشير بدورها- وبدليل الظواهر الطافية على سطح الحياة فيه- إلى تحلل بنيوي أيضاً، تحلل له طابع الشمول لسائر ميادين الحياة: الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والقانونية.. ولكن، بتفاوتات تختلف شكلاً وشدة حسب ظروف هذا المجتمع أو ذاك.

ويبدو الأمر، في المحصلة الأخيرة، كما لو أن الكتل الاجتماعية قد تبعثرت إلى "ذراتها" الصغيرة التي أصبحت شاردة، وتبحث في الوقت ذاته عن "قوانين تجميع" جديدة مختلفة جذرياً عن تلك التي اعتمدتها بعد "الاستقلالات"!

وإذا كان نهب هذا الجنوب قد أوصله إلى أن يكون - دون أن يريد- سبب انكسار الدورة الرأسمالية العالمية العامة، فإن الصراع السوفييتي /الإمبريالي خلال ثلاثة أرباع القرن، وبصرف النظر عن تفصيلاته ونتائجه بالنسبة للظاهرة الاشتراكية، قد سبب بدوره إنهاكاً بالغ الشدة للقوى الإمبريالية.

إن ذلك الصراع، الذي يبدو -ولو ظاهرياً- كأنما استغرق حركة التاريخ خلال تلك الأعوام الخمسة والسبعين، يشبه وضع ملاكمين عملاقين على حلبة. وفيما يسقط أحدهما أخيراً بالضربة القاضية أو يهزم بالنقاط، فإن الآخر المنتصر يحتاج إلى النقل الفوري إلى غرف الإنعاش أو العناية المشددة!

وبالطبع سنعود لاحقاً إلى النظر في احتمالات الوضع المستقبلي لروسيا/ أكبر أجزاء الاتحاد السوفييتي السابق.. لكننا الآن سنتابع سياق معالجتنا لما هو قائم من تفصيلات الصورة العالمية التي نحن بصدد مقاربتها أساساً.

ب- وفقاً لمبدأ (التناقس الحر) في العمل الرأسمالي، والذي يتضمن في براغماتيته وشايلوكية قيمه أنّ الأقوى يلتهم الأضعف، فإن "العناية المشددة" أو "الإنعاش" للملاكم العملاق الذي يبدو منتصراً على الحلبة سابقة الذكر، لا يمكن أن يتما - بحساب أوضاع الجنوب المدمر- إلا بالإلتهام المتبادل داخل البنيان الرأسمالي العالمي، وبين أطرافه ذاتها.

وهنا نعود مجدداً إلى مفارقة سبق ذكرها ولا بد من التوقف عندها ثانية، مع إحدى نتائجها الأكثر احتداماً:

-أما المفارقة فهي ما قلناه عن الاختلاف التناقضي الجوهري

بين الطابع الكوسموبوليتاني فوق القومي للكونسرسيومات المالية/ الصناعية الكبرى في العالم، وبين الطابع القومي الحاد لاحتياجات الانعاش سابق الذكر. وفي هذا الإطار يبرز دور "آلات الحرب القومية" وفعالية حجم التفاوت بين ترساناتها، الأمر الذي تشكل ضغوطه عنصراً جوهرياً في تعديل المعادلات السياسية/ الاقتصادية، وإعادة "ضبط" ميزان المصالح حسب ثقل كل آلة حرب على حدة. وسنعود إلى بعض التفصيل في هذا كله بعد قليل.

-إن النتيجة التي تنبني على المفارقة السابقة، وانطلاقاً من مبدأ وقيم الرأسمال وعلاقاته، هي مسألة البورصة. إن البورصة هي (المجال السلمي) الذي تتحارب فيه الرساميل (حرباً ودية!) لا رحمة فيها إذ يسقط من يسقط ويسمن من يسمن في لحظات، نتيجة للأحابيل التي تنصبها الأطراف الرأسمالية كلٌّ منها للآخر! فالمضاربة اليومية بالمال والسندات وأسهم الشركات.. الخ هي في النهاية حرب مستمرة. وهي تزداد ضخامة وشراسة كلما استشرى الكساد وتضاءلت فرص الاستثمار الابتزازي في بقايا الجنوب!

لقد ارتفع حجم الرساميل الملعوب بها في البورصات، أي تلك التي يربح بعضها على حساب بعض دون أن تدخل في حساب المبادلات التجارية العالمية الفعلية، ارتفاعاً مذهلاً بل خيالياً. ففي نهاية الثمانينيات قدر توفلر حجم الرساميل المضارَب بها يومياً بمائتي مليار دولار، أي ما يساوي ألفاً ومائتي مليار دولار في الأسبوع الواحد.. مع احتساب يوم العطلة، ولا بد أنها الآن أكبر من ذلك بكثير.

ومن لديه بعض الإطلاع على علاقات البورصات بالسياسات التجارية وغير التجارية، أي بمجموع المصالح الحيوية لهذه الدولة أو تلك، فإن بإمكانه أن يتخيل مدى الخلل والإنهاك اللذين تعاني منهما التجارات الدولية الرأسمالية.. وبالتالي عمق أزمات الكساد ومعناها.

حـ-قلنا أن أميريكا تصدت لقيادة النظام الرأسمالي العالمي، بعد الحرب العالمية الثانية، وفق "أفق جديد" للعمل، وتحت شعار درء الخطر الشيوعي، وإنها لذلك قد أعادت بناء المؤسسات الرأسمالية في كل من أوربا واليابان مع إبقائهما شبه مستعمرتين لها: ولكن، مستعمرتين من نوع خاص!

وفيما كانت أميريكا تأخذ على عاتقها "تنمية آلة الحرب" الرادعة للشيوعية، واثقة من دور هذه الآلة في استجلاب كل الأنهار إلى بحر المصالح الأميريكية، كان المركزان: الأوربي والياباني، ينموان صناعياً ومالياً نمواً ربما فاق كل التوقعات الأميريكية، بل ربما تجاوز حساباتها القومية أيضاً.

على أن "الشراكة العامة" ظلت قائمة بين الجميع بصورة مرضية عموماً طيلة فترة الحرب الباردة.. أي طيلة وجود

"الخصم الأقوى" الذي يشكل حافزاً فعلياً للحفاظ على تلك الشراكة.

وربما للمرة الأولى في التاريخ الرأسمالي بدا رأس المال العالمي -خلال نصف القرن المنصرم- يعمل مثل جسد أخطبوطي واحد بأذرع وحشية ماصة متعددة.

غير إنه ما إن زال "الخصم المحفّز" حتى أخذ يتكشَّفُ لأبسط المراقبين أن وراء "الوحدة الأخطبوطية" الظاهرية حقائق مختلفة جداً: حقائق تتعلق بالانحيازات للمصالح القومية، مع كثير من التشدد أيضاً! إن الأذرع الأخطبوطية تحاول تكوين أجساد جديدة خاصة بها، مع الإبقاء -راهنياً- على أقنية اتصال كافية مفتوحة بين كل منها من جهة، وبينها وبين "الجسد الأميريكي الأم" من جهة أخرى.

وإذا عدنا فتذكرنا ما سبق قوله عن دور المال اليهودي الشايلوكي في تمويل ونمو العصر الرأسمالي برمته، ونمو الرأسمال اليهودي كركن من أركان البنيان الرأسمالي العالمي العام، فإن علينا أن نعيد استنتاج أن الذراع الأخطبوطية للرأسمال اليهودي /الصهيوني على وجه الدقة/ هي ذراع قوية داخل الكل، وهي قد استفادت بقوة من التوجه الكوسموبوليتاني لفعالية الأخطبوط الإجمالية خلال مرحلة الحرب الباردة.

ولأسباب كثيرة تتعلق بأوضاع أوربا ذاتها خلال النصف الأول من هذا القرن على الخصوص، كان مركز قيادة العمل الرأسمالي الصهيوني قد انتقل إلى أميريكا وأشبك خيوط موجوديته إشباكاً محكماً في نسيج "الجسد الأخطبوطي الأم"- مستفيداً بذلك من سائر الأذرع، ومحتفظاً في الوقت ذاته بكل جاهزيته للاستقلال عند الضرورة!- ما دام الحيز الجغرافي الذي أنشئت فيه (دولته الأصولية التلمودية) لم يصر صالحاً بعد ليكون (الوطن القومي الملائم!) لفعالية رساميل تلك الذراع بصورة شبه مستقلة.

ولنضع هنا في حسابنا أن هذه المسألة هي إحدى أطروحاتنا الأشد أهمية في النقاش الذي سنديره مع أحلام ومخططات السيد بيريس حول (شرقِهِ الأوسط الجديد) حسبما يتخيله ويرغبه!

د- ولكن لننظر الآن في الأوضاع الخاصة لكل من المراكز الرأسمالية الكبرى الثلاثة: أميريكا وأوربا واليابان مع التفاتة خاصة إلى كل من روسيا والصين، كي نرى شيئاً من الآفاق الحقيقية التي تتحرك عليها (رؤى!) الصقر الصهيوني القديم بيريس بعد أن أخفى مخالبه جيداً، وأخذ "يحاول الهديل!" راخياً جناحيه قليلاً كي يبدو شبيهاً بحمامة!

أولاً: أميريكا

ما لا جدال عليه هو أن الولايات المتحدة أقوى وأكبر استطالة استيطانية أوربية في سائر أنحاء هذا الكوكب.

ويكشف تاريخ استيطانها عن أساسها الثقافي/ الاجتماعي المتهافت. فقد تشكل مستوطنوها الأوائل من المنفيين المحكومين في بلدانهم، ومن المغامرين المرتزقة الباحثين عن الثروة بالنار والبارود.. وما إن استقر هؤلاء بعد مذابح إبادات الهنود الحمر حتى نشطت فيها، وإليها، عمليات النخاسة الواسعة التي قامت على استرقاق الأفارقة المخطوفين بكثرة من قارتهم، واستخدامهم في عمليات الإنتاج الزراعي وملحقاته كعبيد محرومين من كل حقوق.. وبقية القصة معروفة!

على أن "الصفوة البيوريتانية الأنغليكانية " التي جعلت من ثلاثة عشرة ولاية أميريكية "مستعمرة انكليزية" في البدء، عادت فقادت حرب استقلال ضد انكلترا.. وبعد النجاح في ذلك -أو خلاله- تم ضمّ الولايات الناطقة باللغة الأسبانية في الجنوب الغربي، ثم نشبت الحرب بين الشمال المصنع والجنوب الزراعي "لتحرير" القوى العاملة من العبيد وإلحاقهم "بالإسترقاق الصناعي" الجديد ومتطلباته.. وبقية هذه القصة معروفة أيضاً!

وقد وفدت إلى هذه الـ "أميريكا" بعد الاستقلال، ثم بعد حرب الشمال والجنوب "موجات هجرة" من سائر قوميات الدنيا من الباحثين عن لقمة العيش، أو الطامعين في الثراء.. وما إلى ذلك. ومن هذا الخليط المتنافر كله يتشكل ما يسمى "المجتمع الأميريكي" الآن.

وبصرف النظر عما هو معروف من حتمية احتفاظ كل جالية بأصول ثقافتها وقيمها التي لقنتها في وطنها الأم، وعلى مدى قد يطول كثيراً قبل أن تندمج كلياً في الوسط الجديد الذي تعيش فيه... فإن قيم النخبة السائدة تتعمم، وتحدِّدُ -ولو ظاهرياً- حدود العلاقات العامة المتبادلة بين مجموعة الجاليات المختلفة والتي تشكل هذا الخليط الاجتماعي.

وعليه، فإن قيم "الكاوبوي" الباحث عن الثروة عبر فوهة مسدسه هي في الواقع سمة النظام العلائقي المعياري الذي يحكم ويوجه التعامل الأميريكي: داخلياً وخارجياً. وتتضمن تلك القيم نزعة العرقية والعنصرية لدى غالبية الأوربيين "البيض" تجاه من عداهم.. وفي مجموعة هذه الأطر، وعلى أسسها، يتم تشكل "ثقافة" أميريكا، في الوقت ذاته الذي تتشكل فيه سيكولوجيا الأفراد، وتتهجن سيكولوجيات المجموعات الوافدة من أصول غير أوربية! ومن هذا كله نشأت "ذرائعية" وليم جيمس وتابعيه باعتبارها فلسفة متكاملة لهذا الخليط المقود بأوليغارشية بيوريتانية، حسبما أشرنا قبلاً.. ومنه أيضاً نجحت التكونات المافيوية التي تعممت بسرعة مدهشة وأدخلت كتنظيم خفي في ممالك المال والأعمال، مثلما في البنية الإدارية للدولة على تنوع ترتيباتها.. وإلى درجة ملفتة للنظر إن لم نقل: مثيرة!

وانطلاقاً من إجماليّ هذا الوضع الاجتماعي الخاص، وتكوينه شبه الشاذ، كان امتلاك التفوق في تكنولوجيا القوة -

ممثلة في أعتى آلة حربية في التاريخ حتى الآن- يشكل هدفاً أعلى للأوليغارشية الأنغليكانية الكاوبوية القائدة. ولقد تم لأميريكا هذا، وتعزز بقوة، بعد عملية واسعة "لسرقة" العقول والتقنيات الأوربية خلال الحرب العالمية الثانية وقبيلها وبعدها.. وهي تقنيات دفعت أوربا أثمانها باهظة خلال قرون من نموها الرأسمالي، الأمر الذي سنرى أنها لن تقدر على "غفرانه" لأميريكا إطلاقاً.

ولكن، ما هي الصورة التي آلت إليها الأوضاع العامة في (أميريكا) هذه.. وبعد حساب مستجرات الصراع ضد "الخطر الشيوعي" في مرحلة الحرب الباردة السابقة؟!

إذا كانت الذرائعية هي أساس نظام القيم في ثقافة هذه (الأميريكا) التي لا تاريخ لها سوى تاريخ الإبادات والاسترقاق، ثم تنمية الثروة على أساس من التطور المتفوق تكنولوجياً وبدعم من آلة الحرب العملاقة. فإن النزعة المافيوية قد تمكنت- فوق ما ذكرناه عنها قبلاً- من الترسُّخ كأحد أبرز الاتجاهات لحماية "الذات" من الآخرين على مستوى علاقات البنى التحتية، حيث لا يُفهم "الآخر" هنا إلا بما هو خصم منافس على تصيُّدِ كل ما يمكن امتلاكه. وهذا الأمر جعل مختلف الجاليات المنضمّة لاحقاً للخليط الاجتماعي تنكفئ داخل تركيبه الهش في ما يشبه (الغيتوات) الثقافية الخاصة بكل مجموعة قومية غير أوربية.. وما نعلمه من القراءات هو أن كل مدينة أميريكية تحتوي على أحياء شبه مغلقة -بالمعنى الثقافي والسلوكي- لعديد من تلك الجاليات. أما ما يربط الجميع، بعضهم بالآخر، فهو "المصلحة" أو المنافع التي يلخصها الدولار باعتباره رمزاً لها، ووسيلة لتبادلها تجارياً في نهاية المطاف.. أي إن الدولار هو باختصار "قيمة القيم" التي تتركز حولها عمليات الوجود الاجتماعي تركزاً كلياً.

وفي فترة الحرب الباردة ظلت هذه المنافع محمية بقوة في ظلال هيبة "الدولة القائدة"، والتفوق التكنولوجي وآلة الحرب الهائلة. لكن صدوعاً عميقة أخذت تبرز في ذلك كله مؤخراً، رغم أن نبرة الإعلام العالمي حول سطوة أميريكا لم تتغير. لا بل إنها في الفورة التي تسبق اندلاق ما في القِدْر!

ومن الخطأ الاعتقاد بأن ولايات أميريكا الخمسين تجري كلها في مستوى واحد، أو حتى متقارب، من التقدم التكنولوجي، وبالتالي: من الفعالية التجارية، المالية منها والبضاعية. ففيما تتميز كاليفورنيا مثلاً بالتصنيع التكنوإلكتروني العالمي، نجد ولايات أخرى لا تزال تعتمد على الزراعة.. وبينما تحتصّ الشرق الأميريكي بنشاط المال والأعمال تعتمد ولايات أخرى في الغرب على السياحة والقمار وتجارة الجنس... إلى آخره. وبالطبع هذا مجرد تقسيم تبسيطي لإيضاح ظاهرة التنوع المتفارق في عملية النمو الحقيقية.

وفي سياق مختلف عن السياق الأميريكي، المحكوم بثقافة بالغة الفقر وبقيم براغماتية فاضحة، قد يبدو هذا التنوع تعبيراً

عن غنى التركيب بتماسكه المحكم.. لكن الأمر هنا بعكس ذلك تماماً. وهذا ما سيظهر بوضوح في مايلي من تتمات إجابتنا على التساؤل السابق.

إن التاريخ الأميركي الذي لا يمتد لأكثر من ثلاثة قرون تقريباً يحتفظ لأميركا الآن بمستحقاته المؤجلة والتي صارت بعض ظواهر استحقاقات دفعها تطفو بوضوح على سطح الحياة العامة هناك.

وآلة الدولة- اتحادية كانت أو دولة ولاية- لا تستطيع أن تغير الشيء الكثير في مسارات إلحاح حركة التاريخ على الدفع المعجل لأسباب أهمها: كون مفاصلها القيادية نخبوية أنغليكانية إجمالاً. أي إنها مترفعة، بشوفينية مبطنة، على النسيج التحتي الذي تقوده من جهة.. وهي- فوق ذلك - مافيوية الأساليب/ براغماتية التوجه السلوكي من جهة أخرى.. ثم إنها تعوم على نسيج اجتماعي متفكك الثقافة بإستثناء ثقافة الامتلاك والاستهلاك المتمحورة على الدولار وحركته من جهة ثالثة. وباختصار فإن الآلة الدولتية بكل مؤسساتها غير محمولة في النهاية على وجود مجتمعي صلب وراسخ، بل هي محمولة على خليط عارض من التجمعات، أبرز ما في سيكولوجيتها هو تلك العدوانية العصابية- وذات السمة الانتحارية إن جاز التعبير- والتي إن لم تجد تصريف "مخزونها المتوارث" في الخارج صبته حتماً في الداخل! وما ارتفاع وتائر الجريمة، واستهلاك المخدرات، ونسب امتلاك السلاح الفردي ونوعيته، وانحلال العلاقات الأسرية، والانحلال الجنسي الفظ حيث يصير الجنس بمختلف أشكاله -السوية أو الشاذة- مجرد سلعة في السوق.. نقول: ليس ذلك كله، مع مجموعة المستجرات المترتبة عليه، إلا مؤشرات على "سواد الصورة" لما في عمق الحياة الأميركية التي تقدم إعلامياً على أنها صورة لممارسة "الحرية!" بالغة الإشراق!!

وفي الواقع، فإن شيئاً لم يمت من رواسب التاريخ الوحشي "لإنجاز هذه الأميركا": بدءاً من مشكلات إبادة الهنود الحمر، مروراً بالحرب مع المكسيك وضم الولايات الناطقة بالأسبانية.. وانتهاءً بقضية الزنوج والممارسات العنصرية ضدهم، ثم حرب الشمال والجنوب ومخلفاتها.. ناهيك عن السلوك الأميركي ومستجراته في سائر أنحاء العالم! إن التاريخ لا يسقط شيئاً من "فواتيره". ولدينا شاهد قريب يمكن الاستئناس به كدليل على صحة ما نذهب إليه: حوادث لوس أنجلوس قبل نحو من عام ونيف!

ونحن لا نحاول الرجم بالغيب، ولا إسقاط رغباتنا على التاريخ. ففي كتابه: (الموجة الثالثة) يرجح توفلر -الباحث الأميركي المستقبلي المرموق لا سواه!- أن أميركا جاهزة للتفكك إلى خمس دول على الأقل، قد تكون أهمها دولة (كاليفورنيا، نيومكسيكو) ذات التصنيع التكنوإلكتروني بالغ

التطـــور[*] ... وتقابل هـــذه الدولة في الأهمية دولة المـــال والأعمال في الشرق والشمال الشرقي.. إلى آخره.

وبالمناسبة فإن توفلر كان قد أصدر كتابه هذا عام 1980 وتنبأ فيه بتفكيك الاتحاد السوفييتي، وبما يقارب دقة النبوءة المذهلة. فكيف إذاً وهو يتكلم من "داخل البيت"؟!.. بل يتكلم كأميريكي حريص أولاً وأخيراً؟!

إن خلاصة ما نريد قوله هو: إن "قراءة" واقع المكونات التحتية للمجتمع الأميريكي، وملاحظة ظواهر تعبيرها الطافية على السطح، تشير إلى تحلل عام في النسيج البنيوي الاجتماعي. لكن ما لا يزال يضبط هذا التحلل ويمنعه من الانفلاش حتى الآن، هو بقايا الثروة المتراكمة المنهوبة، وما يعلق على السباق التكنوالكتروني من آمال بتقديم الحلول للأزمات المعلنة وغير المعلنة، وما تفرضه وتفترضه الآلة العسكريتارية المرعبة من حماية للمصالح والمنافع التي يتمحور حولها الوجود الأميريكي.. والتي "يجب!!" أن يقدم العالم - والشركاء الرأسماليون فيه خصوصاً- حلاً لمشكلاتها التي سنجازف بالقول إنها تصير معضلات مستعصية يوماً وراء يوم، وبسرعة غير عادية!

ودفعاً للشبهة حول مصداقية هذا التشخيص والتوصيف، إليكم بعض الأرقام ذات الدلائل الواضحة، وكلها مأخوذة من مصادر موثقة:

في عقد الثمانينيات انخفضت وتائر النمو الإقتصادي الأميريكي بحدة إلى ما بين 2و3% لكن هذه الوتائر أخذت في السنوات الثلاث الأخيرة تراوح حول 0.5% وفي العام 1993 اعتبر تجاوز هذا الـ 0.5% نحو "الواحد" لعدة أشهر نوعاً من الفأل الكبير بتحسن سريع، لكن الآمال التي عقدت على ذلك ما لبثت أن تراجعت وخبت .أما الكساد فقد بلغ حداً مُهيناً ومثبطاً، فيما بلغت نسبة البطالة المعلنة رسمياً نحو 9% وهذا الرقم مخيف بالنسبة لبلد كأميريكا يريد أن يعمم نمط حياته ونظامه الليبرالي على العالم، ومن موقع التفرد بقيادته له!

ومما يجب ذكره هنا أيضاً هو انهيار وذوبان واختفاء شركات كانت عملاقة في مجالات عدة: الصناعة- النقل- السينما- البيوتات المالية، خلال العام 1993، مع ملاحظة أن أوربا شهدت مثل ذلك أيضاً. وفي مجال أوضاع الإدارة العليا للدولة الاتحادية نجد أن حجم عجوزاتها ومديونيتها يصل هذا العام 1994 رقماً فلكياً مدوخاً: أربعة آلاف وخمسمائة مليار دولار، ليس غير.. هذا عدا عجوزات ومديونية ميزانيات الولايات، كل على حدة! وهذا الوضع قد أدى داخلياً إلى استنزاف ما في صناديق الضمان الصحي، والاجتماعي، والتقاعدي، وصناديق التأمين، والإدخار.. وأشباهها من صناديق الخدمات الرسمية

---

[*] (*) ويرجح أيضاً أن تنضم المكسيك الغنية بمصادر الطاقة والموحدة لغوياً- وثقافياً- مع الولايتين المذكورتين إلى الدولة المنفصلة التي يتنبأ بإنفصالها بحدود بداية القرن القادم.

الاجتماعية، الأمر الذي يخفي -على حد تعبير توفلر ذاته- مأساة حقيقية داخلية.(*).

وقد يقال إن أميريكا تستطيع الآن خفض نفقات التسلح بعد تحلل الاتحاد السوفييتي ومنظومته الاشتراكية، وبعد ابتعاد شبح الحرب الباردة، خفضاً ضخماً يساعد على تجاوز ذلك الوضع بسرعة. لكن الواقع هو أن أميريكا قد زادت من النفقات العسكرية في ميزانيتها لعام 1994 بنحو /300/ مليار دولار على ذمة إحدى المجلات الجادة، فلماذا؟! وما السر وراء ذلك؟!

إننا إذا وضعنا جانباً ما هو معروف من الغزو الاقتصادي الياباني الكاسح للأسواق الأميريكية الداخلية ذاتها، وصرفنا النظر مؤقتاً عن وتائر النمو الاقتصادي العالية في آسيا الشرقية -أو بعضها - خصوصاً في الصين التي وصلت وتائر نموها إلى 13-14% سنوياً، وهو أمر يثير قلقاً أميريكياً حاداً.. إذا فعلنا ذلك، وتذكرنا فقط سعي أوربا الحثيث إلى الوحدة الاقتصادية، وربما العسكرية قريباً، مع ما يشكله ذلك من تحدّ للقيادة الأميريكية للعالم، ثم أضفنا إلى هذا كله دمار "الجنوب" ومديونياته غير القابلة للتسديد، وأخذنا بالحسبان ما كنا ذكرناه مراراً من المفارقة بين الطابع الكوسموبوليتاني للشركات عابرة القومية- وهي نمط الفعالية الرأسمالية الذي أنجز في مرحلة هيمنة أميريكا خلال الحرب الباردة -وبين ما هو قومي في حسابات جملة القوى الرأسمالية وحركتها باتجاه مصالحها الخاصة، ثم أسند ذلك كله إلى مبدئية أسلوب (التنافس الحر) وما ينطوي عليه من مستجرات صراع مستميت. إننا إذا ما فعلنا ذلك كله فسنرى بوضوح، وكاستنتاج أولي، أن "أميريكا في خطر": خطر أوربي من جهة، وخطر ياباني /صيني/ آسيوي شرقي من جهة أخرى.

وعليه، فإن (الضامن الأخير) للهيمنة الأميريكية- أعني آلة الحرب- يجب أن تعزز بمزيد من القوة كيما يُرمى بثقل "ظلها" على المفاوضات التجارية!

إن المفاوضات بشأن اتفاقية (الغات) أخذت شكل "حرب مصالح" أثناء المباحثات بشأنها مع أوربا. وفي الوقت ذاته الذي نسمع فيه عن "حوارات التعاون" بين "دول عبر المحيط الهادي"/ أي أميريكا ومختلف الدول المهمة شرقي آسيا بما فيها الصين/ تكرر أميريكا تهديداتها المستمرة بإعلان الحرب التجارية على اليابان! ولأن أميريكا تعرف جيداً أن الحوارات حول برمجة عمليات التجارة العالمية لصالحها، ومن موقع

(*) مؤخراً نشر في إحدى المجلات العربية تقرير صحفي من واشنطن مؤداه أن الخزينة الاتحادية تتغذى من (مطبعة النقود). فبما أن الدولار هو الذي يكفل العملات العالمية الأخرى بموجب المعاهدة المعقودة بعد الحرب العالمية الثانية بخصوص النظام النقدي الدولي، فإن الخزينة الاتحادية تطبع كتلاً نقدية ضخمة من (الدولار)، وترمي بها في السوق حسب احتياجاتها وأوضاعها، الأمر الذي يجعل نسب النمو المعلنة نسباً وهمية ويجعل الدولار عملة غير موثوق بها في حال إسقاط قانونية مرجعيته في المعاهدة المذكورة.. إلى آخر ما يترتب على ذلك من نتائج!.

الضعف الاقتصادي، هي حوارات غير كبيرة الجدوى، فإن اللجوء إلى "ظلال" الآلة العسكريتارية هو أمر ضروري!... وهنا يكمن السر في زيادة النفقات التي تحدثنا عنها، على هذه الآلة، قبل قليل!!

لكن مشكلة الآلة العسكريتارية هي مشكلة مبهظة بدورها: داخلياً وخارجياً، خصوصاً وأن الادعاء المعلن بافتقاد "كل خصم!" بعد انهيار الاتحاد السوفييتي يجعل الأميريكي العادي- دافع الضرائب- غير مقتنع بضرورتها بعد.

لكننا رأينا أسباب تعزيز قوة هذه الآلة، وهي فعلاً أسباب وجيهة.

غير أن هذه الآلة يجب أن تظل متحركة لأسباب كثيرة: منها حاجتها الذاتية للحركة بحكم طبيعتها الخاصة وإلا صدئت وتآكلت تلقائياً.. ومنها "تجريب" وتسويق المنتجات الجديدة لمجمّعها الصناعي الحربي الذي سبق القول إنه - بحكم الضرورة- يصير أحد أهم المؤسسات الرأسمالية القومية.. لكن كل حركة كبيرة للآلة العسكريتارية تكلف عبئاً جديداً ينضاف إلى عجز الميزانية الاتحادية، ويفاقم- بالتالي- من حدة الأزمات الداخلية مفاقمة مثيرة! إنها حلقة مفرغة تأخذ طابع المفارقة الغريبة، فعلاً!!

وفي إطار كل ما تقدم عن أوضاع أميريكا يجب- حسب تقديرنا- فهم ما وراء مصطلح (النظام العالمي الجديد) من معان ومقتضيات أرادها المستر بوش حين أطلقه.

إن أميريكا تريد جر العالم الرأسمالي: عبر الغات، وعبر الحوار مع آسيا الشرقية، وعبر تهديد اليابان، وعبر إثارة التفجرات في (العالم الثالث) المنهار ثم "تبريدها" أميريكياً وباستخدام قناع الأمم المتحدة.. تريد جر ذلك العالم إلى المساهمة- وعلى حسابه- في خلق الظروف الملائمة لتعديل آليات الربح، وحركة الرساميل، بما يوافق تفكيك الأزمة البنيوية الأميركية، وبما يعدل ميزان مدفوعاتها ويضبط وتائرالنمو الرأسمالي بشكل يحقق لها وتيرة نمو أولى ومستقرة!

لكن يبدو أنه لا أوربا ولا اليابان وآسيا الشرقية راغبة في ذلك فعلاً. وبالمقابل، فإن الآلة الحربية الأميريكية لا تريد بتاتاً أن تتوقف ثم تتآكل من داخلها بينما يقف دهاقينها متفرجين. وهنا يجدر التذكير بأن السمات الجوهرية لقيم هذه الآلة ولوظائفها هي سمات مختلفة جذرياً عن مثيلتها التي للآلة العسكرية السوفيتيية إبان انحلال الاتحاد السوفييتي وقبله، ولذلك لامجال للتفكير بتشابه الموقفين أو تماثلهما في حال وصول الأزمة الأميريكية إلى طور التحلل العام!

ولنأخذ بعض الوقائع الدالة على وظيفة الآلة العسكريتارية الأميريكية ومجمعها الصناعي الحربي:

في حرب الخليج الثانية جربت أميريكا أعداداً هامة من (المنجزات التدميرية!) لذلك المجمّع على الشعب العراقي،

دون المساس بنظامه بتاتاً.

وعلى ذمة إريك لوران الذي ألف كتاباً بجزئين عن هذه الحرب التي سميت اصطلاحاً (عاصفة الصحراء) أن الراغبين في شراء الأسلحة الجديدة تزاحموا- بصورة طيبة!- ولوقت ما، على أبواب شركات السلاح الأميركية. لكن ذلك كما يبدو لم يقدّم خدمة ذات شأن للاقتصاد الأميركي الراكد!.. فلنتجاوز هذا إلى ما هو أهم من جوانب تلك الحرب.

إن (الترسانة العراقية) بلغت تقديرات كلفتها نحواً من مائة وخمسين مليار دولار، عدا النفقات الجانبيّة. وقد باعتها مائتان من الشركات الرأسمالية المعيّنة.. ثم دمرت هذه الترسانة (في أرضها- كما يقال)، وهذا بالطبع مكسب امبريالي كبير من الناحية المالية ينضاف إلى المكاسب المتحققة من بيع(ستوكات) الأسلحة التقليدية في حرب الخليج الأولى بين إيران والعراق.. وبتمويل خليجي/ سعودي جزئي للعراق خلال أعوام تلك الحرب الثمانية!

وثمة سؤال يطرح نفسه تلقائياً هنا، هو:

- هل كانت أميريكا معنية فعلاً(بتحرير الكويت) إستجابة لقيم (النظام العالمي الجديد)، أم إن لها أهدافاً أخرى أهم بكثير؟!.

مع افتراضنا أن أميريكا كانت معنية وراغبة فعلاً بذلك (التحرير) قدر رغبتها بتدمير ترسانة العراق وبناه الاجتماعية/ الإقتصادية التحتية، فإننا نعتقد أن لدى أميريكا أسباباً أشد أهمية، من وراء (عاصفة الصحراء) تلك.

يذكر بيريس في كتابه، موضوع بحثنا هنا، أن كلفة تلك الحرب قد بلغت نحو 676 مليار دولار، وهذا التقدير أميريكي بالطبع. وإذا كنا لا نعرف كلفتها الفعلية ولا ما وجب على السعودية والكويت وبقية دول الخليج دفعه من تلك الكلفة التقديرية، فإننا نعرف مثلاً أن السعودية التي كانت تملك فائضاً نقدياً جيداً قد أصبحت مدينة- عقب الحرب- بمايقارب/ 70/ مليار دولار، أما الكويت فإنها ربما دفعت أضعافاً مضاعفة عما دفعته السعودية، ويوم كتابة هذه السطور كانت إحدى الجرائد العربية الواسعة الانتشار تكتب في أحد (مانشيتاتها) الرئيسية: الكويت لاتزال تسدد(الإتاوة) لأميركا [*]

وينضاف إلى هذا كله ما دفعه بقية الخليجيّين جميعاً أيضاً!.. وحتى اليابان وألمانيا أجبرتا على دفع نحو من اثنين وعشرين مليار دولار، وسط اشمئزازهما الشديد من أساليب

---

[*] (*) لم تعد ترديات الأوضاع المالية/ الاقتصادية في كل من الكويت والسعودية بعد تلك الحرب، سراً على أحد. وهذا مايجعل استنزاف الموارد النفطية كبيراً في البلدين، الأمر الذي يؤدي إلى خفض أسعار البترول الخام عالمياً ويحدث البلبلة في علاقات دول الأوبك، ويؤخر رفع الحصار عن العراق كي لايصدر حصته النفطية المقررة له.. ويعيق المصالحة العربية التي صارت ضرورية في نهاية الأمر!

الابتزاز الأميريكية، وإعلانهما أن تقديرات كلفة الحرب الحقيقية هي أقل بكثير جداً مما أعلنته أميريكا!! والخلاصة أنه يمكن تقدير الربح الأميريكي الصافي من الجباية عن (عاصفة الصحراء) بنحو أربعمائة إلى خمسمائة مليار دولار، استناداً إلى مختلف التخمينات التي نعترف بأنها غير موثقة .. ناهيك عن الاستجابة لضرورة الحركة بالنسبة للآلة العسكريتارية، ولتجريب منتجات مجمّعها الصناعي هناك، ولما في العملية برمتها من إظهار إعلامي براق لهيبة الولايات المتحدة (القائدة)، إضافة إلى كثير من الأمور التي لامكان للخوض فيها هنا!

على أن ما هو أشد أهمية من ذلك كله هو تحقيق التواجد العسكري المباشر لأميريكا في منطقة (مصدر الطاقة) الأكبر في العالم، وما وراء هذا التواجد من تقديرات واعتبارات استراتيجية آنية ومستقبلية، تخص (الحلفاء!) أصلاً، وتتخذ صيغة إنذار عملي وعملياتي بالكيفية التي سوف تعالج بها (الدولة القائدة!) أي تغير أو تغيير دولي تعتبره (ضاراً بمصالحها)، خصوصاً في تلك المناطق التي تعتبرها حساسة جداً بالنسبة لتلك المصالح!

وحين نفكر بمقارنة (عاصفة الصحراء) مع الحملة الأميريكية في الصومال ونتائجها - علماً بأن إريك لوران يؤكد في الجزء الأول من كتابه المذكور قبلاً على أن خريطة الخطط الاستراتيجية الأميريكية، إبان الحرب الباردة، تضع القرن الإفريقي مقروناً بالشرق الأسيوي في رأس قائمة المواقع ذات الأهمية العليا- فإنه ستتكشف لنا بعض الحقائق المهمة منها:

- إن لأميركيا طريقة مختلفة في معالجة (الاضطرابات العالمية) بين منطقة وأخرى فيما بعد الحرب الباردة, فإذا كان جيرإن الكويت والكويت مثلاً قادرين على دفع إتاوات التدخل دفعاً مريحاً فالتدخل واجب، أما الشعب الصومالي ومن حوله فما الذي ترك لهم ليدفعوه؟!. وبالتالي، لماذا استمرار (عراضة) التدخل تحت شعارات أخلاقية مخالفة للبراغماتية الراسخة، مادامت هذه (العراضة) مكلفة دون مردود؟!.

-إن المشرق العربي الذي هو قلب العالم فعلاً من وجهة النظر الاستراتيجية العسكرية، وبوابة للتبادل والتفاعل العالميين بين سائر أرجاء العالم القديم الذي يضم أكثر من خمسة أسداس من سكان الكرة الأرضية، هو أيضاً مركز الإمداد الأول للحضارة الراهنة بالطاقة- وبما لا نعرفه أيضاً مما هو مخبوء من الخامات الهامة- [*] ولذلك فإن الهيمنة عليه لايزال شرطاً أساسياً للهيمنة الفعلية على العالم.

---

[*] (*) في صيف عام 1991 نشرت بعض الصحف الجزائرية مايشبه (التقرير العلمي) عن الخامات النادرة وغير النادرة، التي كشفت الأقمار الصناعية الأميريكية وجودها- بكمّ وتنوع مذهلين- تحت صحارى وبوادي شبه الجزير العربية ثم طوي الموضوع بقوة، وعاد (الخبر) إلى دائرة الظلمة الكثيفة والصمت المطبق.

وهذا هو مايفسر- بالنسبة لنا- تنوع المبادرات الأميريكية في المنطقة ولهفتها السريعة بصورة غير عادية.. مع العلم بأننا نضع تصورنا عن أوضاعها المأزومة، واحتمالات صراعاتها المتفجرة قريباً مع حلفائها السابقين، في أساس ذلك التفسير(**)!

ولكن يبقى أمامنا هنا أن ننظر في مسألة حدود التوافق وكيفياته بين التطلعات الأميريكية ونظيرتها الصهيونية للهيمنة على المنطقة، وما إذا كانت (الدولة الأصولية التلمودية) ستشتغل-في هذا الإطار- كثكنة لأميريكا القائدة أم لا!!

إننا، إذا عدنا من جديد للتركيز على المعادلات الدولية التي يعاد تشكيلها راهنياً في إطار الافتراق والتقاطع المتناقض بين المتطلبات القومية لحركة القوى الرأسمالية وبين الطابع الكوسمو بوليتاني لجوهر الدورة الرأسمالية العالمية الكلية، نجد أنفسنا معنيين- بل ملزمين- بالبحث عن حدود العلاقة القائمة والمحتملة بين الذراع الرأسمالية الأخطبوطية الصهيونية، وبين الذراع الأميريكية التي لايزال (مركزها) يُشكل(جسداً جامعاً) وقائداً للكل الأخطبوطي، وإن يكن الآن مهدداً بالنخر الذاتي وبالتمزق نتيجة لافتراق المصالح بينه وبين مكوناته.. وفي ما يخص شرقنا، الذي صار(أوسطاً)، على وجه الحصر!

ولنعد طرح الأمر في صيغة التساؤل:

- في الحدود المقدرة لقوة الذراع الصهيوني داخل البنيان الأخطبوطي الكلي، وفي شروط ترغم فيها الأذرع على أن يلتف كل منها على الجسد بغية استنزافه لصالحه بتصارع متبادل، إلى أي مدى يحتاج الوضع الأميريكي لإسناد هذا الذراع الصهيوني!؟.

-وبعبارة أخرى: كيف تجري آلية تبادل المنافع بين الطرفين، مع ملاحظة أن الجزة الأكبر من الكمّ البشري اليهودي - القليل جداً في العالم- والكم الأكبر من الرأسمال الشايلوكي، متمركزان في أميريكا!؟.

إن النمو في الرساميل الشايلوكية- ولأسباب كثير: تاريخية، وعقائدية، وسيكولوجية- تطلّب قبلاً إنشاء (نقطة استناد قومية!) وصار يتطلب الآن تعزيزاً وتوسيعاً لنقطة الاستناد هذه، حيث بات لايرى(ضمان مستقبله!) وبقائه إلا ببناء إمبراطوريته الموازية لإمبراطوريات نظائره، أمام أوضاع عالمية صارت بالغة الاضطراب، ومليئة بالاحتمالات العاصفة. وبالطبع إن مجال (التوسع الإمبراطوري) لنقطة الاستناد الصهيونية هو (الشرق الأوسط الجديد) حسبما (رآه!) السيد بيريس يلوح أمامه كما لو أنه حقيقة.. مع ملاحظة أن هذا

(**) لاندري هل احتمال الصراع المفتوح الآن/ شباط 1995/ بين السعودية واليمن هو السيناريو الأميريكي الذي سيوفر البديل النافع عن عراضة الصومال؟!.

(الشرق الأوسط!) لايمكن لأميركا- كما هي الآن على الأقل!- أن تتخلى عن الهيمنة المتفردة المطلقة عليه!!

تـرى هل سـتأتي لحظة البـدء الصـهيونية بسـحب الإسـناد الرأسـمالي لأميركا متواقتـاً مع العمل الـزاخم على تفجـير أزماتها الداخلية وبنيانها الاجتمـاعي الهش، وبالتـالي تفكيكهـا، على طريقة تفكيك الاتحاد السوفييتي. أو ما يشبه ذلك؟!

ليست الإجابة سـهلة- مع العلم بـأن هـذه التسـاؤل ذاته سيبدو مضحكاً لكثيرين من السذج- وهي ليست ممكنة بصـورة مقبولة مالم نلمَّ بعموميات ما يجـري في المركـيزين الكبـيرين الآخـرين: أوربـا، وآسـيا الشـرقية.. وبالتـالي: مـالم نستقرئ خطـوط نزاعاتهمـا، الداخلية منها والمتبادلـة، وخطـوط نزاعهما مع المركز الأمـيريكي القائـد، دون أن ننسى حسـاب العلاقـات التاريخية الخاصة لكل منها باليهود عموماً.

وبـالطبع، ستنضـاف إلى ذلك ملامح الانهيـارات الإجمالية للوضع العـربي وعمقه الإسـلامي.. لكن الإجابة - بعد كل هـذا- لن تكون مفـردة في سـطور أو صـفحات مخصصة لها بصـورة مستقلة في هذا الكتاب، وإنما سـيجدها القـارئ مبثوثة في ثنايا البحث كله.. خصوصاً بعد ابتـداء مناقشـتنا التفصـيلية (لـرؤى!) وأفكـار السـيد بـيريس، أو بـالأحرى لمخططة الـذي نخمن انه كتب بإشراف صهيوني أعلى .

ثانياً: أوربا

من المعروف أن أوربا المتصـارعة داخليـاً طيلة تاريخها قد أنجـزت مـؤخراً- وبشـيء من العسر البـالغ- نوعـاً من الوحـدة الاقتصـادية الأولية في إطـار طموحاتها لبنـاء (الـبيت الأوربي الواحد)، الموحد على مختلف الصعد، وفي سائر المجالات.

وظاهرياً تبدو الصـورة مبشـرة بإشـراق مبهـر، أما ما تحت هذه (البشارة المشرقة) فهو ماسـيكون موضع التمحيص.. ولو بعموميـــة. ولكن، ما هي الغاية الاســتراتيجية من هـــذا التوجه الأوربي الجديد.؟! أي لمـاذا يلح سياسـيو أوربـا- بمبـادرة قيادية فرنسـية واضـحة- على هـذه (الوحـدة) الـتي تحولها إلى كتلة اقتصـــادية/ عســـكرية متمـــايزة، في لحظة انتصـــار(النمط الرأســمالي ونظامه العــام) على (بعبــع!) الخطر الشــيوعي السابق في شرق القارة؟!.

سـنهمل الإجابة مؤقتـاً ونعـود إلى التـذكير بأسس الهيكلية العامة للوجود الأوربي تاريخياً.. وهي هيكلية تبرز فيها محصلات كل الصـــــراعات : الدينية والقومية والعرقيـــة، الحربية منها والسلمية، وباعتبار هذه المحصلات موضوع تجلّ لسـائر عناصر التنـوع: المتنـاقض منها والمتصـالح، داخل الوحـدة الإجماليـة- الكائنة أو المطلوبـــة- للقـــارة.... وباعتبارها أيضـــاً حاملة لمستحقات التـاريخ المؤجلة حملاً إجبارياً، وفق مسـلمتنا الـتي توصلنا إليها في البداية.

قلنا قبلاً إن أوربا بـدأت "نهضـتها!" على أسس مـواريث

عصر الرق الأول فكرياً وقيمياً، وأشرنا تلميحاً إلى مستجرات الحروب الصليبية الفاشلة في الشرق، وإلى مستجرات تصفية المركز الحضاري العربي في الأندلس، من انشقاقات وصراعات دينية كانت- في مجملها- تخبئ صراعات المصالح في أطرها القبلية/ العرقية.

إن المجموعات القبلية الغازية التي ستعرف لاحقاً باسم (اللاتينية) ستبقى على مذهب الكثلكة، أما المجموعات الجرمانية فإنها بعد حركة مارتن لوثر ستترك الكثلكة إلى مذهبها الجديد (البروتستانتي)، فيما سيطور الأنغلو ساكسون صيغة أخرى من هذا المذهب ويسموته باسمهم: (المذهب الأنغليكاني)، بينما استقر السلافيون في الشرق على المذهب الأرثوذكسي متأثرين ببيزنطة ومذهبها الرسمي.. وفي وسط هؤلاء وأولئك انحشرت المجموعات الخزرية الصغيرة المتهوّدة التي شكلت أصل يهود العالم جميعاً باستثناء القلة الضئيلة من يهود الشرق العربي/ الإسلامي. وسنعود إلى هذه المسألة في سياق مناقشتنا لرؤى السيد بيريس.

أما سكان أوربا الأصليون فهم مازالوا متوزعين في مناطق كثيرة من دول القارة. ورغم مرور نحو من خمسة عشر قرناً على تلك العملية الواسعة من الاستيطان والتطورات اللاحقة عليها، فإنهم مازالوا يميزون أنفسهم عن القبائل الغازية التي صارت قوميات متمايزة تحتويهم دون أن (تتمثلهم) على ما يبدو. إذ، على ذمة توفلر في (الموجة الثالثة)، تنشط الرغبات والممارسات الاستقلالية لبقايا أولئك السكان الأصليين بصورة أقوى وأعمق بكثير مما نتوقع نحن أو نخمن!.

ولكن، لنغادر الآن ما نراه "مجموعاً واسعاً من الألغام الفعلية" لمستحقات التاريخ المؤجلة، ولنعد إلى النظر في موضوعنا الخاص هنا: موضوع وحدة أوربا بما لها وما عليها.. ولنحاول أن نتبين مدى تماسك هذه الوحدة، بل حتى مدى تماسك دولها منفردة، كيما نتمكن من استخلاص شيء ما مما هو محتمل في جملة علاقاتها الراهنة والمستقبلية.. ودائماً: في ضوء أوضاع الجنوب المنهوب المدمر ذاته!

قلنا إن أميريكا التي استقطبت اليهود ورساميلهم قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية قد أعادت بناء أوربا بعد تلك الحرب عسكرياً ورأسمالياً- عبر مشروع مارشال الشهير- بناءً يربطها عموماً بالمصالح الأميريكية ومقتضياتها، إنما: كشريك صغير إذا جاز التعبير!

وإذا كانت أميريكا لا تستند في تكوينها العام إلى ميراث ثقافي خاص ذي قيمة، بينما تستند أوربا / الأم إلى ميراث ضخم وغني التطور-بصرف النظر عن صحة أسسه أو نوعية وظيفته وقيمه- فإن لنا أن نتخيل نوعية رد الفعل السيكولوجي، الفردي والجمعي، الذي سيتولد أوربياً عن هذه التبعية ويتطور انطلاقاً منها! وإذا قرنّا ذلك برد الفعل المترتب على (السرقة الأميريكية) للتقنيات وللعقول الأوربية المدفوع

ثمن إنتاجها بما لايحصر من الآلام ودمـاء الحـروب، فإنه يمكننا استنتاج طبيعة النفـور والمقت الأوربـيين المضـمرين لأميريكـا، مثلما يمكننا تلمس مفتاح التفسير للرغبات الأوربية العميقة في سـرعة التخلص من التبعية لتلك (الاسـتطالة الاسـتيطانية)، المشوهة في تركيبها الاجتماعي العام على الأقل!

وفي هذا السياق كانت تعليقات الرئيس الفرنسي فرانسـوا ميتران على حـوادث لـوس أنجلـوس العرقية ذات دلالة هامـة، حيث إنها صيغت بتهكم واتهام قويين .. الأمر الذي جعل الإعلام الأمـيريكي يـرد سـريعاً بنـبرة شـبيهة، متوعـداً بقـرب انفلاش مشـابه في البنية القومية للمجتمع الفرنسـي، ومـذكراً أيضـاً بتاريخ العنصرية العرقية في أوربا كلها! ولايعنينا أمر الاستطراد في التحديات الفرنسية لأميريكا وأساليبها منذ ديغول وحتى آخر تصـريح لـوزير خارجية الـرئيس ميـتران(*)، رغم ما لـذلك من دلالات عميقة على ما نـذهب إليـه، مما لا يخفى على القـارئ، خصوصاً وأن فرنسا هي الـتي تتنطع لقيـادة أوربا نحو وحـدتها المأمولة كما سبق أن أشرنا.

والمهم في الأمر أن أوربا تمكنت، بعد نحـــــو من خمسة وثلاثين عامـاً تالية للحـرب، أن تبـدأ في عملية إنهـاء تبعيتها لأميريكا شـيئاً فشـيئاً، وأن تحـاول اسـتعادة بعض من دورها القيادي التاريخي للنظام الرأسـمالي العـالمي. وفي ضـوء هـذا يمكننا أن نرى موضوعة (الوحـدة الأوربيـة) ، وفي أكـثر جوانبها جذريـة، على أنهـا: محاولة كـبرى- على مافيها من تناقضـات داخلية حادة- للتخلص نهائياً من تلك التبعية، ولاسـتثمار أزمـات أميريكا بغية تحجيمها.. وذلك بإقامة سوق موحدة واسعة للإنتاج والاستهلاك وتحرك الرسـاميل. وبالتـالي: خلق (كتلة اقتصـادية ضـخمة) تـوازي الكتلـتين الآخـريين: كتلة أميريكا الشـمالية بما فيها كندا والمكسيك.. وكتلة آسيا الشرقية التي تشـمل اليابـان وامتداداتها الآسيوية، والصين أيضاً.

ويبـدو أن أوربا تعـوّل كثـيراً على الثقل التـاريخي لفعاليتها كمركز منتج لعصر الرأسـمالية أساسـاً، فيما هي تسـعى الآن لاسـتعادة ذلك الـدور، مثلما تعـوّل أيضـاً على أن تضم إليهـا- وبشـروطها هي_ شـظايا الاتحـاد السـوفييتي الأوربيـة، وروسـيا على وجه الخصوص، وبذلك تحقق اتساعاً جغرافياً وديموغرافياً يمنحها مزايا اسـتراتيجية إضـافية عالية الأهميـة: إذهي تصـبح مطلة بصورة مباشرة على آسيا برمتهـا.. مثلما سـوف تصـبح- في حال تحقق ذلك -شبه مطلة على أميريكا الشمالية.. والأهم أنه سينضـاف إلى أسـواقها الداخلية تلك السـوق الروسـية الفسـيحة، الغنية بالمتطلبـات الاسـتهلاكية قـدر ما هي شـديدة الغنى باحتياطي الخامات ومصادر الطاقة..

---

* (*) كـان ذلك أثنـاء زيارتة للخليج والسـعودية في الشـهر العاشر من العـام / 1994وكان ذلك التصريح يتضمن نوعاً من الإنذار والتحـذير المبطـنين بحـذر بالغ إلى أميريكا (بحق!!) المصالح الفرنسية والأوربية في أن يحسب حسـابها في أطر العلاقة الأميريكية /الصـــــهيونية مع منطقتنا العربية شـــــرقي المتوسط!!.

غير أن ذلك كلّه يبدو مخترقاً من نواحٍ عدة.

فبالنسبة (للثقل التـاريخي لفعّالية المركـز) يمكن القول إن الـديناميات الداخلية المحركة للمبـادرات المبدعة في سياق الإنتاج الحضاري الرأسمالي هي ديناميـات تظهر كأنما قد أصيبت بالترهل، وما يشـبه الشـيخوخة الدافعة إلى العطالة من الوجهة التقنية، قياساً إلى ماحدث في أميريكا، وإلى ما يسـتجد الآن في اليابان وآسيا الشرقية عموماً.

فبينما يتنـافس اليابـانيون والأمـيريكيون في مجـالات إنتـاج الكومبيوترات الذكية ويتسابقون بسرعة حـادة نحو إنتـاج النظم المعلوماتية خارقة الذكاء، مع كل ما يترتب على هذا الإنتاج من تغييرات متسـقبلية ومن امتلاك عناصر تفـوق جديـدة، ونسـجل هنا أن أميريكا لاتـزال متفوقة في ذلك تفوقـاً مؤقتـاً ونسـبياً، على الأقـل!- وبينما عمل اليابـانيون بـدأب على نقل أسـاليب أدائهم الصـــــناعي، بكل المعـــــاني المادية والعملية والعقلية للكلمـة، إلى المسـتويات الـتي تقتضـيها الثـورة التكنوالكترونية دون إحـداث أية صـدمة في نطـاق بـنيتهم الصـناعية/ التجاريـة/ المالية- والكلام هنا مقبوس من تـوفلر ذاتـه- فـإن أوربا لاتـزال غارقة في مفـاهيم وآليـات وقيم (عصر المصـنع الضـخم ذي الإنتاج النمطي الكـثيف المركـز) .. وهـذا المسـتوى من الأداء التكنولـوجي ما عـاد يجد الأفق العـالمي الملائم لنجـوع فعاليته باعتبـاره (المسـتوى القيـادي) للأداء الرأسـمالي العـالمي. إنـه، بمزيد من الاختصـــار، يصـــبح متخلفـــاً إزاء نظم الأداء التكنو إلكترونية، الذكية والخارقة الذكاء. وأوربا لم تستطع حـتى الآن أن تبدأ في الخروج عالمياً إلى المنافسة العالمية على مسـتوى نظام الأداء المستقبلي المذكور.

على أن الأهم، في هــذا السـياق ذاتــه-سـياق شـيخوخة الديناميات للمركز/ الأم- هو ذلك الإرث المبهط من الارتكاسات السيكولوجية، الفردية والجمعية، لقرون الاسـتغلال الرأسـمالي على القـارة. ولحــروب التنـافس الرأسـمالي على الأسـواق والمســتعمرات.. ولنظـــام (قيم امتلاك الـــثروة) ذاتـــه، على القطاعات الواسعة الوسطى والدنيا من شعوب أوربـا.. إضـافة إلى انعكاسات خطر التلوث البيئي وعشرات المشاكل الكـبرى المشابهة.. إن ذلك كله قد شكل أساساً معمماً لفقـدان الثقة بالحضارة، مثلما شكل إحباطاً عميقـاً لـدى مجموعـات واسـعة من النخب المثقفة التي- بدورها- تصنع(الـوعي التـاريخي) لـدى المجموع الشعبي إجمالاً. وهذا، بدوره، أسّس لتثبيط المبـادرات المبدعة اللازمة من أجل التنافس الكفء في السـباق العـالمي الجديد المحموم.

إن التشاؤم العـام المتعلق بمسـتقبل القـارة لم يظهر قبلاً- ولايمكن أن يظهر الآن- في تصريحات السياسـيين أو أفعـالهم. إنه مسـألة خطـيرة وعميقة الجـذورفي (الوجـدانات) الشـعبية. ومن أظهرها هم الكتـاب والمفكـرون والفلاسـفة والفنـانون!.. فـذلك التشـاؤم صـيغ في نظريـات متكاملة حـول (فلسـفة الحضـارة) كما في أعمـال كل من شـبنغلروتويبني..وصـيغ في

نظريات فلسفية عامة وأعمـال أدبية وفنية مشـهورة مثلما في الفلسـفات الوجودية و(العبث) و(اللامعقـول) وأفلام الـرعب، وغيرهـا..وفـوق ذلك فقد كشف أبعـاد ذلك التشـاؤم وحـدوده المرضية أعلام علم النفس المرضـى: مثل فرويد ويونغ وفـروم وسـواهم، من مختلف مـدارس ذلك العلم واتجاهاتـه..وكل هـذا هو بعض من الأدلة حـول صـحة ما نـذهب إليه من الاخـتراق القـائم في عمق محـاولات السياسـيين الأوربـيين لتوحيد أوربـا، ولاستعادة دورها القائد باعتبارها المركز الرأسمالي الأم!

وحـتى على مسـتوى الأدوات السياسـية ذاتها لا تبـدو آلة الحرب الأوربية مجتمعة- والتي يفـترض، كما سـبق القـول، أنها الاحتيـاطي الأهم لحماية المصـالح ولـترجيح كفة أصـحابها في مـوازين المعـادلات الدوليـة- على أنها تـوازي حـتى آلة الحـرب الروسية المتبقية، ناهيك عن آلة الحرب الأميريكية!..

وهـذه القضـية- متداخلة ومركبة مع قضـايا ذاتية وعالمية أخـرى كثـيرة- تجعل حضـور أوربا في المشـاكل الدولية الـتي تتطلب الحلول العاجلة حضوراً باهتاً، بل هامشياً وتابعاً لأميريكا حتى هذا التاريخ.

ولا تبـدو أميريكا كبـيرة الرضا أو الارتيـاح تجـاه الوحـدة الأوربيـــة، ولعلها في وقت ما قد عملت حـــتى على عرقلة خطواتها التأسيسـية.. انطلاقـاً من تحـالف ديـني يخفي وراءه المكر البيوريتاني وصراع المصالح!..

ففرنسا الكاثوليكية التي تطـرح نفسـها قائـدة لوحـدة أوربا جوبهت باستمرار بنوع من الاستقطاب الانغليكـاني في القـارة تقـوده انكلـترا بتشـجيع أمـيريكي!.. إنها لم تكن مصـادفة، ولا قضـية شخصـية، تلك الميـول القوية المبكـرة الـتي أظهرها الجـنرال ديغـول للتخلص من عبء التبعية لأميريكا حين رفض ربط آلة الحرب الفرنسية بحلف الناتو، وقال عنه: (ليرحم الله جميع الموتى). لقد كان هذا الرجل يمقت بقوة حلفاءه الانكلـيز ومكـرهم البيوريتـاني اللـئيم الـذي هو خلاصة (النهج الصـافي) لعمل النخبة الأميريكية القائـــدة. وهو قد ذهب ســـــريعاً من (الإيليزيه) بعد انتهاء رئاسته الأولى، لكن الديغولية كنهج لاتـزال تلقي ظلالها بقوة على مجمل الحياة السياسية الفرنسـية.. في الـوقت الـذي لاتـزال ألمانيا فيه تغـرق في مشـاكل وحـدتها المتجددة مثلما كانت قبلها غارقة في (تبييض) تاريخها المعاصر من مشاكل مخلفات النازية!!

وخلاصة القـول إن وحـدة أوربا مخترقة من داخلها بمختلف ماحان دفعه من مسـتحقات التـاريخ المؤجلـة.. أما تسـميتها بـ "القارة العجوز" فليست تسمية من باب التدليل أو التفكه بتاتاً، وإنما هي تسمية تطرق أشد أبواب حقيقتها خفاءً!

ولننظر الآن في **<u>الاختراقـات على جبهة ضم شـظايا الاتحاد السوفييتي</u>** إلى " البيت الاوربي الواحد" حسب ذلك التعبير الغورباتشوفي المشهور.

من المعـروف أن ضم عـدد من دول أوربا الشـرقية: بـدءاً

بـــدول البلطيق الثلاث، مـــروراً ببولونيا ورومانيـــا.. وانتهـــاء بجمهوريـتي التشـيك والسـلوفاك، إنما يعامل أوروبيـاً على أنه نوع من اسـتجرار أعبـاء إضـافية على أوربا الغربيـة. أما الطمع الحقيقي فهو: في روسيا!

لكن روسيا لاتـزال تفـور بما لايمكن حصـره أو حسـابه من الاحتمالات الخطرة حسب المقاييس الأوربيـة. وفـوق ذلك فقد انصبت الفعالية الأميريكية بنوع من القـوة نحو هـذا البلـد، حيث توجد قـوى يهودية مترسـملة هامـة، وتعيد خلق شـبكة فعالة لترابطاتها مع "مركزهـا" الشـايلوكي في الولايـات المتحـدة. وهـذا كله يشـكل عوائق قويـة- رغم تنافرهـا- في وجه احتـواء روسيا أوروبياً كما هو مأمول.

إن التنامي الجديد لاتجاهين قـوبين متعاكسـين في روسـيا: الاتجاه الشيوعي الجديد، والاتجاه القـومي الروسي المتعصـب، لا يعيق فقط حركة السياسـيين الـروس الميـالين إلى الانـدماج في "البيت الأوربي الواحـد"، بل هو فـوق ذلك يعيد إلى الـذهن الأوربي- الفرنسي والألمـــاني خصوصـــاً- وفي أعمق مناطقه السـيكولوجية المخبـوءة، حقيقة أن روسـيا هي "البلد الغـامض الخطر" الذي لا يؤمن جانب المجازفة فيه أو معه!.. وهكذا فإن دعـاة الوحـدة الأوربية لن يحصـلوا قريبـاً على ذلك "الامتـداد الروسي المفتوح" من الأسواق والثروات، ولن يجدوه معهم، أو في جيـــوبهم، كي يحل لهم أزمـــاتهم الخاصة في المســـتوى الاجتماعي/ الاقتصادي الذي هو "منصة الإقلاع" نحو فضاء الدور القيادي العالمي المطلوب! ولكن مـاهي المظـاهر الـتي تتبـدى فيها تلك الأزمات الأوربية الخاصة على المستوى المذكور؟

ابتداءً، يمكن القـول إنـه- كما في أميركـا- تنعكس تـأثيرات أوضاع الجنوب المنهار على أوربا في صـيغة أزمة كسـاد وأزمة بطالة حـادتين بالفعل . وتنضـاف إلى ذلك أزمة المهـاجرين من المستعمرات السـابقة الأمر الـذي يسـتثير- في إطـار التشـاؤم الحضاري والخوف المـترافق معـه- إحيـاءً قويـاً للنزعة العرقية المتأصلة في أوربا، ليس على المسـتويات الشـعبية وحسب بل أيضاً على مستوى الإجراءات السياسية التي تتخذها أهم بلـدان القـارة للحد من الهجـرة.. وذلك رغم كل الادعـاءات الإعلامية بالترفع عن تلك النزعة وإدانتها ظاهرياً!

إن ذلك كله يؤشـــر، في نهاية الأمـــر، على أوضـــاع عامة متخبطة وإن تكن غـير منظـورة، لأن التخبـط- حسب تقـديرنا- قائم في الأساس البنيوي الذي لم ينفلش بعد!

وإذا كنا لانملك أرقامـاً عن العجـوزات المختلفة لمـوازين المـدفوعات الخاصة بـاهم حكومـات القـارة، فإننا نعـرف أن البلدان الأقوى في القارة: فرنسا، ألمانيـا، إيطاليـا.. قد عـرفت وتـائر نمو جيـدة خلال الثمانينيـات تـراوحت بين 10و8%، لكن هذه الوتـائر قد أخـذت بـالتراجع في السـنوات القليلة الماضـية تراجعاً حاداً إلى نحو 5%. وهذا بدوره مؤشر آخر على التفـاقم في أهم الأزمات التي تواجهها القارة. أما انكلترا التي لم تعرف

مثل هذا النمو العالي فإنها قد أخذت تعرف انخفاض وتائره نحو رقم أدنى من الـرقم المنخفض لنمو الـدول الأخـرى سـابقة الذكر.

ولعل نوعية الخلافـات الـتي دارت بين أوربا وأميريكا قبل توقيع اتفاقية التجـارة العالمية (الغـات) لهي المؤشر الأبلغ في الدلالة على عمق الأزمـات الـتي تطـال المسـتوى الاقتصـادي/ الاجتماعي لعموم أوربا.

وبالطبع، إن تركيب الوضع الأوربي الراهن هو تركيب خاص مختلف جذرياً عن تركيب نظيره الأميريكي الذي سـبق عرضـنا لأهم ملامحـــه. ومن الأفضل لبحثنا هنا أن نعيد تلخيص مجمل جوانب صورته- مع الاعتذار من القارئ عن بعض التكـرار الـذي قد يحـدث- وذلك كيما نـرى تلك الصـورة بـأكثر ما يمكننا من الوضوح والجلاء... وكيما نرى فيها احتمالات المصائر أيضاً!

أ- لقد قلنا إن أوربـــا، منتجة عصر الاســترقاق الرأســمالي العـالمي، قد بـدأت تشـيخ حضـارياً. أي إن :"طاقة الـدفع الـذاتي" لمجتمعاتهـا- الـتي كـانت "حـاملاً" لفعالية القـرون الخمسة الماضية والمبهظة بسائر المعايير- أصـبحت عـاجزة بنيويـاً عن إعـادة التشـغيل النـاجع لميكانيزمـات هـذا النمط الحضـــاري في شـــروط الســـباقات العالمية الراهنـــة، واشتراطات المشاكل التي تصوغ إشكالية هذه السـباقات أو تولدها.

ب- أصـبحت قـارة أوربا ملوثة بيئيـاً إلى درجة خطـيرة. وهـذا يســـتثير فعالية مضـــادة لأسس العمل الرأســـمالي في المستويين التكنولوجي والعسـكريتاري، الأمر الـذي تجسـده (منظمات الخضر) التي أخذت تنتشر بقوة مقبولة في سـائر أنحـاء القـارة. وهـذا كلـه، مع عناصر انعـدام الثقة بالنمط الحضاري، والخوف المـترتب على احتمـالات تجـدد الحـروب المرعبـة، وبـروز تفاهة نظـام القيم المتأسس على امتلاك الثروة للإنسان.. كل ذلك يشـير إلى نـزوع عميق في صـلب البنى التحتية إلى تغيـير "الوظيفية الرأسـمالية" للقـارة، وهو ما يتطلب بـدوره تغيـيراً بنيويـاً جـذرياً لمجمـوع الـتركيب الشعبي الأوربي! ونحن نجد الـدليل على هـذا الافـتراض في أساليب الحياة العيشية لقطاعات واسعة من الشـباب الأوربي منذ حركة 1968 الطلابية في فرنســا، دخــولاً إلى انتشــار "الهيبيـة"، ثم أسـلوب "الأوتو سـتوب"... وانتهـاء بـالانحلال الجنسي ومستجراته المختلفة.

على أن تغيير "الوظيفية" المذكور، كميل معبر عنه اجتماعياً في المظـاهر الـتي ذكرناهـا، هو تغيـير متنـاقض بحـدة مع الهيكلية العامة المتأسسة على قيم استعباد التملك للإنسان، ومع نظرية المركزية الأوربية في الثقافة، ومسـتجراتها الـتي تشـكل- في المحصـلة النهائيـة- إطـاراً وأرضـية إجمـاليين لمجموع تلك التناقضات المتفاقمة. وهذا مانرى من جهتنا أنه يستجر تحللاً بنيوياً عامـاً لن تسـتطيع "آلة الدولـة" كبحه أو

إعاقته لوقت طويل.

حـ- إن أوربا لم تعد لـديها مـوارد منجمية ذات شـأن، مثلما إنه ليست لديها موارد طاقيه ذات أهمية تذكر.. ولاتشـير أبحـاث "البدائل" إلى أنها ستكون ناجعة، في مدى قريب مقبول.

وفي سياقات التصارع العالمي على الموارد المذكورة وعلى السوق، المنكسرة عالمياً في الأصل، ستجد أوربا نفسها في وضع دافع إلى مزيد من تفـــاقم أزماتها الإجماليـــة.. بل إن بداية هذا التفاقم قد أخذت تحتد وتحتدم، وهذا ماسنتبينه في الفقرتين التاليتين الأخيرتين.

د- إذا أخذنا الأعمدة الثلاثة الرئيسية للوحدة الأوربيـة: (المانيـا- إيطاليا- فرنسا) فسنجد أنها- كما سـبقت الإشـارة إلى ذلـك- قد عـرفت انخفاضـاً حـاداً في وتـائر النمو ومنـذراً بـالخطر. وفي ألمانيا تحولت الوحدة المفاجئة بين جزئيها إلى نـوع من العبء السياســي/ الاقتصــادي/ الاجتمــاعي المفــزع، فقد تكشف (الحلم الفردوسي!) الغربي للشـرقيين عن نـوع من "جحيم" يهـدد عناصر اسـتقرارهم السـابق بخلخلـة، فردية ومجموعاتية، تنسف أنساق ترتيب موجوديتهم دون تقديم أية بـدائل ناجعــة.. بينما وجد الغربيــون أن أحلامهم باســتثمار الموارد الشرقية تنكسر على صخرة مقاومة الشرقيين الذي رأوا تلك الوحــدة تضــعهم في الوضع إلــدوني الــذي يهــدد الأسس البنيوية لحياتهم، حسبما ذكرنا أعلاه.

ومجمل مســتجرات الوحــدة، في إطــار الكســاد والأزمة الاقتصادية العالمية المفتوحة، قـاد إلى اتسـاع نشـاط النازية الجديدة- في غرب ألمانيا بالطبع- كرد فعل خطر ضد مجمل الوضع الألمــاني وترتيباتــه.. إلى آخــره مما لم تــدرس بعد أبعـــاده ونتائجه المحتملة دراسة مقبولـــة! ولكن ذلك كله مؤشر على صحة ما ذهبنا إليه في الفقرة السابقة.

أما إيطاليا فقد دخلت الآن- وقت كتابة هذا البحث- في أزمة اجتماعية معلنة وخطرة، بعدما تكشفت أوضاعها عن التحكم المافيوي في أهم المفاصل الإدارية والسياسـية الـتي تتـولى تسيير شؤون الحياة العامة في هـذا البلـد. ومجمل الفضـائح الـتي أبـرزت في دائـرة الضـوء- ناهيك عن التغيـير المتـواتر المــازوم للحكومــات هنــاك- تشــير ليس إلى عمق الأزمة البنيوية للبنية الفوقية لإيطاليا وحســـــب، بل أيضـــــاً إلى منعكساتها في (حاملها) الاجتماعي/ الاقتصادي التحـتي حيث يقتضي ذلك اسـتجرار هشاشة بنيوية لـذلك الحامـل، إن لم نقل بداية تحلل بنيوي إجمالي.

وربما تبـــدو فرنسا في وضع أفضـــل، لكن نجـــاح اليمين المتطـرف، والإجـراءات الأخـيرة المتعلقة بموضـوع الهجـرة والجنســية- وهي إجــراءات تنبع من وضع ثقــافي عــرقي يفــترض أنه قد تغــير!- تنم، في حواشــيها وتبريراتهــا، عن تأزمات قيد الانكشاف.

على أن النمو العسـكريتاري لألمانيا الموحـدة، والـذي قلب الموازين بينها وبين فرنسا في هذا الميدان، قد أثار هـواجس السياسة الفرنسية- كما يقول توفلر- الأمر الـذي دفع السـيد ديستان الرئيس الفرنسي الأسبق إلى أن يصرح قائلاً: (على القوات الفرنسية أن تكون معادلة في حجمها للقوى الأخرى في القارة، أي للجيش الألماني)[*] .. ويعكس هذا الأمر بذاته مـدى (قلة الثقـة) بين أهم القـوى في (الوحـدة الأوربيـة)، ويـدلنا بالتـالي على الخـوف المتبـادل بين دول تلك الوحـدة رغم كل ما يعلن عنه أو يصرح به.

هـ- ثمة سؤال يطرح نفسه هنا، ونحن نتذكر التمزقـات القومية ذات الأبعاد العرقية لدول شرق أوربا، هو: هل أوروبا الغربية مرشحة للإصابة بعدوى هذه التمزقات أم لا؟!

إن إجابتنا على هذا السؤال ستكون على ذمة صـاحبنا تـوفلر ذاته، وسننقل عنه فقرة نعتذر عن أنها مطولة. يقـول تـوفلر في كتابه "الموجة الثالثة" وفي فصل "انحلال الأمة":

(الــوقت هو آب/ أغســطس/ 1977. ثلاثة رجــال يرتــدون القبعات جلسوا إلى طاولة بسيطة، في أحد أطرافها مشكاة وشـمعة متـوهج لهبهـا، وفي طرفها الآخر علم مجعـد، وعلى الراية وجه غاضب لرجل على رأسه عصــابة تشــبه دوامة عليها الأحرف اللاتينية FLNC. قـال هـؤلاء الرجـال الملثمـون لرجال الصحافة الذي جلبوا معصوبي الأعين إلى مكان اللقاء أنهم مسـؤولون عن تفجـير محطة البث في سـيرادي بنغـو- وهي المحطة الكورسيكية الوحيـدة لاسـتقبال بث التلفزيـون الفرنسـي- إنهم يريـدون لكورسـيكا أن تنفصل عن فرنسـا، فبـاريس تنظر لأهل الجزيـرة بـازدراء تقليـدي، والحكومـات الفرنسية لم تفعل شـيئاً يـذكر لتطـوير اقتصـاد الجزيـرة.... واليـوم تعـاني فرنسا من تخمر ضـيق النطـاق- كالمشـكلة الإيرلندية- في جزيرتها المتوسطية. وفي الطـرف الآخر من البلاد تتفاعل عواطف الانفصـاليين منذ مـدة طويلـة، وكـانت ذروتها السـنوات الأخـيرة. إذ تلقى حركة الإنفصـاليين في "بريتــاني"، حيث فيها أعلى نسـبة بطالة وأدنى الأجــور في فرنسا، دعماً واسـعاً، وتنقسم إلى فـرق متنافسة ولها جيش إرهــابي اعتقل بعض أعضــائه بتهمة القيــام بتفجــير بعض المبـاني الرسـمية بمافيها قصر فرسـاي. وفي هـذه الأثنـاء تقلق فرنسا مطالب الاستقلال الثقافي والإقليمي لمقاطعتي الألزاس واللورين، وأجزاء من لانغيدون وغيرها.

وعبر القنال الانكليزي تواجه بريطانيا ضغوطاً مشـابهة، لكنها أقل عنفـاً، من الاسـكتلنديين. ومنذ بداية السـبعينات كـان الحـديث عن القومية الاسـكتلندية يعتـبر (نكتـة) في شـوارع لندن، لكن هذه القضية لم تعد مضـحكة على الإطلاق حالياً، وخاصة بعد الأخذ بعين الاعتبار أن يسـاهم نفط بحر الشـمال

---

* (*) كتاب"تحول السلطة"- الجزء الثاني- ص780 - منشـورات اتحـاد الكتـاب العرب بدمشق 1991 ترجمة حافظ الجمالي وأسعد صقر.

في تطـوير الاقتصـاد الاسـكتلندي في المسـتقبل. وعنـدما فشلت حركة لتكوين مجلس اسكتلندي منفصل عـام 1969 ازدادت الضغوط المطالبة بالاستقلال الـذاتي وبصـورة أكـثر عمقـاً من ذي قبـل. فـدعاة القومية الاسـكتلندية، الـذين ضايقتهم سياسات الحكومات التي تحابي التطوير الاقتصادي للجنوب، يتهمون الاقتصاد البريطاني البطيء أنه يجرهم نحو الأسـفل، في حين أن اقتصـادهم منطلق للأعلى، ويطـالبون بسـيطرة أكـبر على نفطهم. ويسـعون أيضـاً إلى اسـتبدال صناعات الفـولاذ والسـفن الكاسـدة بصـناعة جديـدة متقدمة على أساس الكتروني. وفعلاً بينما يمزق بريطانيا جدل حـول دعم حكومي لصناعة أشباه الموصّـلات أم لا فـإن اسـكتلندة هي ثـالث أكـبر مجمع للـدارات المدمجة في العـالم بعد كاليفورنيا وماساتشوسـيتس. وفي مكـان آخر ببريطانيا تبـدو ضغوط الانفصـاليين واضـحة في ويلـز. وتظهر على السـطح أيضـاً حركـات اسـتقلالية صـغيرة في (كورنـوول) و (ويسـيكس).. إن أوربا كلها تشـعر باسـتفحال الضـغوط النابـذة: في بلجيكا يتصـاعد التـوتر بين الغـالون والغليميش والبروكسـيليين. وفي سويسـرا أحـرزت جماعة انفصـالية مـؤخراً نصـراً في مطـالبهم لمقـاطعتهم في الجـورا. وفي ألمانيا يطالب الألمان السوديتيون بحقـوقهم في العـودة إلى أراضـيهم في تشـيكو سـلوفاكيا. وهنـاك ضـغوط مماثلة في (تسـيرو لـيز) الجنوبية في إيطاليا والسـلوفين في النمسا والباسك والكاتـالونيين في اسـبانيا.. بالإضـافة إلى عشـرات الجماعات الأخرى المغمورة)[*].

إن ما نريد أن نخلص إليه من كل هـذا الـذي قـدمناه عن "القارة العجوز" هو أن وحدتها الـتي تبـدو سـائرة بخطا متوازنة في إطـار معـادلات تصـدع عـالمي عميـق، وسـباقات مضـنية ومتأرجحة على تملك الثروة، لهي وحـدة تشـاد على "حقل من ألغام مستحقات التاريخ" وكلها جاهزة للتفجـر!.. ونحن لانوافق السيد توفلر، رغم اعترافنا بحصافته وضـخامة مجهـوده، أن كل شيء يمكن تفسـيره بالعامل الاقتصـادي وحـده.. وإن بـدا، في هـذه التركيبة الرأسـمالية القائمة على هـذا التوجه الوحشـي، مرتدياً هذا القناع!

وبالطبع، ليست أوربا ولا أميريكا قيد الانهيار المباشـر. لكن تحللاتها البنيوية التحتية تجعل من ثقل ضـغط الواقع العـالمي على مجمـوع حركة البنيـان الرأسـمالي العـام عنصـراً دافعـاً بسرعة وقوة- على المستوى التاريخي- لذلك الانهيـار. وقياسـاً على ما آلت إليه الأمور في (العـالم الاشـتراكي!) فـإن أحـداً لا يمكنه أن يحدد من أين قد تأتي الشـرارة الـتي يبـدأ منها حريق الغابة الرأسـمالية، ولا كيـف.. أو مـتى. لكن تقـديرنا الخـاص لايعطى حدوث ذلك مدى فسيحاً من الوقت، رغم كل المظاهر

---

* (*) ص 343-345، والكتـاب من منشـورات الـدار الجماهيرية للنشـر-ليبيا 1990 وترجمة عصام الشيخ قاسم. وفي الصفحتين 347-348 تنبؤات مكثفة وموثقة حول تمزق الولايات المتحدة لمن شاء مراجعة ذلك.

التي يحيط البنيان الرأسمالي نفسه بها.

إن فواعل حركة التاريخ غير المنظورة لايمكن كبحها إلى مالا نهاية له من الزمن، لا بواسطة آلات الحرب ولا بالسلطة الدولتية ومؤسساتها، لأنها فواعل لاتقيدها الأوامر ولا توقفها الرغبات.

ولأن العالم قد توحد- في إطار الفعالية الرأسمالية- باعتباره "سوقاً" على وجه الدقة، فإن علينا أن نتوقع أن كل اهتزاز بنيوي في أحد مكونات هذا "العالم/ السوق" سيترك آثاره بقوة في بنيانات المكونات الأخرى. فكيف إذاً هو الأمر إذا كان الاهتزاز في ثلاثة أخماس هذا العالم له طبيعة الزلزال؟!

وإذا كان لنا أن نخمن أن أميريكا- وهي قد استنزفت بنهم وحشي موارد"حظيرتها الخلفية": أميريكا الجنوبية والوسطى- لابد أن تسعى، في جملة مساعيها المبذولة لحل أزماتها الخطرة، إلى نوع من الاحتلال الدائم لمصادر الطاقة الغنية شرقي المتوسط والبحر الأحمر، حيث بذلك تكون قادرة على "الإرغام السلمي!" لحلفائها / الأعداء في آسيا وأوربا كي يخضعا لمتطلبات مصالحها.. فإن أوربا تكتفي الآن- كما يبدو- باستعادة ثقل حضورها في ما تعتبره" حظيرتها الخلفية" الخاصة: قارة افريقيا التي لا تزال غنية إلى درجة كبيرة بمصادر الطاقة كما بالموارد المنجمية النادرة وغير النادرة!

غير أن أميريكا ذات "مبادرات!" هامة وفعالة في "قطع الطريق" على أوربا بهذا الاتجاه. ويمكن لنا هنا أن نحلل مسألة (طيارة لوكربي) في ضوء ذلك.

لقد جرى افتعال اتهام ليبيا بتفجير تلك الطائرة بعد "تذبذب اختباري" أميريكي بين إسناد الحادثة إلى إيران أو سورية. فما هو السياق الذي تم فيه إسناد التهمة إلى ليبيا بصورة نهائية؟!

لقد تم الأمر عقب الحرب الليبية/ التشادية حيث رمت فرنسا بثقلها ضد ليبيا، وصار لها وجود عسكري في التشاد وقتذاك، وعندها استحدثت أميريكا ذرائع خاصة بها كي تهدد ليبيا بدورها ثم تقصفها بوحشية، ومن موقع الرغبة بتطويع هذا البلد الغني- بل حتى احتلاله إن أمكن- كي يستجيب لمقتضيات مصالحها. ولم يكن الأمر في الحقيقة مناصرة لفرنسا أو أوربا "الحليفة!" وإنما كان نوعاً من الإنذار والمصادرة غير المعلنة لحرية حركة أوربا في القارة السوداء. وتلك هي الطريقة البراغماتية الإمبريالية لتبادل " الإنذارات!" إذ يجيء الأمر دائماً في سياق ابتزاز الشعوب في العالم الثالث!

ولأن الرغبات الأميريكية المتحركة بضغط الأزمات والمصالح لا يمكنها التوقف، فإن افتعال تهمة ليبيا بأنها هي التي فجرت طائرة الـ"بان أميريكان" فوق بلدة لوكربي إنما جاء استمراراً للرغبة الأميريكية في السيطرة المباشرة على أحد أهم مفاتيح القارة السوداء وأغناها، وبالتالي: في ضرب نوع من الحصار حول "الشريك/ الخصم" الأوربي، إذ إن ليبيا هي في النهاية أقرب وأهم مصدر للنفط إلى أوربا.. هذا عدا

الأبعاد الأخرى وراء التهمة، والمتعلقة بإجمالي الأوضاع العربية، وبالمطلوب أميريكياً منها!

لكن أوربا، ممثلة في فرنسا المتنطعة للعب الدور القيـادي هناك، سارعت بدورها إلى إنذار أميريكا بعدم التحرش المباشر بما تعتبره "حظيرتها الخلفية" إذ سرعان ما بادرت إلى "تذكر!" طائرة لها كانت قد أسقطت فوق تشاد... وبذلك توقفت قضـية لوكربي عند الحـدود المعروفة في ما يخص الهجـوم على ليبيـا: أميريكياً أو أوربياً، ولو إلى حين!

إن أهم ما يلاحظ في الصـــــراعات الإمبريالية المتبادلة هو ذلك التركيز الخاص على وطننا العربي وبـاقي منطقة (الشـرق الأوسـط) والـتي هي- كما سـبق القـول- قلب العـالم من حيث موقعها الــذي تتوضع على أطرافه مواقع القــوى الكــبرى في "العالم القديم"، ومن حيث هي أهم وأغنى مصادر الطاقة التي يرتبط بها بقاء العصر الحضاري الرأسمالي برمته.

وأوربا الـتي أخـرجت من المنطقــة، كما هو معلـوم، عقب الحرب العالمية الثانيـة، حيث جـرى (ملء الفـراغ!) وفقـاً لأفق العمل الإمبريالي الأميريكي الجديد.. أوروبا هذه تبحث الآن عن "مـوطئ قـدم" لها فيها ولكن من دون نجـاح. فقـوة الحضـور العســـكري الأمـــيريكي، والتعـــاون النشط بين الـــذراعين الأخطبوطـيين: الأمـيريكي المـأزوم والصـهيوني البـاحث عن " إمبراطورية مرحليــة" على قــدّ الحــال في هــذه المنطقــة- وبإشراف أميريكي بـالطبع- هما أمـران يحـولان دون أن يكـون لأوربا- مرحلياً على الأقل- أي دور ذي قيمة فيها!

وهذه النتيجة التي تتعلق بحـدود العلاقة الممكنة والمحتملة راهنياً بين أوربا وبين (الدولة الأصولية الصهيونية) خارج التفرج على ما ترتبه أميريكـــا- إضـــافة إلى اســـتنتاجات أخـــرى مهمة نـذكرها في حينهـا- هي أحد أبـرز أهـدافنا من كل هـذا العـرض العام الذي قد يبدو مطولاً في سياق مانحن بصدده.

وقبل الانتقال إلى النظر في أوضاع المركز الآسيوي الغنيّ- على تنـــــوع اتجاهاته الآن- داخل أطر الصـــــراعات الإجمالية للرســـاميل والكتل الرأســـمالية العالميـــة، وقبل النظر في انعكاسات تلك الأوضاع على ما يجري في منطقتنا، وعلى ماهو مخطط له أن يجـري، لابد من عـودة سـريعة إلى روسيا الـتي ورثت أقوى آلة حرب تكاد تكون موازية لآلة الحـرب الأميريكية إن لم تكن متفوقة عليها في أكثر من جانب.

لقد خلف تفكك الاتحـــاد الســـوفييتي وتحلل مؤسســـاته السابقة نوعاً من الانهيـار الاقتصـادي العاصف بمجمـوع عناصر التوازن في موجودية البنى التحتية الروسـية، الأمر الـذي دفـع- مع جملة من العوامل الأخـرى- إلى صـعود غـير عـادي للنزعة القومية الروسية المتعصبة، وهو ما عـبر عنه ذلك الفـوز الكبـير في انتخابــات مجلس الــدوما الروسي للسـيد جيرونوفسـكي وأتباعه.

وتحمل "الأحلام الجيرونوفسكية" حول ما يسميه هو (المجال الحيوي القومي التاريخي لروسيا) واحداً من أهم احتمالات صراع الهيمنة بين القوى الكبرى- ومنها روسيا بالطبع- على منطقتنا في شرقي المتوسط، بما في ذلك تركيا وإيران. فالسيد جيرونوفسكي لم يخف بتاتاً طموحاته التوسعية هنا، في حال وصوله إلى قيادة الدولة في انتخابات الرئاسة الروسية القريبة.

وأميريكا- رغم كل مجهوداتها المنصبة باتجاه مَزَق الاتحاد السوفييتي السابق لغايات مختلفة- لم تستطع إلا أن تأخذ كتابات جيرونوفسكي وتصريحاته حول هذه المسألة مأخذ الجد البالغ.. تماماً مثلما أخذتها أوربا برد فعل قلق وانفعالي، وهي ترى "حلمها" باحتواء روسيا كطرف تابع في "وحدتها" قيد الانهيار، ورغم كل ما حدث فإن روسيا قادرة -بسرعة نسبية على الأقل- على تجاوز أزماتها الاقتصادية الاجتماعية خارج حدود سياسة مائعة لرجل مثل يلتسين، ولاسيما في ظل إدارة قومية متعصبة كإدارة جيرونوفسكي المحتملة، ومع وجود آلة الحرب الرادعة وغنى احتياطي الثروات، أو في ظل عودة الشيوعيين إلى الحكم.

وفي حال حدوث ذلك، فما الذي يمكن أن يحدث من اختلالات جديدة في معادلات التوازن العالمية الهشة؟

إنه تساؤل يحمل في ذاته مبررات طرحه حملاً قوياً. ولعل حظوظ جيرونوفسكي في النجاح كرئيس لروسيا هو ما يفسر أسباب تردد كل من أميريكا وأوربا عن تقديم المساندة السريعة والناجعة للسيد يلتسين وإدارته.(*)

وبصرف النظر عن كل ما تردد حول "الأصل اليهودي" لجيرونوفسكي- وهو قد نفى ذلك بقوة وبنبرة لاذعة متهكمة- فإن المزاج الروسي العام يميل الآن إلى أن يرى جيداً كيف كأن اليهود وراء كل المشاكل التي تعاني منها "روسيا يلتسين" وسلفه غورباتشوف. وقد عبر السيد روتسكي، أحد أقطاب التمرد البرلماني المشهور ضد يلتسن، عن ذلك بوضوح إذ قال عن يهود روسيا : إنهم قد نهبوا منها كل ماخف حمله وغلا ثمنُهُ!

واحتمالات نجاح جيرونوفسكي في انتخابات الرئاسة الروسية المقبلة- ما لم تستجد أمور أخرى- ربما تكون واحداً من الأسباب الجوهرية لتسريع الترتيبات الشرق أو سطية، حسبما جرت عليه حتى الآن.. إذ بادرت أطراف عربية حاكمة كثيرة إلى فتح أوسع الأفاق الممكنة راهنياً للتعامل مع الدولة الأصولية الصهيونية، وبالطبع: تحت ضغوط أميريكية قوية وملحة. ويبدو أن تحالف الذراعين الأخطبوطيين: الأميريكي

(*) كما هو معروف، لم ينجح جيرونوفسكي في تلك الانتخابات، لكن هذا الاحتمال ليس غيروارد مستقبلاً على الإطلاق. أما التردد في مساعدة أوروبا وأميريكا للسيد يلتسين فقد انتهى لاحقاً، لكن ثمن المساعدات كان مبهظاً لروسيا إبهاظاً فظيعاً.. وقد بدأ نجم الشيوعية يأخذ باللمعان من جديد ولكن في أفق مختلف عما مضى مع تطعيم قوى بالروح القومية الروسية% (ملاحظة متأخرة)

والصهيوني يعمل على أن يواجه كل الاحتمالات الممكنة: أوربياً وروسياً وآسيوياً، بما هو "أمر واقع!".

ولكن، في أفق من التفجُّرات العالمية الكثيفة للتوازنات القائمة، أو المهددة لتلك التي يجري "إخراجها"، ما الذي يمكن المراهنة عليه، مادام الجنوب المنهار غير قادر على امتصاص أية أزمة رأسمالية مهما تكن صغيرة؟.

ولعل هذا هو أول سؤال يخص"رؤى!" السيد بيريس قبل الدخول في المناقشة حول تنظيراته المستقبلية عن "شرق أوسطه الجديد"!!

ثالثاً: مركز الشرق الآسيوي المتنوع

قد يكون من الأفضل هنا أن ننظر في إجمالي الوضع التاريخي والراهن لهذا المركز كي نستطيع الدخول إلى ما يهمنا من تفصيلات، وإلى ماهو محتمل من انعكاسات ذلك على منطقتنا وما يجري فيها.

ومبدئياً نشير إلى أن مجموع دول شرقي آسيا- غنيها وفقيرها، رأسماليها واشتراكيها- قد تكوّن ثقافياً باعتباره (العالم الصيني) بما في ذلك اليابان نفسها.. وهذه إحدى الحقائق الأولية ذات الأثر الهام جداً في التطورات المستقبلية لأوضاع هذا المركز التي تبدو الآن شديدة التنافر، بل إن لها طابعاً تناحرياً لم ينقصه الدم الكثير منذ أن دخلته أميريكا حتى الآن، ناهيك عن "تورثيات!" الإمبرياليين اليابانيين الذين هزموا في الحرب العالمية الثانية.

على أن ثقافة هذا العالم الصيني، سواء كانت بوذية مطورة، أو كونفوشية، أو تاوية- وهذا المجموع هو الذي يشكل الأرضية الروحية الحية التي تتحرك عليها سائر البنيات التحتية هناك- هي ثقافة تنبني منظومتها القيمية المرجعية على ما هو، تماماً، عكس المنظومة القيمية الأوربية التي تجعل الإنسان ملكاً للثروة أو عبداً لها.. حتى إنه ليصح القول نسبياً: إن الاشتراكية أو الرأسمالية في "العالم الصيني"- أقرب إلى الوسيلة للحفاظ على البقاء في عالم صنعته الشيلوكية الأوربية، إذ يظل الإنسان عموماً في ثقافة ذلك المركز هو الأصل، وطموحه الروحي إلى تجاوز محدودية كينونته المادية الآنية هو السمة الغالبة على سائر أنماط الحياة وتفرعاتها في مختلف أنحاء دوله إجمالاً. وينبثق "نظام الطاعة" بمختلف صيغه هناك من تلك الحقائق الثقافية/ القيمية وجملة الاعتقادات المرتبطة بها خلال التاريخ- وهو لا يزال نظاماً راسخاً في إجمالي الحياة الشعبية إلى الآن.(*)

(*) بما أن رأس المال لايكون- حتى الآن- رأسمالاً، بالمعنى الدقيق للمصطلح، مالم يدخل في دورة ابتزازية لإعادة إنتاج ذاته ربوياً.. فإن أطروحتنا هذه حول أثر النظام القيمي الآسيوي وتجسداته البنيوية المجتمعية والسلوكية في ضبط ابتزازية الرساميل الآسيوية تظل موضع جدال ومثار

وإذا كان تاريخ ترسمل اليابان لا يمتد لأكثر من قرن واحد، فإن تاريخ اشتراكية الصين الخاصة بها يمتد نحواً من نصف قرن فقط، أما الدول الأخرى فقد عرفت الاستعمار الأوربي- كما قد عرفته الصين- وخبرت جرائمه وبشاعاته، مثلما علنت من مستجراته قبل أن يترسمل بعضها (الدول الغنية المسماة بالنمور الآسيويّة) اعتماداً على أنها سوق رخيصة لليد العاملة، مربحة للشركات الكوسموبوليتانية/ فوق القومية. وقد ساهم الرأسمال اليابانيّ بقوة في ذلك، لأسباب تتعلق بخلق (امتدادات قارية ضامنة)، ضد الهيمنة الأميريكية من جهة، وضد "خطر" شيوعية الصين من جهة أخرى!

ولايشير التاريخ العام " للعالم الصيني" إلى وجود صراعات متأصلة يمكن معها القول إن ثمة "مستحقات خطرة مؤجلة" لحركة التاريخ قد يتوجب دفعها بأي صورة من الصور الشبيهة لمثيلاتها في أوربا، وإنما هناك صراعات رأسمالية يابانية/ قارية قبل الحرب العالمية الثانية، وصراعات من فترة الحرب الباردة: رأسمالية/ شيوعية، وشيوعية/ شيوعية.. وإذا لم يكن قد تم تجاوز كثير من مستجراتها فإن الروحية الخاصة بهذا المركز والمنبثقة من ثقافة واحدة- على تنوع اتجاهات انساقها- كفيل بأن يحقق ذلك دون إخلال بنيوي مبهظ، خصوصاً وأن الأوضاع العالمية المستجدة تنشئ لجميع شعوب هذا المركز احتياجات تضامن أعلى من أجل البقاء الناجع. وهذا التضامن ليس جوهره القيميّ ذرائعية التكالب على امتلاك الثروة كما في "الوحدة الأوربية"، بل هو جوهر قيميّ يقع على الطرف النقيض لذلك تماماً حسبما سبقت الإشارة(*) قبلاً .. وسوف نعود لاحقاً إلى هذه المسألة.

إن العالم الصيني ينقسم من الوجهة الاقتصادية إلى ثلاثة أقسام متمايزة:

-اليابان، ومجموعة النمور الآسيوية المترسملة وهي سبعة : أبرزها(كوريا الجنوبية، وسنغافورة، وتايلاند وماليزيا، وهونغ كونغ..) ويصل الفائض الرأسمالي في أغلب هذه"النمور" إلى نحو من مائة مليار دولار.

-الصين الشيوعية التي أخذت تتبنى مؤخراً نظام اقتصاد السوق متلافية بذلك حدوث "صدمة خطرة" فيها تؤدي إلى تفكك قومي أو تحلل بنيوي.

-مجموعة الدول الصغيرة الفقيرة المنتمية إلى عالم الجنوب.

اختلاف. والأمر تحسمة طبيعة الصراعات الكبرى القادمة بين ثقافة النهب وثقافة احترام إنسانية الإنسان / انظر ملاحظتنا التالية .

* (*) في معلومة مباشرة، لايحدثك الياباني المنتمي إلى النخبة المثقفة ذات التأثير البالغ في الحياة العامة، عن ثراء اليابان ومستقبلها بقدر مايتحدث عن ضرورة تعميق " القوة الثقافية اليابانية" المرتكزة على موروث اليابان الروحي- ومعلومتنا هذه منقولة عن الزميل الأديب وفيق خنسة الذي عاش أربع سنوات في طوكيو مدرساً للأدب العربي الحديث هناك. وعلى أي حال فهذه المعلومة مؤكدة أكثر من مرة في كتابات توفلر، وبأساليب مختلفة.

وخلال"نظرنا" في أوضاع هذا المركز سوف نصب جهدنا على اليابان والصين مهملين الدول الفقيرة المنتمية إلى عالم الجنوب من جهة، وصارفين النظر عن "النمور" التي سنجازف بالقول: إنها تصير، بتواتر سريع، نوعاً من الاستطالات القارية الصناعية لليابان، بقدر ما تبدو مرغمة على محاباة الصين.. وربما على الدوران في فلكها قريباً!

فلنبدأ إذاً من اليابان.

قلنا إن تاريخ الترسمل الياباني لا يمتد إلى أكثر من قرن واحد.. وعليه، فهو عاجز بالتالي عن أن ينسف أسس الروحية اليابانية الخاصة المرتبطة تاريخياً- [وبقوة]- مع ثقافة (العالم الصيني) ارتباطاً راسخاً. وبالتالي، فهو مضطر للتكيف أو لتكييف السمات العامة لرأس المال مع خصائص تلك الروحية السائدة في مجموع البنى التحتية الحاملة له. وإذا كان قد أخضع تلك الروحية بالقوة، قبل الحرب العالمية الثانية، لقيم الرأسمال عموماً فإن ذلك قد كان في ذروة هيمنة أوربا ونشاطها.. أما الآن- وبعد دروس صعبة منذ تلك الحرب- فهو مضطر لانتهاج ذلك التكييف الذاتي مع روحية بناه التحتية، خصوصاً وأن الخلل البنيوي العالمي لعصر الحضارة الرأسمالي قد بدأ ينشب بقوة، نتيجة فساد تلك القيم الذرائعية الوحشية والعلاقات المنبنية عليها، نشوباً له طابع الكارثة الحيوية الكلية المحتملة.

وإذا كان أبرز ما في تاريخ الترسمل الياباني وما حققه من تقدم تقني، فتقدم تكنوالكتروني، هو اعتماده على نظام الطاعة التقليدي، وعلى استيراد "المعرفة" أولاً من أميريكا، فإنه أيضاً يقوم على قاعدة عميقة من القلق!

فاليابان لا تملك موارد منجمية خاصة مهمة مثلما لا تملك الموارد الطاقية اللازمة.. وأكثر من ذلك، هي لاتملك زراعياً ما يوفرلها الحد المقبول من"الأمن الغذائي" الذاتي. ناهيك عن أن اليابانيين يعرفون جيداً أنه كان دائماً في رأس قائمة الخطط المحتملة، الموضوعة كخيارات استراتيجية نهائية لأميريكا، المجازفة باحتلال اليابان عسكرياً إذا ما اقتضت "الضرورة الأميريكية" ذلك!

وكمانعلم، فالأميريكيون متعودون على "تهذيب!" اليابانيين ذرّياً!.. غير أن الأمر- في تقديري على الأقل- صار مختلفاً جداً بالنسبة للأميريكين، ربما بسبب الجوار الياباني/ الصيني- على خلاف مابين الطرفين- حيث تمتلك الصين قوة عسكرة متنامية تشكل رادعاً مقبولاً للإخلال بالأمن الإقليمي، وبمجموع توازناته، لصالح أميريكا..وربما أيضاً بسبب نمط التقدم والفعالية اليابانيين اللذين يبدو أن حسابهما قبلاً قد جرى بدقة مقبولة.

ويزعم توفلر في نهايات كتابه(تحول السلطة) أن : اليابان لم تمتلك حتى عام 1990إلا واحداً من عناصر السلطة الثلاثة التي هي في نظره: (الامكانات العسكرية، والثروة، والمعرفة).

فهي لا تمتلك إلا المال ثم المال!..ولذلك فهي تحاول أن تعيد توازن سلطتها وتتجه إلى اكتفاء عسكري ذاتي ملائم، حيث صارت ميزانيتها العسكرية تحتل المرتبة الثانية في العالم بعد الولايات المتحدة، وبعد انحلال الاتحاد السوفييتي السابق، بينما يكبح"مجمّعها الصناعي الحربي" رغبته الشديدة بإنتاج ترسانة رادعة قوية مع قدرته على إنجاز ذلك بسرعة.

ولعل هذا التوجه، إضافة إلى التأزم الأميريكي المعروف جيداً لليابان، هو أفضل مايفسرلنا"التعنت الياباني!" في مواجهة المطالب التجارية وغير التجارية الأميريكية.. مثلما يجب تفسير مجمل "الموقف الآسيوي" من تلك المطالب بتوجهات اقليمية جديدة هناك نحو تعاون متبادل أوسع قد يتحول سريعاً إلى تكتل ضخم على غرار "الوحدة الأوربية"، خصوصاً وأن الوضع المأزوم في أميريكا يلزمها بمزيد من التراخي الفعلي.. إضافة إلى الحجوم الهائلة للرساميل اليابانية المستثمرة في القارة، مع التغيير الصيني الواسع والناجع باتجاه اقتصاد السوق، حيث يتم ذلك كله في الإطار العالمي من المشكلات والصراعات التي سبق توصيفها.

وقد سبق القول أيضاً أن اليابان عملت على نقل اقتصادياتها- دون صدمات أوهام-نحو التكييف السريع لوسائل انتاجها مع مقتضيات الثورة التكنوالكترونية منذ مستهل السبعينات. وإذا كانت ولاتزال تستورد " المعرفة" أو بعضاً من أهم "مفرداتها" فإنها الآن تنافس أميريكا في مجالات البرمجة المعلوماتية الذكية الراهنة- والخارقة الذكاء مستقبلاً- وربما تسبقها في بعض الجوانب المتعلقة بتحسين تلك النظم وتسريع تطورها.

ولأن اليابان تكيفت بسرعة مع هذا المستوى التقنيّ الجديد،فإنها قد تجاوزت بالسرعة ذاتها حدود معطيات "خطوط الإنتاج الطويلة" في المصنع التكنولوجي الضخم القديم، واعتمدت دورة "خطوط الإنتاج القصيرة" ذات المردود الأكثر ملاءمة لمتطلبات أسواق الاستهلاك.. الأمر الذي وفر لها إمكانية اكتساح الأسواق الأميريكية حتى في داخل أميريكا، بل إن الرساميل اليابانية تمكنت من تملك أعداد من أهم الشركات الأميريكية تملكاً كاملاً أو جزئياً في ميادين مختلفة.

ويمكن أن نعتبر هذا الاكتساح- إضافة إلى الاستثمارات الهائلة في القارة- شكلاً من أشكال الضمان ضد الاحتمالات الخطيرة، ربما كان مبرمجاً له بحصافة أن يكون كذلك.. مادام اليابانيون لديهم من أسباب القلق الجوهرية ما سبق أن ذكرناه، ونظراً لأنهم حتى بداية التسعينات مجردين من الآلة العسكرية المتناسبة مع نموهم الاقتصادي الضخم المعروف. غير أن اليابانيين يعرفون جيداً مقولة أن (الرأسمال لا وطن له)، وفي الوقت ذاته لايجهلون طبيعة المفارقة الحادة بين التوجه الوطني الطبيعي للناس، منتجي الثروات، وبين كوسموبوليتانية الكونسرسيومات فوق القومية مثلما يدركون بقوة معنى وثقل الانتماء إلى "المجموع الثقافي الواحد" في

القـارة، بل نجـازف بـالقول إنهم يحتـاجون احتياجـاً بالغـاً إلى توطيد وتفعيل ذلك الانتمـاء في الشـروط الراهنـة..إن لم يكن منذ هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية.

وقد تكون النقطة الأخيرة هي أحد أهم الأسباب الدافعة، ما وراء الاقتصادية، لخلق"محيط حيوي صناعي" مرتبط بهم داخل القارة: هي تلك "النمور" التي صارت التوقعات الجـادة توصـلها إلى "دزينة كاملة" مع نهاية هذا القرن. وإذا كانت أميريكـا- في البداية- غير بعيدة عن صناعة هذه النمـور أصـلاً فـإن تطـورات أوضاعها تكـاد تحصر موجوديتها هنـاك في تواجد عسـكري لعل أبرزه: تواجدها في كوريا الجنوبية.

على أن هزيمتها المشـهورة في فييتنـام قد شـكلت صـدعاً عميقـاً في طبيعة هـذه الموجودية وفعاليتهـا، وفي مردوديتها الاقتصادية بالنتيجة.. وهـذا ما يجب أن يؤخذ بكامل الاعتبـار في الواقع![*].

ولايوازي الترابط بين اليابان وامتـداداتها القارية ماكـان من ترابط بين أوربا واسـتطالاتها: الأميريكية وغـير الأميريكية في شيء. فالنمور الآسـيوية ليست "مسـتوطنات" ذات مجتمعـات هجينة، لاتجمع بين مكوّناتها غـير روابط المنـافع الماديـة!لا.. إن الوضع هنا مختلف كلياً، وبصورة جذرية!

إن التـاريخ الثقـافي المتكامل لمجمـوع "العـالم الصـيني" والقـرب الجغـرافي الـذي يهـيئ لاسـتمرار التفاعل الحي بين خصوصـيات الأنسـاق داخل ذلك المجمـوع، هما عـاملان عميقا التأثير باتجـاه أن يأخذ هـذا المركز المتجـانس سـمة: المجمـوع المتكامل اقتصادياً. أما "نظـام الطاعـة" المتـوارث فهو يشـكل المحـور الجـامع والمولد لميكانيزمـات النشـاط الكلي في هـذا المركز الآسيوي الفسيح، مثلما يساعد بقوة على رسم وبرمجة حدوده وآفاق تطوراته وتجليات فعاليته.

ولأن هذا المجمـوع-باسـتثناء الصـين- مـازال لايمتلـك"الآلة العسكرية" الحامية الرادعة امتلاكاً فعلياً في شـروط منافسـة صراعية عالمية، مستعرة وضارية في الأعمـاق، فـإن كل مـاهو متعلق بواقع الحـــال في ذلك المركز الآســيوي المليء يجعلنا نفكر مباشرة في "مرجعه التاريخي الأم": الصين.

لقد أشرنا إلى أن الصـين الشـيوعية- والمعـترف بها كدولة عظمى- تقوم الآن بحركة تحـول محسـوبة جيـداً، على مايبـدو، نحو اقتصاد السوق.

وجغرافيــاً تشـغل الصــين مســاحة تزيد عن قــارة أوربا مجتمعة. أما بشـرياً فهي تضم نحـواً من مليـار ومـائتي مليـون نسمة أي أكثر بقليل من خمس سكان العالم. وإذا كان هـذا قد

---

* (*) من المفيد أن نشير هنا إلى أن نهج اليهودي الثعلب (كيسنجير) الذي هدف إلى أن تـرمي أميريكا بثقلها كـاملاً في منطقتنا لصـالح الدولة الاسـتيطانية الصهيونية كـان أحد الأسـباب المباشـرة في "إعلان" الهزيمة الأميريكية الـتي كانت متحصلة بالفعل!

شكل لها مصدر قلق معاشي قبلاً، فإنه مع التحول نحو اقتصاد السوق يشكل مورداً هائلاً للقوة العاملة.. وليس أدل على صحة ذلك من أن وتائر النمو الاقتصادي في الصين تستقر منذ عدة سنوات- أي منذ التحول نحو نمط اقتصاد السوق- على حد 13إلى 14%. وقومياً لايشبه المشهد الصيني ذلك المشهد الفسيفسائي الذي رأيناه في أوربا أو أميريكا. إن المجموع القومي في الصين يتألف من عدد محدود نسبياً من القوميات.. وعموماً هو مجموع قوي التجانس ثقافياً وروحياً. وفيما كانت القوى الرأسمالية العالمية تأمل في انهيار صيني كارثي على الطريقة السوفييتية، فإن الصين قد خيبت تلك الآمال بوتائر النمو العالية المتحققة المشار إليها قبلاً، لدرجة أنها قد أثارت إرتباكاً مزعجاً مقلقاً لكل من أمريكا وأوروبا على حد سواء(*) أما قوتها العسكرية فقد تكون في المرتبة الثالثة أو الرابعة عالمياً لكنها ربما كانت تتجهز للتحول سريعاً إلى قوة ثانية أو حتى موازية للقوة العالمية الأولى خلال ربع القرن القادم.. فكل شيء لا يزال يدور خلف (أسوار الصين) بسرية وتكتم لا يمكن تجاهل دور (نظام الطاعة) فيهما.

وفي إطار الأوضاع العالمية الراهنة فإن الصين- وهي شبه القارة المليئة، من سائر الوجوه- ربما كانت مرشحة لتعود (مركز استقطاب) لعالمها القديم بالشراكة مع اليابان.. وذلك استناداً إلى وحدة التاريخ الثقافي العام في آسيا الشرقية، واستناداً إلى حاجة اليابان القلقة أصلاً- والتي تفاقم المستجدات العالمية من قلقها- إلى مثل هذه الشراكة في الاستقطاب، حماية لمصالحها ولمصالح الجميع في هذا المركز الواسع ذي الثقل الذي لم يعد عادياً! ولعل أولى مقدمات هذا الاستقطاب -وهو قد يكون مازال بعيداً قليلاً بالطبع- قد ظهرت في طريقة التعامل الآسيوية التي بدت موحدة حيال أمريكا في مؤتمر التعاون بين دول "عبر المحيط الهادي"- وإذ تحقق فعلياً هذا (الاستقطاب المتشارك) بين الطرفين الآسيويين العملاقين وتوابعهما حيث ستجتمع بسرعة عناصر القوة الثلاثة: المال، والقوة العسكرية، والمعرفة- إضافة إلى الثقل الحضاري التاريخي الراسخ- فإن السؤال الذي سيطرح نفسه بقوة هنا، على أوروبا من جهة.. وعلى أمريكا خصوصاً من جهة أخرى.. هو: أية تغييرات زلزالية الطابع ستشهدها معادلات التوازن الهشة في العلاقات الدولية الراهنة سواء منها ماهو مستمر أو مليعاد ترتيبه؟!

بالطبع، لسنا قادرين على إجابة لسؤال بهذا الحجم.. خصوصاً وأنه يتناول موضوعاً مطروحاً كاحتمال مستقبلي، رغم أن عناصر الاستقطاب المذكور قبلاً تتوفر بمزيد من

(*) لحظة الانتهاء من إنجاز هذا الكتاب (شباط 1995) تشغل الخلافات بين الصين وأمريكا سائر الإذاعات العالمية ويعلن يومياً عن التهديدات الأمريكية بحرب تجارية على الصين- كما على اليابان!!- مع ردود صينية واثقة ولاذعة على الادعاءات والاتهامات الأمريكية حول موضوع تجاوز الصين لحقوق الملكية الأدبية والعلمية والفنية في عدد من الميادين التقنية.

التواتر يوماً وراء يوم. غير أن ثمة ملاحظات نرى أنه لابد من الإلماح إليها هنا، مع أخذها بكامل الاعتبار، في مايخص مانحن بصدده في هذا الكتاب.

- الملاحظة الأولى: هي أن لسائر القوى الآسيوية النشطة- والآن!- مصالح حيوية في منطقتنا العربية، والشرق أوسطية: سواء كسوق أوكمصدر للطاقة.. أو حتى كميدان رئيسي بالنسبة للصراعات المحتملة مع القوى الكبرى الأخرى.

- الملاحظة الثانية: هي أنه رغم مانعرفه من سمات تقليدية مشتركة لحركة سائر الرساميل العالمية، فإن الرساميل الآسيوية لا تستند- في جوهر خصوصية عوامل إنتاجها قومياً- على منظومة القيم البراغماتية الغربية المتوارثة في أساس البنيان الثقافي التاريخي العام للغرب واستطالاته الاستيطانية. فلا البوذية ولا الكونفوشية ولا الطاوية -ومجموعها هو كما قلنا مجموع البنيان التاريخي الثقافي والروحي لآسيا الشرقية- تحمل في ذاتها، أو يمكن أن يعاد تحميلها الآن بمثل ذلك "الزخم القيمي" المشوه للبراغماتية الغربية، بما كان ومايمكن أن يكون له من مستجرات فظيعة على سائر البشرية.

ولايعني هذا-طبعاً- أن حركة الرساميل الآسيوية خالصة مخلّصة من اعتبارات المصالح وراءها، لكننا نريد القول: إن فرق النظام القيمي العام ومستجراته في حركة رساميل مقودة ومنتجة ومسيّرة بأسس الروحية الآسيوية قد يكون فرقاً شاسعاً بالقياس إلى نظيره الغربي/ الشايلوكي كما عرفه العالم خلال القرون الخمسة الماضية.

-الملاحظة الثالثة: هي أن عالم آسيا الشرقية (نظيف) تقريباً من الوجود اليهودي ونذكرّ هنا أن كلمة "نظيف" هذه هي من مبتكرات العقلية البيوريتانية الأنغليكانية، وليست لنا!- ومن الميول الشايلوكية الضارية.

واستناداً إلى ما أوردناه في الملاحظة الثانية، فإننا نعرف أن العلاقات الآسيوية الشرقية بقضايا الصراع العربي الصهيوني كانت دائماً علاقات موضوعية رغم الضغوط القوية للذراع الرأسمالي الشايلوكي. وفي الظروف المحتملة مستقبلاً ربما صارت أكثر اتصافاً بمزيد من الموضوعية.(*)

وفي كل الأحوال فإن الترتيبات المستعجلة التي تلح أميركا، بالتحالف مع الذراع الأخطبوطي الصهيوني على "إنجازها" بسرعة في المنطقة هي ترتيبات تضر بمصالح آسيا الشرقية استراتيجياً.. إذ إنها لاتهدف إلا إلى تطويع تلك

(*) مؤخراً كثرت هرولة سياسيّي الدولة الاستيطانية الصهيونية إلى دول آسيا الشرقية، وإلى اليابان والصين على وجه الخصوص. ورغم بعض المكاسب المعنوية أو الإجرائية الدبلوماسية التي تحققت لهم هناك، فإننا نرى أن فرضيتنا هنا تظل محافظة على قيمتها كلياً، في المدى المنظور على الأقل.

المصالح -مثلها مثل غيرها من مصالح القـوى الكـبرى الأخـرى- للهيمنة المشـتركة الـتي يتقاسـمها الـذراعان المـذكوران، "كل على قدّه!" في منطقتنا الهامة.. المستهدفة والمنكوبة!

على أن ثمة تساؤلاً مهماً يجب أن يطـرح نفسه بخصـوص العلاقة بين المركـــزين: الأمـــيريكي والأوروبي، وبين مركز الشرق الآسيوي، هو:

هل يمكن لأميريكا وأوروبا-المتحالفتين حتى الآن،ولو تحالفاً شديد التراخي إلى درجة يكاد يكون معها مجرد تحالف شـكلي- أن تقوما معـاً، أو أن تقـوم أميريكا وحـدها، بمغـامرة غـير محسـوبة في ذلك المركز قد تجر إلى حـرب كـبرى، وربما إلى كارثة نووية؟!(*)

لاشـيء مسـتبعدٌ بالنسـبة للعقل البراغمـاتي والسـلوكات الوحشية المترتبة عليه! ونظراً لوجود أعداد من الثغرات الهامة التي لم يجر ردمها بعد، ولاشتداد التأزمات الداخلية الأميريكيـة، والأوربية أيضاً، فإن كل شيء متوقع من "الروحية الشايلوكية"، وأرضـيتها الثقافية العرقيـة، مهما بـدت تلك المغـامرة بعيـدة الاحتمـال في مـاهو منظـور من آفـاق التغـيرات العالمية حـتى الآن!.

-4-

هذه هي الخطوط الكبرى، بشكل إجمالي تقريبي لـ"صـورة أوضاع العالم" التي يطرح فيها السيد بـيريس "رؤاه!"وخططه المسـتقبلية الصـهيونية " للشـرق الأوسط الجديـد" في سـياق الأطروحة الأميركية عن (نظـام عـالمي جديـد)!! إنها صـورة التـوتر والقلق العميقين اللـذين أخـذا يسـودان العـالم منذ الثمانينيات على الأقل، واللذين نجما عن ابتـداء سـريان التحلل البنيوي الجذري في أهم شريانات النمط الحضاري الرأسـمالي، بعد كل ماستجره من كوارث على البشرية خلال خمسة قرون كاملة من نشأته ونموه وتحولاته الذاتية.

إن هـذا النظـام العـالمي الجديـد، الـذي يجعجع به حكـامٌ، وإعلامٌ لايـــــزال متكامل الأداء في خداعه وتضـــــليله لجملة الشعوب الـتي تكـوّن "الكل البشـري" إجمـالاً، هو إذاً في نظر مطلقيه: مجرد يافطة خداعة لاستغلال الخلخلة العميقة الناشبة في توزانـات العلاقـات-حيث دفع بها انهيـار الاتحـاد السـوفييتي إلى أقصى مـدى من الطفـوّ المفـزع على السـطح المنظـور للجميع- بغية إعادة ترتيب أسس الهيمنة الأميريكية على العـالم بشراكة صهيونية متناسبة مع حجم ذراعها الرأسمالي، وقبل أن تتمكن بقية القـوى الكـبرى من"إعلان خروجهـا!" على تلك الهيمنة، وبالتالي فرض المعادلات التي يمكن أن تخدم مصالحها مما يمكن أن يزيد من استعصـاء التـأزم النـبيوي في الوضع الأمريكي نفسه.

---

* (*) لعله يمكن تفسير انهيار بعض النمور الأسيوية- وقت تصحيح برفات هذا الكتاب - بأن المغامرة المذكورة أخذت شكل حرب اقتصادية صريحة من قبل الحلف الأمريكي الصهيوني. وقد لايكون هذا إلا مقدمة لما هو أشد ضراوة .

أما ترتيب أوضاع منطقة "الشرق الأوسط" فهو- في رأينا- المفتاح العام والجوهري لأفق أحلام الترتيب الأميريكي برمته. وبناء على ذلك، فليس لأحد أن يتوقع أن أية تنمية في المنطقة ستكون تنمية لخدمة شعوبها فعلاً (*) ... فأية عمليات اقتصادية ستقوم فيها على أساس هذه الترتيبات سيكون محتماً منها أن تستجر مزيداً من الهيمنة الأميريكية/ الصهيونية الرأسمالية المشتركة، وأن تخدم بالتالي سعي أميريكا عالمياً لتفكيك أزماتها البنيوية وتصديرها... وفي إطار ذلك تأتي خدمة "الحلم الصهيوني" بإقامة "أمبراطورية" لرأس المال الشايلوكي اليهودي، حيث تكون حصة هذا الأخير من استنزاف موارد المنطقة متناسبة مع حدود مقدرته على أداء مهماته التحالفية لصالح الأغراض الاستراتيجية للأوليغارشية الأميركية التي يزداد تصهينها باضطراد.. أما المنطقة وشعوبها، وحتى رجال أعمالها ومن سيشرف على إدارة شؤون الترتيبات الأميريكية الجديدة في الإطار المذكور، فلكل هؤلاء حصة تبقي على وجودهم البيولوجي المحض كي يقوموا بما يتوجب عليهم من "خدمة" لنجاح تلك الترتيبات!.. أي "فتات المائدة" كما يقال، لاأكثر!!

وما دام الأمر كذلك في جوهره فإن قيمة "رؤى" السيد بيريس وتنظيراته وتخطيطاته لن تتضح مالم نكمل صياغة ماعرضناه من سمات الصورة العامة لأوضاع العالم بنبذة سريعة عن أوضاعنا نحن العرب، تاركين مناقشة تفصيلات جوهرية كثيرة عن هذه الأوضاع، وأوضاع تصنيع (الدولة الأصولية) الأولى في التاريخ المعاصر-الدولة/ الغيتو للذراع الرأسمالي الصهيوني- إلى الفصول الخاصة بمناقشة تلك الرؤى والخطط البيريسية بكل مافيها من مغالطات، وما تحمله من تطلعات وما تكنه من أبعاد.. إلى غير ذلك مما يبشرنا به من (سعادة مشتركة!) هذا الصقر الصهيوني العتيق الذي تحول بسرعة إلى حمامة، بطريقة أقل مايقال فيها: إنها تثير الريبة.

-5-

إذا أخذنا بقولة توفلر: إن العناصر التي تصنع هيبة أمة ما- وصدقنا بالطبع أن اليهود أمة وليسوا مجرد أتباع دين، كانوا ومازالت أكثريتهم تنتمي إلى جنسيات قومية كثيرة!- هي ثلاثة: القوة العسكرية، والمال، والمعرفة... التي يعني بها توفلر مجرد المعرفة المادية التكنولوجية، فسنجد أن (الدولة الأصولية الصهيونية) تمتلك -باستنادها إلى الذراع الرأسمالي الصهيوني العالمي- هذه المقومات الثلاثة. أما العرب، الذين يصفهم بنرمان في تقريره الشهير بأنهم"أكبر مجموعة موحدة اللغة والاعتقادات والثقافة والعادات والتقاليد... في حوض المتوسط كله" فإنهم الآن لايمتلكون شيئاً من تلك المقومات الثلاثة

(*) نكتب هذا الكلام في اليوم الثاني لأعمال مؤتمر الدار البيضاء الخاص "بتنمية" الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا والذي حضره مسؤولون ورجال أعمال من ستين دولة بينها أكثرية الدول العربية، وفي رأس قائمة الحاضرين وارن كريستوفر وزير خارجية أميريكا ونصف المسؤولين في "حكومة رابين" برئاسة شخصياً!.

التوفلرية، ولذلك فإن مستقبل علاقات "تعاونهم!" مع الدولة الأصولية الصهيونية: (اسرائيل، ولنلاحظ بهذه المناسبة عمق المعنى الأصولي لهذه التسمية!) هو مستقبل لايملك شيئاً من عناصر التوازن التي يجب أن تضبط علاقات " التعاون".. وهذا ماسيحول -ذاتياً- تلك الشراكة الاقتصادية المدعاة إلى ابتزاز مشروع، لأنه مغطى بما يجب من "نصوص الاتفاقيات" المشهود عليها امبريالياً..وهذه هي "أول قطرة" من الغيث القادم!!

وفي المشهد الظاهري يبدو الوطن العربي برمته على أقصى درجة من التفكك العلائقي المتبادل، باستثناء المجاملات الرخيصة التي جمعت حكامه- تحت إلحاح الضغوط الأميريكية- كي يقولوا"نعم " للترتيبات الأميريكية/ الصهيونية، و"ينفتحوا" باستعجال قوي على (عدوّ البارحة)... إلا من رحم ربك![*].

طبعاً، في السياسة يفرض الأمر الواقع عالمياً نفسه بقوة على "المحلي" .. لكن هذا المحلي يجب عليه أن يلعب أوراقه كاملة كي يظفر ببعض من حقوقه ومن"ضمانات" المستقبل الذي يخبئ مالانعرف من احتمالات. لكن أكثرية حكام العرب لم تفعل شيئاً من ذلك ولم تراهن على أية "ورقة" عربية قد تكون مربحة نسبياً في سياق الترتيبات المفروضة بالقوة.. فهذه "الأكثرية المستعجلة" لاتريد أن ترى من كل مايجري غير مسألة بقائها على كراسي تسلطنها وحسب!

وليس سراً، بالطبع، أن الوطن العربي قد تلقى خلال هذا القرن والقرن السابق أقسى الضغوطات الابتزازية العالمية من قبل الرأسماليين، الأمر الذي حول كل مشروع تحديثي تقدمي، وكل مشروع قومي، إلى نوع من (الصرخة في برية!)..

ونتيجة لذلك كله فإن أبرز ما تمّ هو جملة من الهزائم المتوالية غير المعلنة، والمكابرة عليها-كرد فعل سيكولوجي تعويضي- بالتغني بأوهام أمجاد ماضوية ميتة، أو بشعارات مستقبلية دُفع ثمنها الكثير من الدم والآلام لأنها- رغم صدق النية وراءها- كانت مستحيلة التحقق تحت وطأة الابتزاز المنصبّ على هذا الوطن الغني بارثة الحضاري، كما بموارده المطلوبة امبريالياً، بكل الثقل البراغماتي للوسائل المستخدمة في ذلك!

وإذا كانت جملة من الصراعات المحلية الداخلية المحدودة في الوطن العربي قد جرى استخدامها وبرمجتها للإمعان في تمزيق هذا الوطن - حيث لن ننسى، ولايجب أن ننسى، تلك النظرة الأوربية التي تعتبر العرب وامتداداتهم الإسلامية"نموذجاً شرانياً للخلق"-فإن الاستقلالات العربية: من"أم القوين" حتى المملكة المغربية وموريتانيا، كلها كانت

---

* (*) مؤخراً تمكنت السياسة السورية ببراعة، وبعد لقاءات متعددة المستويات مع مصر، من لجم اندفاع المندفعين من بقية حكام العرب إلى الارتماء المخزي في الأحضان الصهيونية.. حتى إن سياسة (سلام الصفقات المنفردة!) قد باتت وقت كتابة هذه الملاحظة كأنما صارت محكومة بالفشل الكامل، مع تعرية تامة للمتهافتين على تلك الصفقات ومستجراتها!

استسقلالات"ملغمة" أو مفبركة وفق ماينسجم مع تطور نمط الابتزاز في مرحلة الهيمنة الأميريكية بعد الحرب العالمية الثانيةّ.. وأياً كانت اتجاهات "الحاكم العربي" أو نواياه- جيدة أوردية، حسنة أو سيئة- فإن "ورطته" تكمن في عجزه، وعجز أدواته وما يملكه من "عناصر قوة"، عن أن يستطيع دفع الابتزاز الامبريالي العالمي أو مدافعته ومقاومته بصورة ناجعة، وفي الوقت ذاته فإنه ما من بشري على الأرض يعتلي "كرسيَّ حكم" ثم يرغب أن يغادرها باختياره!

طبعاً، هذا التشخيص للواقع العربي لايريد أن يتهم أحداً في ذاته، بل يريد أن يوصّف "آليات الحركة العامة" في الأقطار العربية، فيما هي- شعوباً وحكاماً- تعاني من ضغط ومصادرات وابتزازات النظام الامبريالي العالمي، وما يستجره بالقوة من "تشوهات" بنيوية وعلائقية لامفر من معاناتها لأنها من مستجرات حركة التاريخ العام، عالمياً ومحلياً ذاتياً.

وما نريد أن نخلص إليه هو أن جملة التفاعلات غير المتكافئة بين المحلي/ الذاتي وبين العالمي/ الموضوعي قد قادت إلى نوع من القطيعة بين الحاكم وهرمه الإداري من جهة، وبين المجتمع الذي يخضع لإدارته من جهة أخرى.

فالسياسي ملزم بأن "يلعب أوراقه" عالمياً ومحلياً وفق متطلبات الأمر الواقع- والمفروض هنا بقوة الفعل الرأسمالي الابتزازي النهاب والتدميري- بينما شرائح المجتمع تعترف فقط بضرورة إسقاط رغباتها على حركة التاريخ!.. وفي وقت يتعمم فيه انعكاس بدايات التحلل البنيوي للنمط الحضاري للعصر على سائر أنحاء العالم- الثالث أو النامي منه خصوصاً- فيتعمم اليأس والخراب في الحلقات الأكثر ضعفاً، ويضطر الناس بالتالي- حاكمين ومحكومين- إلى انتهاج السلوك البراغماتي كضامن للبقاء ذي أساس تعويضي سيكولوجي... فإن طبيعة عمل الدولة- وهذا القول مأخوذ من آخر مايقوله د.طيب تيزيني- تتحول من الحفاظ على "أمن الدولة" إلى إنشاء"دولة الأمن"، حيث الشرائح الوسطى، التي هي-باعتبار تيزيني ذاته- حامل ثقافي لمجموع عملية التطور الاجتماعي، تنحدر إلى ماتحت خط الفقر فتعجز عن أداء دورها الثقافي ذي الاتجاه المعلمن، مثلما تعجز عن التلاؤم مع أوضاعها المستجدة- هي التي كانت تنظر بطموح إلى الأعلى!- وعند ذلك، وفي إطار سقوط سائر المشروعات التحديثية، تجد(الأصولية المشوهة) مرتعاً خصباً لتحركها.. لكن هذه- والكلام حتى الآن على ذمة تحليلات الدكتور تيزيني- ممنوعة عالمياً من الوصول إلى السلطة كي لاتنكشف حقائقها، وكي تظل "بعبعاً" لابتزاز الحكومات وشعوبها المحكومة من قبل رأسماليي العالم الذين هم أصحاب المصلحة الحقيقية في تمديد مثل هذا "الواقع" إلى أطول أمد ممكن!!

وسواء صح هذا التحليل للدكتور تيزيني أم لا، وسواء كانت صحته إلى هذه الدرجة أو تلك، فإن مايهمنا هنا هو أن الوطن العربي يمر الآن في أقسى مرحلة من تفكك علاقاته الذاتية

وضعفه عن المبادرة، ومصادرة حق "مخلوقاته" في أن تقول رأيها كاملاً في مايخص مستقبلها، ناهيك عن أن تبادر إلى فعل شيء بهذا الخصوص!

ومرة أخرى- ولأننا معنيّون بالتاريخي والإجمالي الاستراتيجي العالمي في ثقل وطأته على الذاتي/ المحلي العاجز أصلاً، والخارج من تشوهه انحطاطي، فاستعماري مباشر، إلى فضاء هيمنة غير مباشرة- فإننا نحيل الأسباب الجوهرية لأوضاع الوطن العربي إلى المصادرات الكلية للنمط الرأسمالي العالمي ومستجراته لكل محاولة تقدم تحديثي عربي في أي مستوى كان، وبالتالي : لتحويل الموجودية العربية إلى سلسلة من الهزائم المتواصلة.

في هذا الجو المنهار عربياً، والمأزوم عالمياً، تتم الترتيبات الأميريكية/ الصهيونية المشتركة لأوضاع المنطقة!...

لكن حدود الرهانات ضيقة جداً بسبب من هذا الجو ذاته، إذ إنه يحمل في صلبه حتمية دفع مستحقات التاريخ المؤجلة، سواء شاءت الأطراف المستفيدة ذلك أم أبته ورفضته، فحركة التاريخ لاتقيدها الأوامر كما قلنا ولاتلجمها الرغبات!..

وإذا كان السيد توفلر لايحفل، في تحليلاته، لابالميراث التاريخي أو ثقله في حضارة أمة من الأمم عند تقويمه لعناصر"هيبتها"، ولايحفل بالكمّ البشري ونوعية تطلعاته وقدراته غير المجسدة في عملة أو تكنولوجيا أو معرفة تقنية.. مثلما لايحفل بالنظم القيمية المعيارية وصلاحيتها لنجوع البقاء أم لا، تماما كما لايعير أي اهتمام حتى لنظرية توينبي في "التحدي والاستجابة" على المستوى الحضاري الاجمالي.. فإننا من جهتنا نرى أن مراهنتنا العربية المستقبلية-داخل الترتيبات الأميريكية للمنطقة، أو حتى خارجها- هي بالضبط على تلك العناصرالتي يغفلها توفلر، قبل أي شيء آخر!.

❐❐❐

ÇáÝÕá ÇáËÇäí

-ãÞÇØÚ ãä "åÏíá" ÇáÐÆÇÈ -

-1-

السلام؟!..

حسناً. فلنقل : مبدئياً، نعم. ولكن، بالمقابل: كيـف؟! ومـتى ؟! ولمن؟! ولأية غاية أو وظيفة في سياق زمنه واشتراطاته؟!!

إذا كـان فصـلنا السـابق يـدل على شـيء ذي أهميـة- عـدا الاضطراب العميق والخلل الشـديد في بنيـان النمط الحضـاري الرأسمالي السـائد، ومعـادلات التـوازن الراهنة فيـه- فإنه يـدل أساسـاً على أن الوظـائف الابتزازية التدميرية لهـذا النمط إنما هي "حـال" من العدوانية الفظيعة الدائمة لقـواه وملحقاتها ضد سائر البشرية.. وأساسـاً: ضد مجمـوع الشـعوب في ما يسـمى عـالم الجنـوب، مع تركـيز خـاص لهـذه العدوانية ضد منطقتنا العربية وعمقها الإسـلامي، لأسـباب كثـيرة متراكبة سـبقت الإشارة إليها بالقدر الكافي على ما نعتقد.

وإذا عدنا فتذكرنا طبيعة الصـلة بين الرسـاميل الشـايلوكية الصـهيونية وبين مجمل البنيـان الحضـاري الرأسـمالي، ثم قرنّا ذلك إلى حقائق الاستيطان الصهيوني في فلسطين العربية وما اسـتجره ذلك الاسـتيطان من نتـائج وما قـام عليه أصـلاً من مخططات، فإننا إذاً سندرك عمق الفعالية العدوانية الرأسمالية ضد أمتنا العربية.. ومـدى تعقُّد تلك الفعالية وشراسـتها وحـدّتها وامتدادها المستقبلي شبه الحتمي في آنٍ معاً.

من هذا المنظور، أي معـنى يبقى- في حقيقة الأمـر- لكلمة "سلام"؟!!...

وبالتالي، ألا يحق لنا - نحن العرب - أن نعتبر أن أية "صيغة سـلام" يمكن أن تعـرض علينا من قبل القـوى الرأسـمالية لن تكون، ولا يمكن لها أن تكون، في الجوهر غير صيغة جديدة من صيغ العدوان.. أو إنها مدخل إلى مرحلة جديدة، أعلى، منه ؟!

سـؤال يحمل جوابه في منطوقـه. فلننظر إذاً إلى معـنى (السلام) في مدلوله العام، أي في مدلوله الإطلاقي غير المقيد بشـروط نوعية خاصة تتحكم فيـه، وبمسـتجرات وأسس ومقتضيات استثنائية لحالة الحرب السـابقة عليه مثل تلك الـتي بيننا وبين العدو الصهيوني ودولته المسماة (إسرائيل).

إن السلام هو عموماً بديل الحـرب في العلاقـات البشـرية.

وفي الأساس: تتناقض المصالح بين أمتين راسختين على أرضيهما الوطنيتين / القوميتين.. فتختل العلاقات الطبيعية بينهما، ويصل الاختلال إلى درجة الحرب. ثم إن الحرب ذاتها تغيّر في أوضاع القوى المتحاربة، وتهز بقوة موازين العلاقات المتبادلة بينهما، والذاتية لكل منهما، ويأخذ الاهتزاز صيغة إنهاك عام: اقتصادي / اجتماعي/ سيكولوجي/ سياسي.. الخ، وعند ذلك يفرض السلام نفسه سواء بانهزام أحد الطرفين وتسليمه بمطالب الآخر، أو بالتفاهم على صيغ من التنازلات المتبادلة التي تعيد العلاقات بين الطرفين- ولو مؤقتاً- إلى ما يقارب أو يماثل أصل أوضاعها الطبيعية.

إن هذه المقاربة للمدلول العام لكلمة "سلام" تفصح بوضوح عما بيننا وبين العدو الصهيوني- ممثلاً في كيانه الاستيطاني المسمى إسرائيل- من شذوذية وضع فريد لا تنطبق عليه المعايير المألوفة في العلاقات الدولية، مثلما إن شذوذية هذا الوضع تفرض نفسها كأساس أولي للتعاطي مع كل ما يطرح علينا كعرب: باعتبار أنه (السلام مع إسرائيل!).

فاليهودية دين وليست قومية. والأرض التي تحتلها الآن بضعة ملايين من أتباع هذا الدين- وفقاً لمخطط صهيوني مسبق معروف، وبحجة أنهم "أمة" لا بل" صفوة عرقية" مختارة!- ما هي إلا جزء من أرض الأمة العربية، حيث هذه الأمة مستقرة وراسخة في كامل أرضها منذ ابتدائها بتأسيس الحضارة [*]..

والتلفيقة القومية الصهيونية، الفاعلة حتى الآن حسب مخططاتها المسبقة بتدبير وتنفيذ الأمبرياليين، هي تلفيقة أنشئت لتدمير الهوية القومية العربية: بشرياً وثقافياً . فالأمر إذاً ليس أمر لاجئين فلسطينيين وحسب، بل هو أمر إبادة الأمة العربية بمختلف الوسائل والسبل خوفاً من يقظة حضارية جديدة لها... أولاً بأول.

بناء على كل ما تقدم فأي معنى هذا الذي يتبقى لكلمة " سلام" بين العرب وبين الكيان الاستيطاني الصهيوني؟! في الحقيقة، ربما كان أول ما يجب أن تفكر فيه الأمم المنهوبة الرازحة تحت وطأة العدوان الإمبريالي العالمي الدائم هو: إن الإمبرياليين يسعون الآن، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وانتهاء ما كان يسمى مرحلة الحرب الباردة، إلى ضبط توازنات المؤتلف والمختلف فيما بينهم على حساب الأمم المنهوبة. وإن حدة الصراع، المخبوء قبلاً، بين أذرع الجسم الاخطبوطي الامبريالي العام قد بدأت تطفو متفاقمة على سطح حركة العلاقات الدولية .. وإن حلفاً أميريكياً صهيونياً خاصاً قد أخذ يبرز في هذا الإطار، مع ملاحظة أن زخم فعاليته ينصب على منطقتنا العربية لأسباب تعرضنا لها في الفصل السابق.. وإن هذا الحلف الذي يبدو مقوداً في حركته بالمصالح القومية الأمريكية تزداد سيطرة الرأسمال

---

[*] (*) كرسنا كتابنا "الميراث العظيم- إعادة بناء المنجز الحضاري العربي" لإثبات هذه الأطروحة بصورة موثقة. وقد صدر عن دار المستقبل بدمشق عام 1991، لمن شاء مراجعته.

الشـايلوكي الصـهيوني عليه بقـدر ما يـزداد تضعضع الأوضـاع الأميركية الداخليـة، إلى الحد الـذي يصـحّ معه القـول : إن الصهيونية ستكون في وقت ما قـادرة على المسـاهمة بقـوة في تفكيك أميركـا، بنـاءً على مقتضـيات المصـلحة المرتبطة بـالحلم الصهيوني الأعلى في السيطرة على العالم.

إن سلام الأمم المنهوبة إذاً- وعلى رأسها أمتنا العربية- يبدو للمتأمل جيداً في حقائق الوضع العـالمي الـراهن مجـرد أكذوبة إمبريالية منمقـة، أيـاً تكن الصـيغة الـتي تقـدم بها تلك الأكذوبة لهذه الأمة أو تلك.

وعليه، فما هي فائدة مناقشة كتاب السيد بيريس : (الشـرق الأوسط الجديـد) وهو على ما هو عليه ظاهريـاً من السـخف والابتذال والتفكك في أطروحاته الأساسية؟!

الواقـع، إن السـيد الجـنرال بـيريس لا يتعامل مع قارئه في أرض مكشـوفة . إنه يـدير " معركة مفـاهيم" ذات طـابع بـالغ الحيوية بالنسـبة لنـا، انطلاقـاً من أرضه الخاصة : أرض الأمر الواقع .. إضافة إلى أنه يقـدم- في حقيقة الأمـر- برنـامج عمل الصـهيونية خلال نصف القـرن المقبـل، ولكن بطريقة شـديدة المخاتلة وبمكر ألفنـاه طـويلاً من سـائر الرأسـماليين والشايلوكيين في العالم. ولهذا فإن قراءة السيد بيريس تهـدف إلى:

1- كشف الحقيقة المخبوءة وراء أطروحاته.
2- جـره إلى "أرض مفهوماتنـا" لإدارة المعركة معه ومع صهيونيته بدل الانجرار إلى أرضه.
3- رفض "الأمر الواقـع" الـراهن باعتبـاره الحقيقة المؤبـدة، وإظهـار أحقية "الأمر الواقع / الممكن " باعتبـاره حصـيلة منطق حركة التـاريخ وصـيغة مستحقاتها التي لابد أن تدفع.
4- معرفة البرنـامج الصـهيوني القـائم- أو صـيغته الجارية، قيد التنفيذ- كي لا نظـلّ الضحية السـهلة في هذا الصراع الطويل المفتوح.

ومن يقرأ كتـاب بـيريس بتمعن يـدرك جيـداً أن الأمر ليس أمر " رقصة ثعلب عجوز" لاقتنـاص دجاجة السـلام، [*].وإنما هو في الحقيقة محاولة هديل- على يُقْـدِمُ اليمـام!- يقـوم بها ذئب متمرس تجـبره طبيعته الذئبية على التكشـير عن أنيابه علانيـة، وعند ذلك يفسد بنفسه كل متعة الهديل المفتعل!

ولقد اخترنا أن نـناقش كتـاب هـذا الجـنرال / الـذئب الصـهيوني فصـلاً فصـلاً، بعد تنسـيقها في مجموعـات موحـدة المضـمون كيلا نسـهو عن شـيء من مغالطاته وأغاليطـه. وقد يتوجب علينا هنا أن نعتذر من قارئنا عما قد يجده في كتابنا هذا من تكـرار فرضه علينا هـذا الاختيـار لأسـلوب المناقشـة، إذ لو

---

* (*) في القرى يقيل الدجاج البلدي في ظل أقرب شجرة إلى البيت، وما إن يحس اقتراب الثعلب حتى يرتقي- غريزياً- أقرب أغصان الشـجرة إليـه.. لكن الثعلب لا ييأس بل يبدأ الرقص تحت الـدجاجات حـتى تـدوخ إحـداهما وتقـع... وعندها يفر بغنيمته!

أردنا أن نلخص أطروحات السيد بيريس في كتابه المذكور لأمكننا ذلك بجملة واحدة:(أيها العرب استسلموا لما نريد، فلا أمل لكم)!... أما التفصيلات فهي ليست إلا بضعة أفكار تافهة مملة، لقيت - حتى في أوروبا- ما تستحقه من تسخيف عند صدور ذلك الكتاب.

-2-

في الفصل الأول الذي أعطاه بيريس عنوان "فجر السلام" نجده يبتدئ عاماً من لحظة تقع في أحد أطراف التفرعات الثانوية للقضية الكبرى : قضية غزو فلسطين واستيطانها وما ترتب، لاحقاً، على ذلك. إنها اللحظة التي يقدم فيها " أبو العلاء" ممثل (منظمة التحرير!) العرفاتية على قبول الصيغة الصهيونية لاتفاقية أوسلو حيث تبدأ عمليات (تكريس الأمر الواقع)، وفقاً لخطط الحلف الأميريكي الصهيوني من أجل المرحلة الراهنة، وحيث تبدأ أولى عمليات الخرق الواسعة في بقايا التماسك العربي الرسمي المفرط في هشاشته أصلاً حيال هذه القضية المصيرية.

إن الجنرال الذئب يبدأ هديله الماكر بإعلان حبوره من قولة " أبو العلاء" له: (الاتفاقية هي هديتنا لك في عيد ميلادك) (*) وعلى ذمة الجنرال كان هذا الـ "أبو العلاء" **يبتسم بحذارة**، حسب تعبيره حرفياً!!..

وبالطبع، من مقتضيات التفكير العامّ بحق البشر في " ولائم دجاج السلام" ألا نعكر حبور السيد بيريس وأفراحه بتلك الهدية يوم ذكرى ميلاده، غير أننا لا نستطيع إلا أن نتوقف عند الفقرة التالية مباشرة لذلك الابتداء في الهديل. يقول الجنرال:

(فجأة وجدت نفسي أرجع بذاكرتي إلى طفولتي . فأنا ابن **جيل فقد** عالمه في الخارج وجهد لبناء عالم آخر، حيث نجحنا في إقامة دولة إسرائيل الحديثة. ومع ذلك فإن العالم الجديد كان يعني بالنسبة لنا **الحروب المخيفة والمعاناة والألم**، ألماً ومعاناة على درجة من الفظاعة إلى حد أننا وجدنا أنفسنا- إسرائيليين وعرباً- نتصرف مغمضي الأعين، وكعاجزين عن أن نتمكن من تغيير الصورة المرسومة في أذهاننا بعضنا لبعض) ص8.

السيد بيريس لا يستطيع إذاً إلا أن يذكرنا بذئبيته وهو يحاول الهديل كاليمام المفجوع!!

إنه، وجيله "فقدوا" عالمهم في الخارج!... ولن نناقشه حول ما إذا كان ذلك الجيل " فقد" أم ترك بنفسه ذلك الذي يسميه "عالم الخارج" الذي هو أوروبا بالنسبة "لصنّاع إسرائيل" الاشكنازيين، مع أننا كنا نتمنى- طبعاً- أن يتذكر التخطيط الصهيوني / الإمبريالي المحكم بخصوص فتح (العالم الجديد!) وإقامة (دولة إسرائيل الحديثة!)، كما كنا نتمنى أيضاً أن يتذكر

---

* (*) ص8 من الترجمة العربية . ودائماً أرقام الصفحات تحيل إلى هذه الترجمة التي سبقت الإشارة إليها.

شيئاً مما قام به جيله القادم من أوروبا حيال عرب فلسطين، فربما صدقنا أن "شيئاً ما !" جديداً قد بدأ ينمو في الضمير الذنبي لذلك الجيل.... شيئاً إنسانياً قد ينسينا بعض بعض دمائنا على الأقل! لكن الجنرال المعتزّ بفتوحات جيله، قدر ماهو فخور باستخدام المصطلحات الخاصة باستيطان أميريكا وإبادة الهنود الحمر، لا يخطر له ذلك. إنه - بدلاً من هذا كله يقرن الامنا التي سببوها هم بالآلام التي سببها غيرنا لهم . لا بل إنه لا يتورع عن أن يحمّلنا تبعة كل تلك الآلام، بتعمد ماكر، لا يجهل أي عربيّ إلى أين سيصل مثل هذا المنطق بصاحبه من قلب للحقائق وتزوير لها في نهاية المطاف.

ولأن السيد الجنرال قد اختار أن يبدأ هديله من إحدى النهايات في تفرعات القضية، فإنه إذاً قد اختار تناسي أساسها كلياً، مثلما اختار أن يترك لقضية الملايين من المشردين اللاجئين تلك "الخانة" المهملة من "قوة اعتماد الأمر الواقع"، فأرجأ الحديث فيها إلى الفصلين الأخيرين من كتابه!

إذاً خلط الحقائق وتزويرها يبدأ منذ الفقرات الأولى لكتاب السيد الجنرال. فالعالم الجديد- جداً!!- في فلسطين كان يعني للسادة الاشكنازيم"الحروب المخيفة.. والمعاناة والآلام الفظيعة !"... من أي شيء؟!...ممن؟!.... لماذا؟!.... كيف؟!..... لا أحد يعرف ! فخلط الأوراق يهدف إلى استبعاد مثل هذه الأسئلة (الغبية!) ويساوي الهندي الأحمر العربي بقاتله ومشرّدِهِ ومستوطن أرضه!.... وعليه، فالعرب كانوا عندما يحاولون الدفاع عن أنفسهم في فلسطين - وفي غيرها لاحقاً - يتصرفون كمغمضي الأعين، وكعاجزين عن تغيير صورة الغزاة في أذهانهم، وبالتالي: عن قبولهم بأن يكونوا أضحية لمحارق الرب" يهوه" الذي لا بد أنه قد تطوع- شخصياً!!- كقائد فصيل إرهابي في إحدى منظمات الغزو الشهيرة!

موقف غير حضاري من عرب فلسطين، ومن سائر العرب!!.... يدافعون عن أنفسهم ضد الغزو الاستيطاني، ولا يقبلون أن يكونوا أضاحي (لرب الجنود) الذي لا يفسره جيداً سوى السيد هرتزل مجدِّد الصهيونية أو مؤسسها الثاني، أو "نبيّها!" كما يسمونه ؟!!... لا!... هذه "كبيرة"، وأمر مثير للمعاناة الفظيعة عند أولئك الغزاة / الذئاب !! فكيف إذاً لا نحس" بفداحة ذنوبنا!!" ونحن نستمع إلى هذا المقطع الابتدائي من "هديل" سعادة الجنرال؟!

على أن سعادته لا يستطيع الاكتفاء بمثل هذه البداية من الخلط، فالسيمفونية الصهيونية المطولة تقتضي المزيد من نغمات هذا "الهديل" المتنافر القائم على الدجل في سائر المستويات . ولذلك فإنه يبادر إلى نصحنا بعد صفحة واحدة فقط بالقول:

(يتوجب علينا دراسة التاريخ لنستفيد من دروسه المهمة، غير أنه يترتب علينا أن نعرف كذلك: كيف ومتى نتجاهل التاريخ)!...

وإذا أردنا تفسيراً صحيحاً لهذه الأطروحة في ضوء " سياسة الاستفادة الصهيونية القصوى من الأمر الواقع" فإننا لا نستطيع الخروج إلا بما يلي:" أيها العرب استفيدوا من أنكم لم تجنوا من الوقوف في وجه مشاريعنا غير المذابح والهزائم . عليكم أن تتذكروا من التاريخ ما يناسبنا، كما إن عليكم أن تنسوا ما نحب أن تنسوه!".

هل هناك تفسير آخر؟!... لا أعتقد!

والجنرال إذ يطالبنا بهذا كله، يحسب أن بإمكان قوة الحلف الإمبريالي الصهيوني/ الأميريكي الذي يتكلم- هنا- من داخله أن تلغي منطق حركة التاريخ، وأن تحذف مقتضياتها وتشطب ما يجب دفعه من مستحقاتها المؤجلة والمعجلة. ولا تغرنا هذه الـ "نا" في قوله (يتوجب علينا....) فهي تخصّنا نحن العرب وحدنا. أما الصهاينة فالتاريخ لا بد أن يكون "ملكاً لهم" في النهاية إذا صدقنا الأطروحات التوراتية / التلمودية التي أعيدت صياغتها صهيونياً حول "الوعد الربي" لهم بالسيطرة على العالم، باعتبارهم "شعب الله المختار"!...

وهكذا، فالسيد بيريس يقول قبل نصيحته السابقة مشخصاً تاريخ المنطقة العربية على النحو التالي:

(لقد شهدت منطقتنا مراحل من التغيير المثير منذ أيام الأجداد. النبيّ إبراهيم، كذلك، عايش مراحل من الجوع والقحط، وتوالت على المنطقة عهود صعبة سادتها الزلازل والفيضانات، ناهيك عن الحروب وسفك الدماء . غير أن الزمن تغيّر، ففي عهد إبراهيم لم يكن الناس يملكون وسائل تحلية المياه وتوليد الطاقة وتغيير مجرى الريح والتنبؤات بالزلازل، ولم يسمع أجدادنا - بالتأكيد- بالكومبيوتر والصواريخ والرؤوس النووية) ص9.

هل نقول أمام هذا الاجتراء الابتذالي على التاريخ إن سعادته يتصرف بهذا التاريخ، على مزاجه، كيما يسوقه سوقاً إلى فخاخ "هديله" الصهيوني.. ويسوقنا معه إلى مطبات مفاهيمه القاتلة اللاحقة؟!

بالتأكيد، سنرى في ثنايا هذا الكتاب إلى أين سيصل الجنرال عبر هذه المقدمات . غير أنه يتعيّنُ علينا الآن أن ننظر ملياً في ما تقوله هذه الفقرة من هديل سعادته!

إن منطقتنا، التي يبدو أنها " منطقتهُ وحده!"، تعرف ثلاث مراحل تاريخية في نظره ليس غير:

1- **مرحلة الأجداد - أجداده هو، بناة الدولة العبرية التوراتية؟!- وعلى رأسهم إبرام أو أبهرام الذي يصير إبراهيم على يد "ملكي صادق " العربي الكنعاني، خادم " الإله العلي" في بيت إيل- أي بيت الله-. وأبهرام ونسله من العبرانيين / العبيرو، حسب الوثائق/ يعيشون شظف العيش كي يتحقق " وعديهوه" بتمليكهم كل الأرض (من الفرات إلى**

النيل).
ورغم أن شيئاً من هذا التمليك لا يحدث، حتى في مرويات التوراة المتداولة، فالجنرال يعتبر أن ذلك قد حدث رغم أنف الوثائق والقرائن الأثرية ما دام برنامج صهيونيته يتطلب هذا الاعتبار!

2- مرحلة العهود الصعبة التي تلت انقراض "الدويلة التوارتية المزعومة " حيث لا شيء إلا الكوارث الطبيعية من زلازل وفيضانات (؟؟!).. ـ وإلا الكوارث البشرية الوحشية من حروب وسفك دماء!!...
أي نعم!!

3- المرحلة الجديدة التي (بنى!) فيها- هو وجيله- (دولة إسرائيل الحديثة!)، حيث لا شيء إلا .. العلم، والسلام، والرفاه العظيم : تحلية المياه، توليد الطاقة، تغيير مجرى الريح، والتنبؤ بالزلازل - وهذه كلها تقدم لنا، نحن الغوييم[*] المطلوبة إبادتهم، باعتبارها إغراءات!- وحيث الكومبيوتر والصواريخ .... إضافة - بالطبع- إلى الأسلحة النووية وأقمار التجسس الصناعية. والآتي أعظم وأدهى!

أفليس هذا تعاملاً مدهشاً حقاً مع التاريخ، من قبل هذا الجنرال الذي يريد أن يهدل فترغمه طبيعته على إظهار أنيابه المضاعفة فيما هو يفتح فمه ليغرد؟!

إنه لا يتذكر من كل تاريخ هذه المنطقة الذي يمتد نحواً من خمسة وخمسين قرناً حافلة بالإبداع الحضاري على سائر المستويات، إلا ما تحب له صهيونيته أن يتذكره: **تاريخ الدويلة التوارتية** التي إن كانت قد وجدت فعلاً -وليس هناك أي دليل أثري علي وجودها- لم تمتد على أكثر من ثلث مساحة فلسطين الحالية ولم تعش أكثر من قرنين من تلك القرون الخمسة والخمسين.. مع اعتبار الرواية التوراتية " تاريخاً " موثقاً إلى أقصى حدود التوثيق!..... **ثم تاريخ الدولة الأصولية الصهيونية الحديثة** التي مضى على إعلان قيامها رسمياً حتى الآن أقل من نصف قرن بقليل!.... أما ما بينهما" فغمرٌ وخراب وكوارث ودماء"- ولا نعرف من أين جاء هنا بفيضاناته !- وذلك هو كل تاريخ المنطقة من وجهة النظر الصهيونية، رغم أن ذلك التاريخ كان محور تاريخ العالم المتحضر حتى ابتداء "نهضة!" أوربا.

أفرأيتم بماذا "يهدل" هذا الصهيوني العتيق المخضرم حين ينصحنا بالاستفادة من (دروس التاريخ المهمة) وبتجاوز ما يقترح علينا تجاوزه من التاريخ ؟!

إنه، ببساطة (سلمية جداً، وحمائمية!) يطلب منا أن نشطب

---

* (*) الغوييم: مصطلح تلمودي /صهيوني يعني كل الأقوام والشعوب- غير اليهود الذين هم الشعب المختار !- واللفظ يساوي في الأصل شتيمة قاسية كما يدل على منطلق غريب لإباحة وحشية التعامل اليهودي معهم!.

أنفسنا من التاريخ الماضي، مثلما تشطبنا الصهيونية من الوجود المعاصر كبشر!.... فياله من طلب بارع يصلح ليكون أول الأشعة في "فجر السلام" القادم حيث يعرف رجل من الغيتو مثل (أبو العلاء) كيف يبتسم بجدارة في ذلك اليوم من أيام أوسلو !!

-2-

تعكس الفقرة السابقة ضيق المسافة بين الجنرال المدجج بسائر صنوف الأسلحة الامبريالية، وبين الجد أبهرام- وتجاوزاً: النبي إبراهيم- الذي تصوره التوراة مدججاً بالوعد اليهوويّ حول توريث (الأرض!) له ولنسله من العبرانيين، حيث يظهر بهوه ذاته في الأسفار الأساسية مثل جندي مستميت لإدخال أولئك الذين يستبدلون عبادته بعبادة العجل الذهبي، إلى "أرض اللبن والعسل".... ولم يكلف السيد الجنرال خاطره ويتذكر أصله وأصل جيله الأشكنازي، ومدى صلته العرقية- باعتباره متخماً بالثقافة الصهيونية / الأوربية المشتركة- بذلك السيد المدعو سام بن نوح، جد الأجداد من البطاركة التوراتيين، وعلى رأسهم أبهرام الذي صيروه " إبراهيم" في وقت ما من كتابة التوراة.(*)

ولأن المشكلة تلك ليست بين السيد الجنرال والنبي إبراهيم، بل هي بيننا وبينه- كممثل لجيله من الاشكنازيم- بصورة مباشرة، فإن من واجبنا - معرفياً على الأقل- أن نذكره وجيله بأنهم من الخزر، ولم يعرف أحد من أجداده الحقيقيين هذه المنطقة حتى آدم!

ولأننا لسنا- معرفياً- موضع ثقة السيد الجنرال، فإننا سنحيله إلى ما يعرفه: إلى كتاب أخيه الصهيوني آرثر كوستلر (إمبراطورية الخزر- القبيلة الثالثة عشرة)، حيث كشف بدقة موثقة عن أصول يهود أوربا وهجراتهم وتوزعاتهم .. وحيث لم يشفع له فصله الأخير عن (الواجب الأخلاقي للعالم في الحفاظ على دولة إسرائيل كأمر واقع)، فتم اغتياله في لندن وسط ضجة إعلامية مفتعلة بأنه انتحر!

ولكن السيد الجنرال النووي، المغرد بصوت حمامة سلام، لا يكتفي بتجاهل حقائق التاريخ أو معارضتها بما تلقنه في التعاليم الصهيونية... بل إنه يناقض نفسه- حين يبدو على أتم انسجام معها!- ويناقض المبادئ الأولية لعلم التاريخ حين يخترع لنا- لا لغيرنا!- مبادئ مختلفة جذرياً، ويطلب منا أن نأخذ بها كمسلمات!

إنه يقول في فقرة تسبق الفقرة المقبوسة قبلاً عن رؤيته لتاريخ المنطقة، يظهر فيها "تفلسفه" كمفكر لا يرضى بالاستناد إلى أقل من هيراقليطس : (مع أننا قد نستوعب دروس الماضي، إلا أنه من الصعب تصحيح أخطائنا . وكما يقول الفيلسوف الإغريقي هيراقليطس:

" على أجساد أولئك الذين يسبحون في النهر تتدفق مياه

(*) ما هو معروف بصورة موثقة أنه بدئ بكتابتها في القرن الرابع ق. م أيامم نحميا وعزرا الكاتب، وانتهت تلك الكتابة في صيغتها الأخيرة على أيدي علماء طبريا بالمصوريتيين في القرن التاسع الميلادي!

مختلفة " فالأنهار دائمة التدفق ومياهها تعمل على خلق حقائق جديدة طوال الوقت . وإذا كانت المياه قادرة على إغراق من لا يستطيع السباحة فيها، فإنه ما من أحد قادر على عكس اتجاه التيار. ونفس الأمر ينطبق على التاريخ. فنحن لا نستطيع بناء المستقبل على أنقاض نظام قديم). ص9

طبعاً لسنا معنيين بمناقشة أسلوب التفلسف الخاص بالسيد الجنرال أو بمعايرة استنتاجاته القاطعة الأمرة- عل طريقته كعسكري محترف- مع منطلقها الهيراقليطي المنتزع من سياق مختلف، لتوظيفه في صياغة تلك الاستنتاجات.. لكننا معنيون، بالتأكيد، بعبارته الأخيرة: لانستطيع بناء المستقبل على أنقاض نظام قديم!

فإذا كان السيد الجنرال يؤمن فعلاً بهذا الاستنتاج المتخم بالتفلسف، فكيف إذاً أمن طيلة حياته بأنه سوف يبني هو وجيله (دولة إسرائيل الحديثة!) على أنقاض الأساطير التوراتية التي - مهما بلغت درجة صحتها - قد بادت منذ سبعة وعشرين قرناً على الأقل؟!

ألم يكن في "العمل الدموي" له ولجيله خلال الإعداد للدولة- وهو يعرف أفضل منا مدى دموية ذلك العمل!- معارضة التيار المتواصل في المنطقة، وعكساً لاحقاً لاتجاهاته؟!

ثم أين هو المفكر في العالم كله من جميع المشتغلين بالتاريخ وعلمه، وتاريخ الحضارة وفلسفتها، ذلك الذي قال إنه يمكن بناء أي" نظام" جديد إلا على أنقاض النظام السابق له... وبمواد تلك الأنقاض ذاتها من: بشر، وعلاقات، وأدوات.. مع التغيير اللازم في الميكانيزمات، ومنظومات القيم، تغييراً يؤدي إلى مستوى جديد في عملية نمو الحضارة، وانقلاب علاقاتها السابقة، واستحداث أدوات جديدة تنسجم مع ذلك المستوى الجديد باعتباره : نتيجة لصيرورة وفّرت لها كل المقدمات الضرورية؟! أما إذا كان السيد الجنرال بيريس يقصد، من هديله المتفلسف هنا، بالنظام القديم: ما أجبر العرب على استحداثه من هيكليات بنيانيه ومفاهيمية متمحورة على الصراع الذي فرض عليهم صهيونياً وإمبريالياً....وإذا كان يقصد بالمستقبل : مستقبل (دولته / الغيتو الكبير)،كمركز لإدارة الهيمنة على " أمبراطوريتها" الشرق أوسطية المأمولة، فإن تفلسفه لن يوصل أحداً من المائتي مليون عربي إلى نزع فتيل انعدام الثقة بسائر أنواع الهديل الحمائمي الصهيوني مادامت رائحة دم الضحايا العرب،منذ 1929 حتى اليوم، تملأ هواء المنطقة.. مثلما ملأته روائح البارود والنار الصهيونية منذ قدوم أول اشكنازي ليقتفي طريق يشوع في "تحريم" أريحا!.... وتفلسفه، بالتالي، لن يغير شيئاً من منطق حركة التاريخ التي لا يمكنها أن تتوقف، مثلما لا يمكنها أن تكون إلا في إطار صراع النقائض وجدل عناصرها المتضادة.. وإلى الأبد!

على أن تفلسف صاحبنا قد أتاح له أن يكشر عن أنياب التهديد مرة أخرى، إذ يقول بعد قليل مما سبق:

(نحن لا نستطيع أن نسمح للماضي بصياغة تصورات راسخة يمكن أن تفشّل قدراتنا على بناء طرق جديدة في التفكير والتصرف... أما الشخص الذي يرى في الماضي صيغة لتسيير المستقبل فلن يجد نفسه سوى ضحية للإحباط والفشل) ص10

وبالطبع، ليس الماضي هنا هو (ماضيهم!) الذي بنوا كل صهيونيتهم على "صورته التوراتية".... بل إن الماضي المقصود هو ماضينا نحن العرب: الماضي القريب في علاقاتنا الصراعية مع جيله الاشكنازي الذي قدم لافتتاح (عالم جديد!) في بيوتنا، والماضي البعيد الذي يمتد متواصلاً موغلاً نحو البدء الحضاري الذي شيدناه في مصر وسورية وبلاد الرافدين بالاستناد إلى العمق الديموغرافي/ الاستراتيجي وقتذاك : شبه الجزيرة العربية... (*) بما في ذلك عصر سيادة الحضارة العربية الاسلامية عالمياً!..

إن الجنرال يحرم علينا هنا تكوين تصورات - راسخة أو غير راسخة!- تعيق حركة الذراع الامبريالي الصهيوني، المتحالف مع نظيره الأميركي وبإشرافه، وتمنعه من حرية التصرف في المنطقة! وبعدها يخرج علينا بإحدى استنتاجاته اللوذعية معممةً كقانون فلسفي لحركة التاريخ : الماضي لا يحتوي أي عنصر أو صيغة يمكن أن يكون له أولها دور في تسيير المستقبل!!

بالطبع، لن نكرر القول عن مدى تنافي هذه النتيجة المتفلسفة مع أبسط ما هو معروف وشائع من طبيعة حركة التاريخ وطبيعة القوانين الناظمة لها، مما صار معروفاً حتى لطلاب المرحلة الثانوية!... لكننا سنفسرها كإنذار لمن يفكر بمعارضة حرية حركة الرأسمال الشايكوكي باستثمار المنطقة : بشراً وموارد . وسنلخص الإنذار كما يلي:

- نظفوا رؤوسكم جيداً أيها العرب من كل شيء عن ماضيكم الحضاري أو عن أمالكم المستقبلية، وغلّوا أياديكم إلا عن العمل في خدمة الأمبراطورية الشايلوكية التي نخطط لها في أرضكم، وإلا...!

ويمكن أن يوضع بعد هذه الـ (وإلا): من القتل علناً أو اغتيالاً بصورة إفرادية، حتى " إعادة التهذيب!" الجماعية بأحد الرؤوس النووية الاسرائيلية، على طريقة " تهذيب!" الأميريكيين لليابان في الحرب العالمية الثانية!!

إنه أيضاً شعاع ثان مذهل من أشعة (فجر السلام) على الطريقة الصهيونية!... فماذا بعد أيضاً لدى الجنرال المغرد بمجد "سلامه" المهدَّد، وقوة رؤوسه النووية الرادعة وسائر ما دججت أميريكا "دولته" به وصولاً إلى تكنولوجيا الفضاء؟!

-3-

بالتأكيد، لا أحد يستطيع إدخال قافلة محملة إلى السوق من خرم إبرة . إن الأجمال، عندها، لابد أن تسقط وتتمزق وتتبعثر متلوثة بطين الأرض أو غبارها، رغم طنين الأجراس..

(*) مرة أخرى: راجع كتابنا "الميراث العظيم" - سبقت الإشارة إليه.

وهيصة "شهبندرات" التجار.. وأختام الصفقات المعقودة!... أما أهل المدينة الآخرين فلن يعنيهم ما يحدث إذ ليس لديهم ما يخسرونه في هذا الذي يجري، وصبرهم أوسع من خرم الإبرة، وما يريدونه أكبر من كل الأختام وأقوى من كل طنين!

صورة من فولكلور الماضي عندنا، قد لا يرضي السيد الجنرال الوزير بأن نتذكرها وفقاً لنصائحه التهديدية السابقة، وتوعُّداته التي يرشّ عليها بهار كلمة السلام. لقد رضي السيد الجنرال - في عيد ميلادِهِ الميمون !- أن يُدخل "قافلة سلامه" عبر حزم الإبرة العرفاتية المفتوح على اتساعه في أوسلو، بتشجيع من حِدارة" أبو علاء" بالابتسام، وبتحريض من رسالة "المخلص جداً !" بسام أبو شريف... حيث أمكن له في النهاية أن يقول وهو غارق في حبوره:

(في أوسلو توصلت إسرائيل إلى أكثر من مجرد كلمات، فقد حصلنا على تنازلات لم نكن نستطيع بدونها توقيع أي اتفاقية.. تنازلات أمنية، وقضية إبقاء القدس خارج اتفاقية الحكم الذاتي والإبقاء على المستوطنات حيث هي) ص29

وهكذا صار بإمكان السيد كريستوفر أن يقطع إجازته ليستقبل البشارة بتلك "التنازلات" من فم السيد الجنرال الوزير وفم وزير خارجية النروج، وأن يردد أيضاً- ربما بحبور أشد عصفاً من حبور نظيره الجنرال-:

(مثل هذه التطورات تستحق أن يقطع المرء إجازته من أجلها) ص30-

أما تلك التنازلات المصيرية فقد ولّدت الحكمة في رأس السيد الجنرال الوزير بعد أن لم يكن فيه غير صور الأجساد العربية الممزقة بالرصاص. وسائر أنواع المفرقعات : الكبرى منها والصغرى!

لقد "تفضل!" حضرته- فقبل التنازلات العرفاتية التي تخص أصلاً نحو ستة ملايين من الفلسطينيين ومائتي مليون عربي دون تفريق!... وهكذا بورك عرفات بقبول رابين أن يصافحه (مصافحة تاريخية!!) في حديقة البيت الأبيض - من حيث اللون لا من حيث الأصل ولا الفصل ولا السمعة !- وهكذا اكتشف هو- في غمرة حبوره- أن (المنطقة لم يعد هناك مجال لتجاهلها)! وأن التفكير من " خرم الإبرة " هذا (بشرقه الأوسط الجديد) هو الواجب الذي تفوق متعتُهُ متعة الإحساس بالسعادة لما حدث!!

طبعاً، لم يفكر السيد الجنرال بالتوقف لحظة ليسأل نفسه: من الذي تنازل له؟! وعن ماذا ؟! وهل يملك "المتنازل" فعلاً ما تنازل عنه، أم إنه مثله يبحث عن "خرم إبرته " ليدخل قافلته إلى السوق، ويضارب ؟!...

إن السيد الجنرال يعرف الإجابة الصحيحة على هذه التساؤلات أكثر منا . وهذه الإجابة لا تسره بتاتاً حتى على المستوى التاريخي القريب ! ولو أعاد قراءة ما كتبه هو نفسه

عن شخصية عرفات، وعن كيفية حصوله على اعترافهم هم والأميريكيين به، لوجد أنه يعترف بأن الرجل صار "مقبولاً" عندما صار نفوذه مهدداً،وصار بالتالي محتاجاً إلى أي شكل من أشكال إعادة الاعتبار ولو عن طريق الارتماء العلني في أحضان خصومه من الأميريكيين ومن الصهاينة - هذا إذا كانوا خصومه فعلاً في أي يوم من الأيام!- .وهكذا استبدل الشعب الفلسطيني برمته "بالرئيس جداً!" السيد عرفات وبحفنة من أتباعه من أمثال " أبو العلاء" الذي (يعرف كيف يبتسم بجدارة!) وأمثال (المخلص!) أبو شريف... وهكذا أيضاً قبل هؤلاء ومن معهم بأن يكونوا "نوعاً من الشرطة الصهيونية المعرّبة" في مخترة ومخفر- بصرف النظر عن سائر الشكليات والألقاب والبروبوغندا الإعلامية- كي يتولوا لاحقاً أمر مطاردة الخارجين على الطاعة لإسرائيل من الفلسطينيين، أي كي يتسلموا أمر "فلسطنة" الصراع، فيرتاح السيد الجنرال وبقية جيله من حكام الدولة الأصولية الصهيونية، حتى من دفع الثمن الإعلامي الغالي لتلك المطاردة،كما قال هو نفسه!

فهل هذه الأمور كلها مجرد (تنازلات مفرحة) من قبل أحد طرفي صراع تاريخي بهذا الحجم للطرف الآخر، أم إنها عملية قبول رخيصة "لوظيفة " سافلة لا تزيد عن كونها لغماً مستقبلياً في قلب الطرف المسلوبة حقوقه.. لغماً جاهزاً للانفجار تحت قدم كل من تسول له نفسه أن يتحرك لتحصيل شيء من تلك الحقوق؟!

لا شك في أن تردد السيد رابين في مصافحة (شرطيِّه!) الجديد، في احتفال البيت الأبيض يوم 13 أيلول من عام 1993، كان له ما يبرره من شعور الاحتقار الداخلي "لموظفه!" الصغير، رغم حجم خدماته المفرحة المأمولة .. (*) ولاشك أيضاً في أن الحلف الرأسمالي الصهيوني / الأميريكي قد تمكن، بهذا السيناريو الغريب، من استبعاد جميع القوى الكبرى الأخرى- أوربا وروسيا.. وغيرهما!- من أن يكون لها أي دور في الترتيبات المقبلة في المنطقة، غير دور المتفرج المصفِّق.. وذلك ماسيطوي بفظاظة جملة ما يسمى (قرارات الشرعية الدولية) التي بدأت على أساسها المفاوضات في مدريد، حتى صارت (الشرعية الدولية) ذاتها - وهي ما يصر الأميريكان على الجعجعة بها كلما لزمتهم!- جزءاً من مزبلة ماض ينصحنا السيد الجنرال الوزير بنسيانه كلياً!

وذلك هو الشعاع الثالث من أشعة (فجر السلام) الأميريكي / الصهيوني المشترك في منطقتنا .. أفلا يحق، بعد كل هذا، للسيد الجنرال بيريس أن يهدل كالحمام احتفاء بهذا الفجر العجيب؟!

---

* (*) ولعلها كانت تشير أيضاً إلى عدم ثقة الجنرال رابين بإمكانية أن يقوم "موظفه!" الصغير الجديد بالدور المنوط به، وهو ما أخذت الأيام تثبت صحته بسرعة كبيرة!

-4-

تقـول إحـدى حكاياتنا الشـعبية- ونحن سنسـتعمل مـوروث ماضينا رغم نصـائح السـيد الجـنرال وتوعداتـه- أن الـذئب قـرر يومـاً إن يتزهـد، فلبس ثيـاب الـدراويش وخـرج يَعـظ الخـراف مظهراً استغراقه في روحية عميقة. وحين صدقه أحـدها رافقه إلى النبع كي يشـــربا دون أن يلاحظ كيف أخفى جيـــداً أنيابه ومخالبـه. وأخذ الـذئب المتـدروش يشـرب من رأس النبع بينما قنع الخروف المريد أن يشـرب من الجـدول الـذي يكوّنه النبـع. وفجـأة صـرخ المتـدروش بمريـده: لمـاذا تعكر عليّ المياه أيها الشــرير؟! وقبل أن يـتيح له فرصة الشـرح والتفسـير أخـذت الأنياب والمخالب تلعب في عنقـه.. وبـالطبع، من غـير أن يفكر ذلك المتزهد المتدروش حـتى بقـراءة الفاتحة على روح مريـده الغبي!!

في الحقيقــة، يحصل في كثـير من الأحيــان شــيء مماثل لمختلف أنواع الذئاب البشرية . لكن المشكلة الــتي لم يجد لها حلاً هــذا العصر الامبريــالي الــذئبي كله تتلخص في أن لــدى الضحايا من (قلة الحياء؟!) ما يجعلها غير راغبة في الاستســلام بتاتاً، بل إنها لتطارد قاتلها وهو في عز تلـذذه بـدمائها، حـتى إن ذعره من احتمالات المستقبل ليفوق نشوة تلذذه ذاك.

ويبـدو أنه قد حـدثت للسـيد بـيريس تجربة مماثلة حين كـان يمحـقُ الشـرعية الدولية، وحقـوق عـرب فلسـطين، ويـرتب في أوســلو إدخــال "قافلة ســلامه" إلى الســوق من خــرم الإبــرة العرفاتي. غـير أنه لا يـورد حقيقة ما حـدث له بل هو يوظف ذلك مفهوميـاً لخدمة مشـروعه المسـتقبلي.... فلنقـرأ ما يقوله بهـذا الخصوص:

(خلال مفاوضــات أوســلو انشــغلت، لبعض الــوقت، في التفكير الروحي العميـق- هكـذا !!- فقد كنت على الـدوام أميل إلى التفاؤل المفرط، في الـوقت ذاته الـذي تجـذبني فيه بعض الأفكار القديمة مثل **<u>المهام التبشـيرية الأولى</u>**. أعلم أن ما حصل لليهود كان تجربة غـير مسـبوقة . وخطر بـالي أن شـيئاً مماثلاً قد يحصل للفلسطينيين، أي التجمع وتشـكيل شـعب لـهُ **<u>دور بين الشعوب .</u>** لقد كان واضحاً لي أنه في قلب الصراع المهلك تكمن القضــية الفلســطينية. فبعد كل هــذا لم نــدخل الحــرب مع مصر لنســتولي على نصف ســيناء، ولم نــدخل في مواجهة مع سورية للحصـول على الجـولان، لكن فعلنا ذلك من أجل ضـمان الأمن والاسـتقرار، ولم نكن يومـاً بالشـعب الـذي يرغب في التحكم بالآخرين) ص16-17

وللقـارئ طبعـاً أن يضـحك من كل هـذه المسـاخر، واحـدة واحدة أو بالجملة. غير أن الجـنرال لم يقصد إطلاقـاً أن يسـلينا بمثل هـذا الـدَّجَل المفضـوح عن مسـاخره الروحيـة، فما الـذي قصد إليه إذاً ؟!

قد يبـدو الجــواب بسـيطاً وهو أنه يريد أن يحقن رؤوســنا، التي عليها أن تنسى الماضي، بجرعة أولية من التزويرات التي تهيؤنا لتقبُّلِ ما ســوف يمليه علينا من طلبــات تخص الأدوار

المرسومة للعرب في تنفيذ بنود مشروعه. وهذا الجواب حقيقي وصحيح. ولكن، ماهي التفصيلات التي يضمرها أصلاً؟

هل حقاً إن السيد بيريس قد فوجئ بما قدمه له أبو العلاء وبقية "شلته" العرفاتية من تنازلات تشبه طلبات التوظيف عنده وعند من يمثلهم من الشليلوكيين أكثر مما هي موافقة على "معاهدة"؟!

الحقيقة أن عرفات كان منذ عشر سنوات يقدم التنازلات بالجملة للدولة الصهيونية . وفي عز الانتفاضة قدم السيد بسام أبو شريف- وكان وقتها مستشاراً لعرفات-"وثيقة المشهورة"(*) ... وبذلك كله صار عرفات عند السيد بيريس رجلاً (لا بديل له. فقد.. أضحى رمزاً وطنياً وأسطورة في أعين الفلسطينيين.وفي العادة عندما تبدأ الأساطير تنتهي التساؤلات)، لكن الجنرال لم يكن يفوته أن هذا الرجل الذي (لا بديل له) عنده وعند صهيونيتِهِ كان يعرف أن " الرمز والأسطورة" قد سقطا تماماً منذ عام 1982 في أعين غالبية الفلسطينيين والقوى الشعبية العربية. وكان يعرف أكثر: إنه عندما تسقط الأسطورة تكون التساؤلات والشكوك قد وصلت غايتها، وابتدأت صياغة البدائل!

وإذاً فالتفاؤل المفرط لدى السيد بيريس لم يكن يحصله في أوسلو من (الوفد العرفاتي) في غفلة من العرب، بل في ما كان يراه من تفتت الأوضاع العربية وتفككها إلى الدرجة التي ستسمح (للآخرين) من "عرب المشروع الصهيوني" بأن يمارسوا أدوارهم علانية في تدشين مشروع الأمبراطورية الشايلوكية الشرق أوسطية، بذريعة (عرفات / الرمز!!) ذاته!

وهذا بطبيعة الحال يستجر تذكر المفاهيم التبشيرية الأولى حيث نصت الأسفار مراراً كما سبق أن قلنا على أن الغوييم (تحرمهم . لا تقطع عهداً ولا تشفق عليهم)، وحيث نص هرتزل في تعاليمه حول إنشاء الدولة: (إننا سنقوم بحملة جماعية لصيد الدببة. لن نقتلها فرادى، بل سنقتلها بالجملة ونرمي في وسطها قنابل شديدة الانفجار).

وهنا نعثر على سر (المكابدة الروحية!!) للجنرال . إنه يتمثل في المفارقة بين مخالفة النصوص بشأن" قطع عهد" للغوييم وبين مقتضيات الواقع والحركة اللازمة فيه لإنجاح المشروع . فيالها من مكابدة!! ويا للتعمية الخطيرة التي يقوم بها هذا الذئب الصهيوني المتدروش!!

لكن صاحبنا لما ينتهِ بعد. إننا نستطيع التخمين بأن وراء المكابدة التهريجية المعلنة مكابدة فعلية مختلفة . أما جوهر الذعر الذي هو طابع هذه المكابدة فينبع من وضع عرفات- وسائر المتهافتين من رسميّي العرب- في أعين القوى الشعبية العربية: فلسطينية وغير فلسطينية... ويرتبط بالتالي بحقيقة أن أية صيغة

(*) صدرت الوثيقة بعد نشوب الانتفاضة بنحو من عام. واعتبرت في سياق التنازلات العرفاتية، نوعاً من برنامج لصناعة وعي فلسطيني مضاد وزائف. وثبت الفصلان الأخيران من كتاب بيريس أنها قد كتبت بإيحاء صهيوني مباشر.

رسـمية لإقـرار ما هو نشـاز في حركة تـاريخ منطقة كمنطقتنا العربية لن توقف حركة التـاريخ تلـك، ولن تجبرها على تحويل مسـاراتها أو التقصـير في استيفاء مستحقاتها المؤجلة الـتي قد تبـدو- في لحظة مـا- كأنما هي غـير موجـودة أو غـير ملزمة بالفعـل!... ولقد أفصح الجـنرال عن ذلك بقوله المـوارب (خطر ببالي أن شيئاً مماثلاً قد يحدث للفلسطينيين، أي التجمع وتشكيل شعب له دور بين الشعوب).

إن من لا يتمعن جيداً في مجموع الفقرة الكاملة المقبوسة قبلاً، قد يتـوهم أن بـيريس يتمـنى ذلك التجمع للفلسـطينيين وتأسـيس دولة انطلاقـاً من "المخـترة" العرفاتيـة. لكن تحليل المنطويـات الحقيقية لتلك الفقـرة، واسـتناداً إلى أطروحـات الكتاب كله وإلى ما نعرفه عن الصهيونية وأصولها، يشـير بقـوة إلى طبيعة الكـابوس الجـاثم فعلاً على صـدر الدولة الخزرية الشـايلوكية، والمتمثل في أن الشـعب العـربي الفلسـطيني موجـود ومتمـرس بسـائر أشـكال الـدفاع عن حقه في وطنه التاريخي.

لكن الجنرال - كما سيتبين لنا لاحقـاً- يضـمر أيضـاً تأسيسـاً مفهومياً جديداً وهو: فكرة "الأمة الفلسـطينية" المنبثقة من (العرقية العربية) كما سيسميها . فهو إذاً يؤسس لنسف الهوية القومية العربية عن طريق تعزيز اسـتبدالها بقوميـات قطرية منفصل كلّ منها عن الآخر.

إن ثقل الوجود الفلسطيني، ونوعيـات ممارسـاته النضـالية الـتي يسـميها الصـهاينة والأميركـان إرهابـاً، لهو ثقل حاضر بضـغطه الكابوسي على قلب الجـنرال المفعم بـالحبور وهو يتلقى "هديـــة!" أبو العلاء . [*]. ولأن الانتفاضة هي- باعترافه لاحقـاً- نـوع من السـخرية اللاذعة من (جيش الـدفاع!) سـمعتِهِ وترسانته فإن من حق الجنرال أن يظل مذعوراً من الاحتمالات الـتي تطرحها حركة التـاريخ الـتي لا تنصـاع للأوامـر، أو تشـلها التهديدات.

وهكـذا فـإن السـيد الجـنرال، الخـزري الاشـكنازي، دعيّ (الوراثة العرقية؟!) المباشرة للنبي إبراهيم، والذي إن عصـرته قليلاً سـالت منه بقايا الـدم الفلسـطيني كـالمزارب، مـرغم سيكولوجياً على التصريح لنا بأحواله الكابوسية وبأسبابها.. فيما يظن الجميع أنه في ذروة انتصـــاره وذروة نجاحـــات (تجربة جيله!).

وعليه، فإنه يعترف- ربما للمـرة الأولى في تـاريخ الدولة الصـــهيونية- أنه (في قلب الصـــراع المهلك الطويل تكمن القضية الفلسـطينية)، ونحن هنا نوافقه بلا تحفظ مع إضـافة صـغيرة: القضـية الفلسـطينية وجملة الوظـائف الامبريالية التي وراء تصنيعها تاريخياً دون أية مسوغات أخرى.

والسـيد بـيريس، إذ يـدرك كل هـذه الحقـائق الكابوسـية مجتمعـة، وإذ يـرى كما يقـول في مكـان آخر (أنه من الصـعب

---

* (*) ملاحظـة: لم نـراعِ هنا في اسم "أبو العلاء " مسألة الإعـراب، فعـذراً من القارئ.

علينا - يقصد عليهم هم !- تصحيح أخطائنا) أي أخطائهم هم، لايجد وسيلة للوقاية من الذعر التاريخي إلا بارتداء جبة الواعظ فوق جلده الذئبي وأنيابه ومخالبه!... إنه يكمل: (لم ندخل الحرب مع مصر لنستولي على نصف سيناء، ولم ندخل في مواجهة مع سورية للحصول على الجولان- لكن فعلنا ذلك من أجل ضمان الأمن والاستقرار).

وهكذا تظل الصفاقة هي الصفاقة مهما حاول صاحبها أن يصطنع لعباراتها من مؤثرات!...

إن تجربة جيل الجنرال بنيت على شعار غير قابل للتغيير: (إسرائيل من الفرات إلى النيل)، فمن هو إذاً ذلك الذي أقدم على (جناية!!) تغيير ذلك الشعار الهرتزلي في غفلة من الصهيونية برمتها ؟! وإذا تجاوزنا ذلك، فأي أمن واستقرار يطلبها غزاة يحتلون أرض غيرهم بقوة السلاح الامبريالي ؟! بل لماذا يرفض هو وحكومته - حتى لحظة كتابة هذا التساؤل- إعادة الجولان لسورية رغم أن سورية وعدت بالسلام الشامل مقابل الانسحاب الكامل؟!

لكن، هل يشكل المشروع الصهيوني- في سويّته الشرق أوسطية البيريسية المطروحة هنا- نوعاً من الهروب إلى أمام إزاء تقويم الاحتمالات التاريخية المفتوحة بشأن هذا (الصراع المهلك الطويل)؟!

إننا نترك هذا السؤال معلقاً لنعود إلى هذه الجملة المضحكة رغم ما فيها من إثارة للاشمئزاز والغيظ من الدجل المفضوح : (لم نكن يوماً بالشعب الذي يرغب في التحكم بالآخرين).

حقاً إن ظرافة بعض الصفاقات لا حدود لها!! والصفاقة والدجل هما رابع الأشعة التي يحاول السيد الجنرال أن يحبك بها ومنها "فجر السلام" الصهيوني / الأمريكي المشترك في المنطقة!... أفليس "ظريفاً" حقاً هذا الاشكنازي الإرهابي القديم المتجدد، وهو يحاول أن يوهم قارئه بكل هذه الخدع اللفظية أنه ليس بينه وبين النبي إبراهيم إلا (محطّ إصبعين) من شجرة العائلة التوراتية؟!

ومع ذلك فنحن لا نزال مع الافتتاحيات البسيطة لما في جعبة الجنرال المتدروش من غرائب " والعاب خفة!" ومكر وتزوير للتاريخ واستهتار بالحقائق والبديهيات. وأول ذلك استهتاره بوجودنا ذاته. فلنتابع إذاً.

❑❑❑

ÇáÝÕá ÇáËÇáË

- ***ãÝÊÑÞ ÇáÌÍíã*** -

-1-

كقاعـدة عامـة، يشـهر الجـنرالات مسدسـاتهم عـادةً حينما يريدون أن يبدؤوا بالتفكير!

ولأن السيد بيريس كـان معنيـاً دائمـاً (بـالقوة العسـكرية لإسرائيل) [*] -والتعبـير له حرفيـاً- إذ تقلب خلال عشـرين عامـاً في مناصب عديدة كأحد كبـار جـنرالات "جيش الـدفاع!"، فـإن من حقنا- بل من واجبنا تجاه أنفســنا - أن نمعن في البحث عن مسدسه المشهر وراء غابة أفكـاره المعمـاة عن عمـد، فيما هو يتحـــول قصـــداً نحو (كل هـــذا التفـــاني والإخلاص للعملية السلمية)، كما يقول!

تفــانٍ وإخلاص للعملية السـلمية؟!... من أجل مــاذا ؟!ـ بل لأية غاية، ولأي سـبب، والجـنرال متـورط منذ يفاعته في (صـيد الدبيـة) الـذين سيسـالمهم : صـيداً بالجملـة، وبسـائر منجـزات تكنولوجيا المفرقعـات المـدمرة، حسب التعـاليم الهرتزليـة؟!! فما الـذي يجـري إذاً ؟! وهل علينا أن نصـدق أن هـذا "القطب الصهيوني" قد استطاع أن يرمي ماضيه كله في عكس "اتجاهه الجديد" هكذا دفعة واحدة؟!

فلنتابع تعليلاته، هو نفسه، لذلك " التغيير المفاجئ"!

يقول السيد الجنرال:

(لم أكن أنا الــذي عمل على تغيـــير المســـار من التصـــور التقليـــدي للـــدفاع الوطـــني القـــائم على أنظمة الأســـلحة إلى التصور الجديد القائم على الاتفاقيـات السياسـية، ويضم عناصر أخرى مثل الأمن الدولي، والاعتبارات الاقتصادية . فالواقع يؤكد بأن العالم هو الذي شـهد تغـيرات كاسـحة، وعملية التغـيير إنما تجبرنا على اســــتبدال مفاهيمنا القديمة بمواقف أقـــــرب إلى الحقائق الجديدة) . ص33

كلام يبدو في ظاهره جميلاً و" طاهراً!". و (تغيرات العــالم الكاسـحة) تغيِّر مفـاهيم الرجـل- هي ما غيرها !- عن (التصـور التقليـدي للـدفاع الوطـني!) إلى (مواقف أقـرب إلى الحقـائق الجديدة) .. ولكن ما معنى هذه العبارات الـتي وضـعناها ضـمن

---

[*] (*) أبرزنا دوره في تأسـيس قـوة " إسـرائيل!"ـ النووية وتطويرها كمثـلٍ على ذلك، في ملاحظة سابقة.

قوسين، أو إلى ماذا تشير من حقائق الواقع المعاش؟!

لقد سبق لنا في الفصل الأول من هذا الكتاب أن وصّفنا ماهية "التغيرات العالمية الكاسحة" وحدودها، حيث (عالم الرساميل)، الذي دمر الجنوب وعمم فيه كل ما استطاعه من خراب، يستعد الآن- بقواه المختلفة المقبلة على صراعات مريرة بحكم طبيعتِهِ ذاتها وما أصاب هذه القوى من أزمات بنيوية شاملة- لإعادَة صياغة التوازنات والعلاقات بين هذه القوى المأزومة . وهنا تلعب الترسانات وحجوم " آلات الحرب" العاتية أدواراً رئيسية في الحفاظ على مصالح أصحابها، كل على حدة!.... وبانتظار التفجرات الحتمية المقبلة!!

إنه إذاً (النظام العالمي الجديد) كما صاغته إدارة الذراع الأخطبوطي الأميريكي وفقاً لمقتضيات مصالح هذا الذراع، و" بالتحالف الذي يأخذ طابع الاشراف " مع الذراع الشايلوكي . فتصور الدفاع عن المصالح، والقائم على أنظمة الأسلحة، لم يستبدل في" المدى الاستراتيجي"... وإنما يؤجل استعماله المباشر تأجيلاً مؤقتاً وحسب.

ولكن- وفي حدود المنظور العام لقيام الدولة الأصولية الصهيونية، وحدود أهدافها الاستراتيجية المعروفة- ما معنى عبارة: (الدفاع الوطني)؟! أو ليست الحقائق المتعلقة بإنشاء تلك الدولة- حقائق تاريخها وحقائق ممارستها- تفرض على كل من يملك ذرة عقل في رأسه أن يضع عبارة (الهجوم المصلحي الصهيوني) محل تلك العبارة؟!

بلى!... وبدون أدنى تردد أو شك!! فالواقع يظل هو الواقع مهما حاول المرء أن يزينه أو يزوقه بالأوصاف والطلاءات المفبركة المنمقة... ومهما حاول أن يصطنع، لإقناع الناس بنسيانه، من تبريرات وتمريرات!!

وعلى هذا الأساس، وباعتبار وطننا العربي قد تعرض - امبريالياً- لأقسى وأشنع عمليات التدمير والنهب والتخريب والتفكيك والتفتيت، ماذا تعني مصطلحات من نوع (الاتفاقيات السياسية .. والاعتبارات الاقتصادية) حين تستخدمها إدارة الدولة الأصولية الصهيونية- ومعها الإدارة الأميريكية وتوابعها أيضاً!- على لسان السيد الجنرال الذي كان حتى البارحة يحترف الحرب، بكل صنوف الأسلحة، على أية محاولة عربية للنهوض ولملمة الذات من أصناف الخراب الذي ألحقه بنا الرأسماليون طوال قرون هيمنتهم الملعونة؟!

إننا سنؤجل الإجابة على هذا التساؤل . فمناقشة ما تبقى من "أطروحات" السيد الجنرال الوزير هي وحدها الإجابة الكافية المطلوبة!

أما عبارته حول اعتماد المواقف (الأقرب إلى الحقائق الجديدة) فإن وضوحها كلياً يعتمد على مجرد تذكر دور الذراع الشايلوكي في التحالف الرأسمالي الأميريكي / الصهيوني كيما تفرض أميركا على " حلفاء الأمس / خصوم الغد" أن يعملوا فوراً - وقبل أن يتمكنوا من الوقوف على سيقانهم

منفـــردين!- على تقـــديم كل المســـاعدات المطلوبة لها كي تســتطيع تفكيك أزمتها البنيوية العاصــفة... ولأن منطقتنا هي " قلب العــالم" فعلاً بمختلف المقــاييس فــإن هجــوم (النظــام العالمي الأمريكي الجديد) على أولئك " الحلفـاء/ الخصـوم" قد بدأ منها... وينتهي فيها! وهذا هو جـوهر الحقـائق الجديـدة الـتي يتبجح سـعادة الجـنرال الـوزير بأنه قد " اعتمـدها"، كأنما هو لا يريد إلا تقـديم " خدمة لوجه اللـه!!" لمن يعتـبرهم "جيرانـه!" الـــذين لم يكونـــوا يومـــاً إلا ضـــحاياه، وضـــحايا تجربة جيله الأشكنازي التي يتبـاهى بأنها تجربة غـير مسـبوقة كما سـمعناه يهرف قبل قليل.

منطقتنا إذاً، بموقعها ومواردها الحيوية الهائلــة... بشـــرها وإرثها الحضــاري المختلف كلــه.. هي الآن- أكــثر من أي وقت مضى- بؤرة التركيز في عملية الإعداد والاسـتعداد للصـراعات القادمة بين مختلف الأذرع الرأسمالية الامبريالية . والجنرال هو " المبشر" الفاعل- وبأسـلوب جديد مختلف ومهـام مختلفة عن الأسـلوب والمهـامّ التبشـيرية الأولى لجيله كما وصفها!- حـول "واجبنـــا!" في الانخـــراط القســـري مع الحلف الأمـــيريكي / الصهيوني كضحايا للمحرقة القادمة الـتي لابد منها في طقـوس عبـادة "العجل الـذهبي" العالميـة!.... أفليس من حقنا إذاً أن نصرخ محتجين متوجعين: إنه مفترق الجحيم؟!

ولكن، ما قيمة الصراخ المتوجع في برية كل هـذا الخـراب، وخطط المزيد من نشر الخراب ؟! فلنؤجل ذلك إذاً، ولنتابع مع الجنرال المبشر، لنستكشف- من فمه- صورة هذا المفترق نحو ما يرسمونه لنا، وعبرنا، من جحيم!

-2-

هل ينبغي أن نتوقف عند تحليله لســـــقوط نظريـــــات (المدرسة الدفاعية التقليديـــة) من وجهة نظر عســكرية، حيث يــدير حــديثاً يكــاد لا يعنينا عن الصــواريخ البالســتية وتجاوزها لجغرافيا الدفاع وللاستحكامات وحشد القوات .. إلخ؟!

في الحقيقة يجب ألا يعنينا - نحن هنـا- في شـيء كل هـذه الـثرثرة الـتي لاعلاقة لها بصـلب الموضـوع إلا من حيث كونها تـبريراً مـزوراً لما يريد تمريـره من ضـرورة (عقد المعاهـدات والاتفاقيـات الثنائية والمتعـددة) الــتي تحــول دون اســتعمال الأسلحة غير التقليدية .. حتى يستنتج مايريد أن يستنتجه: (على البلـــدان، في أي منطقـــة، التعـــاون لمواجهة الخطر النـــووي والبيولوجي والكيميائي.. إن المفتاح للحفاظ على نظام إقليمي أمن وعادل يكمن في النواحي السياسية والاقتصـادية أكـثر منه في امتلاك القــوة العســكرية . وفي عالمنا اليــوم فــإن تــأمين مسـتوى معيشي عـال يتطلب علاقـات تجارية وحـدوداً مفتوحة واعتماداً على العلوم والتكنولوجيا) ص 35

إن ما نريد أن يكون واضحاً للقارئ دوماً هو أن هذا السـيد

الـذي يغـير بـذة الجـنرال بجبة المبشر الواعظ يجب أن يؤخذ حديثه المعمم عالمياً بمقصوديته الخصوصـية - أي بكونه يحكي عن منطقة الشـرق الأوسط أساسـاً- وعليـه، فـإن ما يجب أن نفعله هو أن نـدقق في ما يشـير إليه الفقـرة السـابقة دون أن تقوله. فحين يكـون المـرء موضـوعاً على مفـترق الجحيم فـإن عليه أن يراقب كل حركة وكل إشـارة أو لفظة من الخصم كي يستطيع تحديد النقطة التي سيدفعه منها إلى الهاوية المختـارة، فلا يتركه ليأخذه في غفلة .. على الأقل!

مبدئياً يعرف الجنرال أن أسلحة العرب كلهم محدودة، وأن أسـلحة (دولتِـهِ الأصـولية الصـهيونية) هي الأقـوى بترسـانتها الخاصة والمفتوحة بلا قيد أو شـرط على الترسـانة الأميريكية العاتية. وإذا كان هنا لا يلوّح في وجوهنا باحتمال تكرار (الـدرس العراقي) في مكان عربي آخر، بل يحـرص على رش مزيد من (بهارات) الكلام والمصطلحات الخلابة على اسـتنتاجه السـابق، فإن هذا لا يعني أنه ضمنياً لايأخذ التلويح به في حسبانه، بل إنه سـوف يـذكر كلاً من ليبيا وإيـران بالاسم في سـياق كلام آخر حافل بالتهديد المبطن.. وضمناً : سورية، كما سيلمح لاحقاً في أكثر من مكان، وكما سيصرح هو وسواه في أكثر من مناسـبة! والمطلـــوب حسب اســـتنتاجه أعلاه هو تجريد المنطقة من السلاح النووي والبيولوجي والكيماوي. لكننا نسأل بـدورنا : من المطلوب تجريده من هذه الأسلحة إن وجدت ؟!

إن الجواب البسيط هو: تجريد الجميـع، ما عـدا (إسـرائيل)[*]. فإسرائيل هذه تطالب فعلاً بذلك، ولا تعترف بتاتاً بأنها تملك سـلاحاً نووياً رغم أن العـالم كله بـات يعـرف ذلـك. بل إنها لم توقع بتاتـاً على معاهـدة "حظر انتشـار الأسـلحة النوويـة" المعروفة. وهـذا لا يعـني سـوء النية المبيتة وحسـب، بل يعـني أيضاً- وأساساً- أن ترسانة "الوطن القومي!" للذراع الرأسمالي الصـــهيوني يجب أن تبقى وتتعـــزز في إطـــار الهيمنة على المنطقة-ولو شراكة مع أميريكـا- باعتبـار المشـروع كله مقدمة للوصول إلى الحلم الصهيوني الأعلى: الإمبراطورية العالمية.

وهكـذا يكـون وصف النظـام الاقليمي المطلـوب : (بـالآمن والعادل) في تعبيرات الجنرال/ المبشر ما هو إلا "رش بهـارات" كلاميـة. فهـذا النظـام الإقليمي مطلـوب أن يكـون "آمنـاً" بالنسـبة للدولة الأصـولية الصـهيونية وحـدها .. فيما هي تبـدأ خطـوات دورها الجديد هنا في إطـار المتغيرات العالميـة، وفي وسط مستجرات الخراب العربي التي كان وجودها الاستيطاني أحد أهم أسـبابه المباشـرة . أما كلمة (عـادل) فهي للتصـدير حصـراً إلى العـرب حيث يعتمد زجها في السـياق على قابلية انخـداعهم وتصـديقهم بإمكانية حـدوثها، نظـراً للمسـتجرات السيكولوجية الصعبة للخراب الـذي يعـانون منـه.. أما صـهيونياً

---

[*] (*) سنرى لاحقاً صحة ما نقوله هنا، حيث الجنرال المبشر ينتكر تماماً لما يقوله هنا عن مفهوم (العمق الاستراتيجي)، فيعود إلى المطالبة ببقائه لدولته ممتداً من البحر حتى نهر الأردن.. حفاظاً على ما يسميه (أمن إسرائيل)!- انظر الفقرة الخاصة بمناقشة أفكاره عن (الكونفدرالية) في الفصل الأخير من كتابنا هذا.

فالكلمة يمكن - أو إنه يجب- حذفها، ولن يكون هناك أي خلل . إذ منذا الذي يتوقع من آلية عمل رأسمالية كثيفة- حسبما في خطط الهيمنة الإجمالية المباشرة على المنطقة- أن يكون فيها أو وراءها أي عدل للمجتمعات التي ستتم الهيمنة عليها إن حدثت، ولم تورَّد لها آلية العمل تلك إلا لنهبها، وابتزاز مواردها في أعلى صيغة ممكنة، وضمن شروط الصراعات العالمية الكبرى القائمة؟!

وعليه، فإن الوعد " بحلوى" (تأمين المستوى المعيشي العالي) إنما هو مجرد إغراء من نوع تغطية السم بالعسل.. أما السم فهو تأمين المطلب الصهيوني / الأمريكي المشترك والمتمثل في (العلاقات التجارية التنافسية، والحدود المفتوحة والاعتماد على العلوم والتكنولوجيا) حسب كلام السيد الجنرال/ المبشر!.. وهذه المسألة بالذات تتطلب وقفة خاصة بالغة التأني، ومناقشتها استناداً إلى وضع كل من الطرفين المتعاملين وفق تلك العلاقات المحتملة المطلوبة!

أ- تقول عبارة (العلاقات التجارية التنافسية) أطروحة خطيرة على "المصير العربي" من حيث المبدأ . إنها في الجوهر تقوم بوظيفة مفهومية بالغة الدقة، ملخصها ليس نسيان ماضي القضية برمته وحسب، بل أيضاً تجاهل مستجراته التي لاتزال قائمة كمشكلات لكل منها طابع المعضلة المستعصية: من مشكلة ملايين اللاجئين إلى مشكلة الاستمرار في احتلال غالبية الأرض المحتلة بعد عام 1967 وما بينهما من قضايا متشابكة وخطيرة.

وإذا كان السيد رابين ذاته قد نفى بأن يكون هناك شيء اسمه القرار/ 425/ الذي إتخذته الأمم المتحدة بشأن الانسحاب من (الشريط الأمني!!) المحتل في جنوب لبنان، وذلك في معرض رده على مقترحات رئيس جمهورية لبنان الذي طلب تشكيل لجنة مشتركة لتنفيذ القرار المذكور في مستهل الشهر الحادي عشر من العام 1994... فإن وزير خارجيته السيد الجنرال المبشر قال في خطابه بمؤتمر الدار البيضاء:" لم تعد الأرض مهمة، بل المهم هو الإنسان(!!) والرفاه في ظل الأوضاع العالمية الجديدة[*] هكذا .. أي نعم!!!

ما هي هذه (الأرض التي لم تعد مهمة) في نظر السيد بيريس إذا ما قرنّا كلامه هذا برد الجنرال الآخر رابين على اقتراح رئيس الجمهورية اللبنانية؟!... الجواب واضح ببساطة- مع ملاحظة أن كلام الجنرالين: رئيس الوزراء ووزير خارجيته، متواقت ومنسق- وهو: أرضنا العربية كلها، المحتلة بعد عام 1967 والتي لم يجر احتلالها كلها- من المغرب إلى المشرق- هي التي يجب أن نعتبرها غير مهمة!.. وهم يقولون لنا ببساطة أكبر:" ما أخذناه أخذناه،

---

* (*) نص العبارة كما وردت في خطابه في ذلك المؤتمر، وحسبما تناقلته أجهزة الإعلام: (في عصر العلم والتكنولوجيا يجب أن نعترف بأن الأرض لم تعد مهمة .. بل المهم هو كيف نحقق رفاه الإنسان).

وصار ملكاً لنا بقوة الأمر الواقع، فتعالوا نتشارك على ما تبقى، ونعدكم بالرفاه.. وعلى أي حال فالمستجدات الدولية تفرض عليكم مشاركتنا في الأرض المتبقية شئتم ذلك أم أبيتموه"! هل هناك تفسير آخر إذا جمعنا أقوال الجنرالين والوقائع القائمة في الممارسات الصهيونية اليومية لحكومة "الدولة"؟! على أي حال فإن الجنرال سيشير صراحة في الفصول اللاحقة إلى بعض من ذلك!!

لكن الأرض ليست مجرد تراب وجغرافيا. الأرض هي وطن ميراثٍ حضاري عربي مختلف القيم جذرياً عن نظيره الغربي/ الصهيوني الرأسمالي، وما سبق الرأسمالي!... والأرض هي حامل بنى مجتمعية خاصة وشبكات علاقات وأحلام وآمال وطموحات مستقبلية ترتبط بتلك البنى- رغم كل ما أوقع بها من تخريب رأسمالي- ارتباطاً يتقاطع جذرياً مع طبيعة الفعالية الربويّة للرساميل، إذ الربا محرم نصاً في الشريعة التي تولدت منها هذه البنى في الحاصل الأخير.... وفوق ذلك وقبله فالأرض هي كنوز الموارد المطمورة التي تخص أصحابها في الأصل لاسواهم! هذه هي الأرض التي لم تعد مهمة في نظر الجنرالين، والتي يجب علينا مشاركتهما فيها، أي تدميرها تماماً، لصالح (الإنسان والرفاه) .. أما أي إنسان ؟ وأي رفاه؟...فذلك ما لن يبخل السيد الجنرال الوزير بالتعتيم عليه في سياق كتابه، وبعبارات نعترف لها بعمق الفهلوية فعلاً!

إذاً " الوظيفة" التي تنطوي عليها مفومياً عبارة (العلاقات التجارية التنافسية والحدود المفتوحة) هي وظيفة الإلغاء التاريخي للهوية الحضارية العربية عن طريق تدمير ما تبقى لها من "ظلال" ومرتكزات، ثم إعادة صياغة البشر المنتمين إليها وفق مقتضيات آلية السوق !!

إنهم يقولون لنا بدهاء : لقد تمت مرحلة هزيمتكم بالسلاح والاحتلال الجغرافي والتخريب الديمغرافي، والآن ستبدؤون معنا -بالقوة- مرحلة السماح لنا بهزيمتكم حضارياً، وبصورة نهائية، عبر (مباراة سلمية!) وفقاً لقواعد فعاليتنا الرأسمالية!... وإن هذه لهي النقطة التي سيدفعون بنا منها إلى الهاوية من مفترق الجحيم، إن تمكنوا من تنفيذ مخططهم الجديد/ القديم في الواقع!

ب- دعونا نفترض أننا أخطأنا في حق " صاحبنا!" الجنرال، واصطنعنا " وظيفة" لم تخطر له إطلاقاً... وتعالوا نفكر معاً كيف يمكن أن تتم مثل هذه المباراة التجارية التنافسية المقترحة علينا.

لا يستطيع السيد الجنرال- ولا غيره- أن ينكر أن (دولة إسرائيل الحديثة!)، التي أنجزتها " تجربة جيله"، تستند كلياً إلى الرأسمال اليهودي العالمي الذي قلنا إنه يشكل أحد الأذرع القوية في البنيان الرأسمالي الإجمالي. والرأسمال اليهودي ذاك داخل في شبكة علاقات واسعة وصميمية مع

بقية الرساميل الغربية والأميركية منذ تكونها البدئي، الأمر الذي يعني خبرة قرون في آليات التجارة التنافسية المالية والسلعية وأساليبها والاعيبها .. فأين هي الرساميل العربية الموازية - سواء في القوة أو في الخبرة- والتي ستخوض تلك المباراة المقترحة؟

إن الرساميل الوطنية العربية- بسائر أشكالها وتوضعاتها وعلاقاتها- هي رساميل ضعيفة، وتابعة بحكم آلية عمل السوق الرأسمالية العالمية، وهي بالتالي هامشية وذات منشأ متخلف بحكم فعالية النهب الخارجية المزمنة.. وبحكم أنها ليست حتى ذات " دورة قومية متكاملة".... وتكويناتها في الحقيقة أقرب إلى أن تكون- عموماً- طفيلية وعرضية. والسؤال هنا هو: أية مباراة هذه التي يمكن أن تقوم بين عملاق وقزم ؟! أم إن السيد الجنرال الوزير لا يريدنا إلا أن "نغمض أعيننا" أو نعميها عن رؤية سائر الحقائق؟!!

غير أنه يجب أن نتذكر أن كلمة" تنافس" في صلب بنيان الرأسمال وميكانيزمات فعاليته، إنما تعني جوهرياً "تصارع المصالح" إلى حد إعلان الحروب.. أو يستسلم الضعيف للقوي فيأكله وفقاً لقوانين "غابة السوق" وقاعدة : بقاء الأقوى!..

وهذا هو أحد (أطباق الوليمة الشهية!) التي " يتفضل " السيد الجنرال الوزير بدعوة ما يمثله من قوى رأسمالية عالمية إليها، بينما الرساميل الوطنية العربية هي التي عليها أن تقوم بالخدمة، وأن تسدد فاتورة الحساب أيضاً!

إذاً الرساميل الوطنية العربية- شأنها شأن الموارد والطاقات العربية، وشأن هويتنا الحضارية إجمالاً- مهددة كلياً بأن تبتلع وتدمَّر، وفق ما يبشِّر به الجنرال الوزير . لكن " إعداد الوليمة" ثم عملية تناولها لا تسير- ولا يمكن لها أن تسير- في "خط مستقيم" وباندفاعة السهم. إنها بدورها "عملية تاريخية" كبرى، وحلقة وسيطة باتجاه تحقيق الحلم الأمبراطوري العالمي الصهيوني / التلمودي انطلاقاً من عملية إنجاز الأمبراطورية الاقتصادية في الشرق الأوسط. وهذه " الحلقة الوسيطة"، بين إنشاء الدولة وتحقيق حلم الامبراطورية العالمية، تحتاج من أجل نجاح إنجازها إلى (أدوات ترويج عربية) .. أي : إلى شركاء صغار في التمويل، وسماسرة صغار في الحركة، مثلما تحتاج إلى الأيدي العاملة العربية الرخيصة، كي تأخذ "المظهر" الوطني / القومي الذي لا بد منه بدئياً .. إذ لا أحد ممن يخططون لتلك (العملية الكبرى)، أو ممن يشاركون في تنفيذها، قادر على تجاهل الصراع المضاد لها وقوى هذا الصراع : العربية والإسلامية- وربما العالمية، من يدري ؟!- فالصراع مستمر أصلاً، وسيستعر كلما تكشفت الأبعاد الأوسع للمخطط، وكلما جرى تقدمه خطوة إلى أمام رغم كل التفتت والخراب اللذين حاقا بالمنطقة،

وعمقها الإسلامي، وميادين تحالفاتها الممكنة عالمياً.

وبالطبع، وكمستلزمات لابد منها في تحـرك مخطط هـذه " الحلقة الوسيطة" في الحلم الصهيوني نحو النجاح، لابد من أن تـترك الرسـاميل الشـايلوكية لشـركائها وسماسـرتها المحلـيين الصـغار بعضـاً من (فضـلات الوليمـة) مثلما لا بد من تخصيص فتاتها للإبقاء على حياة الأيـدي العاملة العربية التي ستدير (آلات المطبخ) وتشرف - إجرائياً- على حركتها وتخديمها تخديماً ناجعاً. وهنا نضع أيدينا على سر ما يسـميه بيريس: رفاه الإنسان!

إذاً، إن التخريب الذي مورس علينا خلال قـرون : اقتصـادياً واجتماعيـاً وسياسـياً وقيميـاً وسـيكولوجياً، يوظّف الآن في إطار " نقلة عملياتية " باتجاه الحلم الأمـبراطوري الأعلى، حيث ستبدو كل (لقمة إضافية) تحصل عليها القـوى العاملة العربية بمثابة المكسب العظيم!... وهكـــذا لا ينقـــرض العــرب كــأفراد، لكن بقــاءهم الــبيولوجي المحض تتحــول وظيفته: من أطر الفعل باتجاه التقدم عبر محـاولات إحيـاء هويتهم الحضارية المبدعة، ومشـاركتها الخلاقة في مسـيرة الحياة البشرية الإجماليـة، إلى أطر الخدمة " كعبيد للّقمـة" في سياق المسيرة نحو الحلم الصهيوني الأعلى الـذي لابد له من إلغاء تلك الهوية كشرط جوهري لتحققه الفعلي.

ذلك هو مفــترق الجحيم الــذي يبشــرنا به الســيد بــيريس مزوّقاً غاية الـتزويق، وتلك هي نقطة الانـزلاق إلى الهاوية كما ترسمها (الإدارة الصـهيونية العليـا) في المخطط الـذي وضع اسم هذا الجـنرال عليه للتضـليل! ويلاحظ القـارئ هنا أننا قد فصـــلنا- بالنســـبة للحلم الصـــهيوني الأعلى- بين الصهيونية، وبين حليفها الأميريكي. فنحن نعتقد ببساطة أن (الإدارة العليـا) للـذراع الرأسـمالي الصـهيوني تعـرف بدقة حجم الأزمة البنيويّة الأميريكيــة، مثلما تــراقب بتحفز تزايد الميول الداخلية لـدى" الخليط الاجتمـاعي الأمـيريكي" إلى انســـحاب أميريكا وإنكفائها الاكتفـــائي داخل حـــدودها الجغرافية.. أو على الأقل: داخل حدود مصـالحها القاريـة... بل إن تلك الإدارة الصـهيونية العليا ربما تـراهن على حتمية حدوث ذلك الانسحاب الاكتفائي الأمريكي في وقت قريب؛ هـذا إن لم نقل إنها ضـالعة في التخطيط لـذلك الانسـحاب المـرتقب.. وحـتى على تفـتيت أميريكا ومحاولة الحلـول محلها عالمياً حينما تسنح الفرصة لذلك!

وقد يؤخذ علينا هذا القول باعتباره من باب "شطح الخيال" أو الميل الواهم إلى تضخيم قوة الصهيونية العالميـة. ولكن .. هل نجد العـبرة في الـدور اليهـودي، وفي شـبكة علاقاته الســرية الــتي كــان لها نصـيب كـبير مما حــاق بالاتحــاد الســـوفييتي من انهيـــار؟! أم هل علينا أن نجـــتزّ ما صـــار معروفاً من تاريخ ذلك الدور، ومنذ الثورة البورجوازية على القيصرية في عام 1905؟!!

جـ- إن العلاقـات التجارية التنافسـية عـبر الحـدود المفتوحـة- للرساميل والعمالة والبضائع، حسب البيان الختامي لمؤتمر الدار البيضاء وفقاً لتبشير السيد الجنرال بيريس، تشـترط فعلاً ما أثبته من :(الاعتماد على العلوم والتكنولوجيا).

والسؤال الذي يطرح نفسـه- تأسيسـاً على ما أوردنـاه في البند السابق رقم

ب- هو: من أين لمجموع العـرب بـرمتهم تلك "القـوة العلميـة/ التكنولوجيــة" وخبراتها الموازية لقــوة وخــبرات الــذراع الرأسمالي الصهيوني / الأميركي المشترك، والـذي ليست دولة (إســرائيل الحديثــة!) إلا"محطــة" ومنطلقــاً لتمرير فعاليته في أطرها الجديدة المرسومة؟!

لا يحتاج السؤال إلى إجابة، فإجابته متضمنة فيه. وقد يقـال : إننا سنكتسب تلك القــوة والخــبرات عــبر "تعاملنا " في سياق العلاقات التنافسية المطروحة. وربما بدا هذا منطقياً جداً ما دامت المسألة مسألة صـراع مفتـوح دون أسـلحة وحــروب . ولكن، دعونا نتأمل جــوهر هــذه القضــية في جـذورها الواقعيـة: إن القـوة والخـبرة في مجـال العلـوم والتكنولوجيا تسـتلزم وجـود بنيـات اجتماعيـة/ اقتصـادية/ قيمية حاملة لهـا، مثلما تسـتلزم وجـود شـبكة علاقـات مع القوى الرأسمالية الفاعلة عالمياً.. وجوداً يــوفر الحد الأدنى من التوازن بين الأطراف التي يجري بينها التنافس التجاري الحر المفتوح، في الصيغة التي يطرحها علينا السيد المبشر الصهيوني بيريس.

فــإذا نظرنا في البنيــات القاعدية الاجتماعية / الاقتصــادية العربيــة- بعد تخريبها المــزمن بضــغط مختلف الأشــكال التاريخية للفعالية الرأسمالية الابتزازية- فما الذي سنجده؟! إن استخراج النفط وبعض الصناعات التحويلية الخفيفة هي أرقى صيغة سُمح لنا بهـا- رأسـمالياً- في مجـال التكنولوجيا وقــوة العلــوم المؤسِّسة لها . وهــذه القاعــدة التصــنيعية البســـيطة ليست متخلفة وحسب عن نظائرها في مراكز الرسـاميل وحصــونها، بل هي أيضــاً تابعة - وحــتى مغرَّبة بنســـبة كبـــيرة- ناهيك عن أن حجم البنيـــات الاجتماعية المرتبطة بها هو حجم ضــئيل قياســاً إلى مجمــوع بــاقي البنيــــات الاجتماعية / الاقتصـــــادية العربيـــــة، الرعوية والزراعيــة.. وكل هــذه البنيــات "متخلفــة" في المنظــور العالمي العام، مع تجاوزنا لكل ما حاق بها من تخـريب، وما كـان لهـذا التخـريب من مسـتجرات ومنعكسـات منظـورة وغير منظورة!

إن بنيــات كهــذه، في مواجهة بنيــات مســيطرة علميــاً وتكنولوجياً، لن تكون قـادرة على خلق "معجـزة!" التـوازن المطلوب بين طـرفي المنافسة المـذكورة.. إطلاقـاً ! فعن أية منافسة تجارية معتمـــدة على العلم المعاصر وتطبيقاته التكنولوجية المذهلة يحـدثنا هـذا السـيد الجـنرال ومن هم

وراءه من دهـاقين الصـهيونية، ومن التحق به وبأطروحـات "تبشيره" من العرب المؤتمرين في الدار البيضاء؟!

وإذا عــدنا فتــذكرنا المنظومة القيمية لفعالية الرســاميل تاريخياً، حيث البراغماتية التي تستهدف الـثروة والمزيد من تملكها على أسـاس الـدورة الربوية لـرأس المـال، فكيف يمكن للرأسمال الوطـني العـربي أن يـدخل في منافسة لا تسـتطيع إلا أن تعتمد تلك الـدورة الربويـة.. بينما هـو- أي الرأسمال الوطني العربي- يسـتند إلى حامل اجتمـاعي يقع "تحريم الربا" والتعامل الربوي، نصاً، في أسـاس منظومة قيمه الحضارية التاريخية الموروثة؟!

قد يــردّ أحد علينا بــأن التجــارة حلال، ومشــجَّع عليها في أســاس منظومة القيم العربية الإســلامية المــذكورة . وسـنقول من جانبنا : نعم، هـذا صـحيح . ولكن ثمة فـرق جوهري وجذري بين التجارة وفق نمط الفعالية في السـوق الرأسمالية عموماً، وبين "تجارتنـا" المنحصـرة في حـدودها القطرية في سـائر أرجـاء الـوطن العـربي. إن التسـمية الواحــدة لا تعــني، في النهايــة، وحــدة الأســلوب والفعل والغايات والعلاقـات وقيم التعامـل. وشـتان ما بين أشـكال التجــارة العربية المحــدودة- والبســيطة إلى درجة أن الإجمالي في سـماتها العامة لا يزيد عن كونها تطـوراً أوليـاً سـاذجاً للتبــادل الســلعي، وأنها عمومــاً نــوع من فعالية التوسط الطفيلي غير القادر على تـركيم رأسـمال مسـتقل ونــاجع الحركــة- وما بين التجــارة الرأســمالية الكــبرى والمهيمنة في سوقها العالمية.

إن المنافسة المطروحة علينا من قبل السـيد بـيريس لهي عملية جــرٍّ إلى متاهة ما هو مســتحيل، ناهيك عن أنها تقتضي هدماً كلياً لمجموع النظـام القيمي للحضـارة العربيـة، وبالتـالي لهويتنا المخصوصة كتركيب اجتماعي / ثقـافي / قـومي متمـايز في إطــــار إيجابية إنســــانية لماضــــيه ولطموحاته الراهنة والمستقبلية. إنها باختصار تقتضي هـدم أسس موجوديتنا الـتي تشكلت في إطار انتفـاع الإنسـان بـالثروة الـتي هي ملك اللـه: كوسـيلة لاندراجه روحيـاً في جـوهر كينونة الكـون الكليـة.. إنها تعيد- أو هي تطلب أن تعيد- تشكيل كل شيء فينا(كعبيد لثروة الآخـرين) ووفقـاً لما عرضـنا له قبلاً من طموحـات فعـاليتهم الابتزازية البراغماتية.

ومــــرة أخــــرى، هو ذا " وجه العملة " الآخر من مفــــترق الجحيم الــذي يــرمي المشــروع الصــهيوني البيريسي إلى أن يقودنا - عبره - نحو هلاك تاريخي/ حضاري نهائي.

-3-

يقول أحد الأمثال العربية الشائعة : إذا كنت لا تستحي فأفعل أو قل ما تشاء.

ويقول مثل آخر: فلان يقتل القتيل ويمشي في جنازته.

والمثلان معاً ينطبقان بدقة على السيد بيريس في ما يهرف به- بعد أطروحته السابقة بخصوص المنافسة المفتوحة من أجل رفاه الإنسان!- حول تاريخ منطقتنا في هذا القرن، خصوصاً بعد (التجربة المعجزة!) له ولجيله في إقامة (إسرائيل الحديثة!!).. وحول الإسلام، حسبما يراه حضرته، وحول "خطورة !!" تسلح بعض الدول العربية والإسلامية، كيما يقودنا قوداً إلى حيث يريد.. الأمر الذي سنكشفه جيداً في فقرة لاحقة.

وإذا كان اليهودي النمطي مشهوراً عالمياً بتزويره للحقائق والوقائع وفق ما يناسبه، إضافة إلى كونه (شكاء بكاء) من ظلم الآخرين له حتى وهو يقتلهم أو يبتزهم، فإن السيد بيريس - وهو يُدبِّج صيغة المشروع الصهيوني الجديد بصورة تجعلها قابلة للتسويق- يبدو الممثل الحي لذلك اليهودي النمطي في أعلى نماذجه الخداعة الشكاءة! يقول الجنرال:

(مع اختفاء الاستعمار في النصف الثاني من القرن العشرين تعاظم التورط في أحداث الشرق الأوسط، ومحاولات السيطرة على المنطقة . وتوالت الحروب العربية الإسرائيلية لتتسبب في سباق مرهق للتسلح، مما استنزف موارد المنطقة في إقامة بنية عسكرية .. واستهلك القدرات الاقتصادية والاجتماعية للأقطار ذات الصلة . وهكذا توقف تقدم المنطقة .. وفي أجواء يسودها اليأس والإحباط وجد الكثير من الناس متنفساً لهم في الغيبيات..رافضين الدولة العصرية ومغرقين أنفسهم في الأصولية الدينية وهي من أبرز العوامل التي تهدد استقرار وأمن المنطقة .. خاصة وأن أكثر من مليار مسلم ينظرون إلى الشرق الأوسط كمصدر للحياة وأساس للإيمان) ص35-36.

ثم هو يعترف بوجود الحضارة العربية وبطريها- وثقافتها الإسلامية- بأقل من ثلاثة أسطر ليخلص إلى القول:(أما الآن، وفي ظل لجوء العديدين إلى الأصولية، نشهد حركة إسلامية تسعى إلى مناهضة الفتح والثقافة الغربية، وتعمل على التراجع عن التحديث والعصرنة، وتدعو إلى القوة لإقامة جمهورية إسلامية سلطوية قمعية على النمط الإيراني. لقد ازداد التهديد الأصولي خطورة في الفترة الأخيرة بامتلاك إيران القدرة النووية. والسؤال هو: هل يمكن للمتطرفين الذين يعتقدون بأنهم يحملون مفاتيح السماء أن يتصرفوا بتعقل إذا ما امتلكوا السلاح النووي؟) ص36-37، ثم يتطرق إلى محاولة العراق لامتلاك ذلك السلاح بعبارة واحدة، ويدمج ليبيا مع العراق وإيران ليحرض العالم كله على هذه الدول الثلاث باعتبارها جميعاً (متطرفة دينياً!!) ومهددة للسلام العالمي، لأن المتطرفين المذكورين يخلطون بين الأسلحة النووية وبين الأصولية الدينية!... وبعدها يعود إلى الربط بين التطرف والأوضاع الاجتماعية في البلدان العربية وبين قضية الديمقراطية على الطريقة الغربية. وهذه النقطة الأخيرة سوف نعالجها في الفقرة اللاحقة.

فلننظر الآن: كيف يفكر الجـنرال؟ وكيف يـزور الحقـائق؟! وإلى ماذا يرمي في النتيجة من وراء أطروحاته؟!

لنلاحظ أولاً مسـألة (تعـاظم التـورط الغـربي في أحـداث الشرق الأوسط، ومحاولة السيطرة على المنطقة) بعد إختفـاء الاستعمار- هنا سنسمح له بكذبة الاختفـاء هـذه!- ولنسـأل : مع من تورط الغرب في أحداث الشـرق الأوسـط، حسب عبارتـه، مع العرب خصوم الكيان الاستيطاني أم مع دولة هذا الكيان؟

هل هذا السؤال بحاجة إلى إجابة؟!. بالتأكيد : لا، فـالجواب أوضح من أن يحكى فيه. وهو نفسه يقـول في فصـله الأول إنه رسم برنامجـاً للتعـاون الاقتصـادي (الشـرق أوسـطي) بين حكومته وحلفـاء دولته من الأوربـيين حيث (حفز ذلك البرنـامج مخيلاتهم!!).. أما أميريكا فهو يشـــيد بها كحليف أقـــوى على امتـداد كتابه كلـه. ولكن الجـنرال يريد من وراء هـذه الأطروحة الدجالة أن يساوي بين (إسرائيلِه الحديثة!) وبين الـدول العربية والإسلامية التي كانت - ولا تزال- موضوعاً للنهب والابـتزاز من قبل الغرب بشراكة صهيونية كاملة.

نعم..إن الغـرب صـنع كل أحـداث "الشـرق الأوسـط" - بصورة مباشرة أو غيرمباشـرة- ولكنه لم يكن متورطـاً حسب التعبير الماكر للسيد بـيريس، بل كـان يفعل ذلك ليـؤمن هيمنته وابـــتزازه للمنطقة عن طريق "مخلوقِـــهِ" الـــذي وطنه فيها (إسـرائيل!)، بصـورة أساسـية حين يختل شـيء من شـروط الهيمنة والابتزاز المذكورين.

والتزوير السـابق، الـذي يسـوقه الجـنرال إلى عقولنا الـتي يفترضـها- حضـرته- قاصـرة، يتضـمن الشـكاية المـاكرة من "حلفائـه"- لاحظـوا ذلك جيـداً-: إنهم يحـاولون السـيطرة على المنطقة .. وهو الآن قد "تنبه" إلى الأمر، فهب إلى إنقاذنا عـبر مشـروعه الشـرق أوسـطي . فيا للروعة الـتي يقـدم لنا وسط ضجتها الاحتفالية كل هذه الجرعة من السم!

إن مثل هـذا الـتزوير والخلط التناقضي ضـروري له هنـا، باعتباره "المفتاح" السحري الذي يوفر له الدخول عـبر بوابة ما هو الأهم. وحلفاؤه لن يزعلوا بسبب كلمـات لا تقـدم ولا تـؤخر. أليس متفقاً معهم جميعاً على برنـامج للتعـاون الاقتصـادي في عمـوم الشـرق الأوسـط، أي : على إعـادة اقتسـام غنـائم هـذه المنطقـــة.. كل حصة حسب وزن صـــاحبها في معـــادلات المستجدات العالمية؟!

على أن الأهم بالنسبة للجنرال هنا يتجلى في أمرين اثنين:

1- توكيد أصالة وجود دولتهِ في المنطقة.

2- فتح النار على دول عربية وإسلامية ليعطي بـذلك دروسـاً للـدول العربية الأخـرى الـتي قد تحـاول مقاومة مشـــروعهِ. والتهمة هي: الأصـــولية، وخطـورة سـلاحها النـووي - هكـذا!!- على السـلام العالمي!....

وبالتالي تحضير العالم لتقبل عـدوانات عسـكرية صـهيونية- نووية وغير نووية - محتملة في المنطقة،إذا ما ارتـأت المصـالح الصهيونية ذلك.

وربما من غـــير المفيد أن نتوقف عند عبارته :(تـــوالت الحروب العربية الاسرائيلية لتسبب سباقاً مرهقـاً في التسـلح) فواقع الحـال أنه كـانت هنـاك حـروب صـهيونية / إمبريالية مشتركة على العرب منذ ابتداء الغزو، وعلى سائر المستويات، ثم لم تتوقف حتى الآن. والمستوطنون الصهاينة لم يرهقوا إلى الآن حتى بثمن طعامهم ناهيك عن أثمان أسلحتهم، أما العرب- بعضهم على الأقل!- فكانوا مجبرين على **الدفاع عن النفس** ودفعـوا ثمن أسـلحتهم الـتي لم تكن يومـاً موازية لأسـلحة (إسرائيل الحديثـة!) من بقية مـواردهم المنهوبة أصـلاً فـزادهم ذلك ضيقاً على ضيق.. لكنهم لجموا الاندفاعة الاستيطانية على الأقل بذلك الفعل الذي أجبرو عليه.

إن الجيل الاشـــكنازي الخـــزري الصـــهيوني، الـــذي خلق (الصراع المهلـك) بـدعم أمبريـالي، مـازال يـدير الحـروب على العرب. وسيظل كـذلك إلى أن يُحسم الصـراع.. لأن المشـروع الصهيوني لا يستطيع أن يتوقف عند اسـتيطان بضـعة آلاف من الكيلومـــــترات المربعة من أرض فلســـــطين بحكم طبيعته ومنطلقاته وغاياته ذاتها.

أما اليـــأس والإحبـــاط المترتـــبين على ما اســـتجره ذلك المشـــروع الصـــهيوني على المجتمعـات العربية فليس مردهما إلى سباق التسلح، وإنما إلى فظاظة آليات النهب والتـدمير في مرحلة الهيمنة الأميركية/ الصـهيونية المشـتركة، مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانيـة. ولهـذا لا يمكننا رؤية مشـروع "الشـرق الأوسط الجديـــد" إلا في أطر الوظـــائف المتعـــددة للكيـــان الاســـتيطاني، ومن منظـــور الآفـــاق الجديـــدة لحركة الأذرع الأخطبوطية الامبريالية انطلاقاً مما نعرفه من أساسـيات الحلم الصهيوني التوراتي التلمودي الأعلى.

وبصرف النظر مؤقتاً عن حـدود ما يقصـده السـيد بـيريس من كلمـات : كالحداثة والعصـرنة والعلمنـة، فإنه يمكننا التأكد من أن سـياق الحركة العامة للعصر الإمبريـالي، وخصوصـاً منذ إقامة (إسـرائيل الحديثـة!)، هو الـذي أعـاق كل نـزوع عربـيي للتحـديث... وعرقل كل محاولة للتقـدم.. وأحبط كل مسـعى للوحدة العربية التي من دونها لا يمكن أن يتم شـيء من ذلـك. (*) . ومن قلب الخراب المعمم علينا بالقوة تم إنضاج "أصولية" مشـــوهة بديلة للحركة التنويرية العربية الـــتي ابتـــدأت عقب الاصطدام العـربي بـالغزو الاسـتعماري الأوروبي، وانطلقت من مساءلة التراث العربي الإسـلامي الضـخم، ومن قاعـدة تـدينها المتـــوارث القـــائم والراسخ في صـــلب البـــنى الاجتماعية /

---

* (*) مرة أخرى ننبه إلى أن بيريس لا يصادر وحسب على كل تفكير بالوحدة القومية العربيـة، بل سـنراه يحـوّل كل هوية قطرية عربية إلى هوية قومية منفصلة حيث لا يربط بين هذه الهويات إلا صدى انتمائها إلى(العرق العـربي) كما يسميه . وهكذا يقوم سعادته برسم مصائرنا على هواه!

الاقتصادية التحتيـة، وما كـان لها إلا أن تفعل ذلـك... شـئنا هـذا الأمر أم أبيناه!

إن تمرير فكرة " أصالة الدولة الاستيطانية " في المنطقة، وتمرير فكرة وجود "شعب يهـودي" راسخ الوجـود تاريخيـاً في الأرض العربية التي استوطنها، ثم تمرير فكـرة "استقلال هـذا الشعب" نتيجة "كفاحه!!" ضد المستعمرين الأوروبيين.. وأخيراً تمرير فكرة أنه كان دائماً " معتدى عليه من العـرب"، كل ذلك بعض من نماذج الخداع والتزوير الصهيونيين لحقـائق التـاريخ... الأمر الذي ينسف أية مصداقية للسـيد الجـنرال بـيريس في أية كلمة من كلماته في هــذا الكتــاب، وفي أي موقف من مواقفه العملية كمسؤول في إدارة دولة الاستيطان الصهيونية.

ولكن ما الذي يرمي إليه هذا المبشر الصهيوني المـاكر من (تفصيل) مفهوم للأصولية على هواه؟ وما المغـزى وراء قـرع " أجراس الإنذار" حول خطورة هـذه الأصـولية- بأسـلحتها النووية طبعاً ؟!!- على السلام العالمي الذي هو الآن سلام الإمبرياليين لا سلام الشعوب المغدورة؟!

قلنا إن الفعل الاســتعماري العــام حطَّم حركة التنــوير العربية، وحرض على صياغة نسخة أصولية مشـوهة بديلـة. فلو افترضــنا أن التحــديات الــتي طــرحت على العــرب، وبقية المجتمعـات الإسـلامية، كـانت مجـرد تحـديات ثقافيـة: فكرية / علمية/ تكنولوجيـة..أو لنقل مجـرد تحـديات "تحـديث حضـاري" غير مقرون بـالنهب والابـتزاز والتـدمير، لما أمكننا تخيل سـياق مختلف عن السياق التالي من أجل ذلك التحديث غير المصــادر بالقطع والتشويه الاستعماريين:

تــدفع تحــديات التحــديث إلى نشــوء حركة تطــوير ذاتي للمجتمعات العربية والإسلامية على مختلف الصعد، وتبدأ حركة التطـوير تلك من مسـألة المـيراث العـربي الإسـلامي البـاذخ ومجادلته في ضوء المنــاهج العلمية والفكرية الغربية الحديثة .. ويتم تمثل تلك المنــاهج داخل جهــاز مفــاهيمي مســتولد من تفــاعلات صــحية بين الثقافة الغربية وبين كل ما هو إيجــابي صـحي وحيّ من الــتراث: من قيم ومبــادئ وأنمــاط علاقــات، ومفاهيم، وروحية إبداعية... مثلما يتمّ توظيف النتائج في تفعيل حيــاة البــنى المجتمعية لغاية ارتقائها الــذاتي وتفتحها وتنشـيط مســاهمتها الخلاقة في ارتقــاء المجمــوع الحضــاري البشــري ونجوع حياته ووجوده نجوعاً أفضل.

إن أي تحـديث بـنيوي في أي مجتمع بشـري لا يمكن إلا أن يتم على قاعـدة من "تراثه المعصـرن"، أي الـذي أعيد امتلاكه بجهـاز مفـاهيمي مسـتولد حسـبما سـبق. فـالقطع هنا هو تغـير ارتقائي في السائد المتوارث يوصل إلى وضع نـوعي جديد دون إلغـاء المـيراث بل بواسـطته، وليس القطع مجـرَّدَ إدارة ظهر لـذلك المـيراث باعتبـاره صـدى لمـاض ميت!!... أي إن الجهـاز المفاهيمي الذي يوظف للارتقاء لا يمكن أن يكون مسـتوردا أو مفروضاً من خارج!!

وهكـذا فـإذا كـانت كلمة أصـولية تعـني مسـاءلة الأصـول ومجادلتها، ولا تعني المعـنى الشـائع المشـوه الـذي هو مجـرد" دوغمـــا" ماضـــوية ذات لبـــوس فقهي متعصب فإنه لمن المستغرب أن يلفلف السيد بيريس كل تيـارات المسـاءلة وكل أشكال الـدوغما في خرقة واحـدة يكتب عليها اسم (الأصـولية) ثم يرسم إشارة (الخطر النووي المستفحل!) تحت تلك الكلمة، ثم يوزع التهم بها على من يشاء حسبما يشاء.

لكن مـرامي هـذا الجـنرال المبشر بقـدوم ملكـوت الهيمنة الصهيونية العالمية ليست مرامي مجهولة لأحـد. ومع ذلك نـرى هنا أنه لابد من كشفها ووضـعها في سـياقها الفعلي كيما نتـبين الأبعاد الجديدة من عمل المشروع الصهيوني.

وعلينا قبل إجــراء هــذا الكشف أن نــبين بوضــوح أن في الواقع العربي "مشهداً " أصولياً بالغ التنوع، وليست هناك أيـة" أصولية نووية " حتى في إيران إلى هذه اللحظة.

وكمقدمة بين يدي الكشف المذكور، نحن مضطرون لإعادة تـذكير السـيد بـيريس بـأن (دولتـه!) الـتي يتبـاهى بأنها قـامت كنتيجة لتجربة جيله الاشــكنازي الخــزري هي الدولة الأصــولية الأشد تعصباً وشـوفينية دينيـة/ عرقية في العـالم، إذ إن جهازها المفــاهيمي الأساســي- ولنقل جهازها المفــاهيمي الصــهيوني المتجلي في حركة وجودها الإجمالي - مأخوذ بدقة من أسـوأ ما في التـوراة والتلمـود من تعـاليم لا إنسـانية، وكـذلك منظومة قيمها الـتي أوضـحنا قبلاً مـدى ارتباطها البـنيوي بمنظومة قيم عصر الرأســمال. أما إصــطباغ مؤسســاتها الإدارية والحقوقية بالصبغة الغربية فذلك أمر لا يغير شيئاً من طبيعتها بل هو يؤكد "وظيفتها " الإمبريالية العامة.. بما هي كذلك!

وهــذه "الدولــة!" الأصــولية الصــهيونية هي وحــدها الدولة النووية في المنطقـة، وهي وحـدها الـتي لم توقع على معاهـدة حظر انتشــار الأســلحة النوويــة، ولم يفكر أحد من (الكبــار) بإجبارها على ذلــك. ولم يعد ســراً أن الســلاح النــووي لهــذه "الدولة" موجه على قواعده باتجاهات محســوبة، ناهيك عن أن حلفاءها قد جعلوها (دولة فضــائية) تتجسس أقمارها الصــناعية على المنطقة وعلى العالم.. وربما كـانت لها مهمـات عسـكرية إضافية، من يدري؟!

ولعله يتعيَّنُ هنا طرح السؤال التالي:

على أي (أمن لإسرائيل) يتباكى السـيد بـيريس، أم إنه إذ ينــذر (بخطــر!) الآخــرين على السـلام العـالمي يثـير زوبعة مدروسة للتعمية على ما أمِـدّتْ به "إسـرائيلُهُ المسـكينة!" من قوى تدميرية تجعلها هي المهددة الفعلية لأمن العالم؟!

حقـاً إن المشـروع الصـهيوني[*] يسـتكمل عدته لاجتياحـات مقبلة تساعده على التحقق!

---

[*] (*) حين نذكر هذه العبارة، مجردةً، فنحن نعني بهـا: مشـروع السـيطرة على العـالم وفقـاً للتصـورات التلمودية - وبشـأن هـذه التصـورات، راجع (الكلمة الصافية)، لقاسم الشواف.

ولنعد الآن بعد هـــــذه المقدمة لمتابعة عملية الكشف عن مـرامي بـيريس في حديثه عن الأصـولية على طريقتـه، بعد أن نتذكر المثل العربي : (رمتني بـدائها وانسـلت). وسـيكون علينا هنا أن نعود إلى ملامسة تاريخية لعملية إنتـاج المشهدالأصـولي الإسلامي الراهن.

إذا عدنا إلى مسألة إحبـاط حركة التنـوير العربية وتفشـيلها فلا بد أن نتـذكر أن الغــزو والاسـتعمار، باعتبـاره يهـدف إلى النهب وافتتـاح الأسـواق والمنـاجم، يقـوم أيضـاً بتكـييف البـنى الاجتماعيـــة/ الاقتصـــادية/ الثقافية المغـــزوّة وتطويعها - عـــبر محاولات تخريبها لإعادة صياغتها- كيما تستجيب لمتطلباته.

إن هذا يعادل واقعيـاً تخـريب الهوية الحضـارية المخصوصة المتمـايزة، من خلال تشــويه ثقافتها ونسف منظومتها القيمية واسـتبدالها بـالقيم البراغماتية للغـزاة.. الأمر الـذي كشف عما وراءه من "روحية صليبية جديدة" تحمل معها "روحية تلموديـة" إضافية تبرر الطابع الشايلوكي لآليات الغزو ومراميـه. وبـدوره، ســـيدفع هـــذا الأمر إلى مزيد من التمسك بالمرجعية الفقهية الإســلامية لــدى قطــاع واسع من النخبة المثقفة في البلـدان العربية والإسـلامية كنـوع من رد الفعل الـدفاعي الـذي - أمـام شراسة الغـزو- لا يـتيح لأصـحابه ذلك التوقف المتـأني من أجل المساءلة المتأنية لتلك المرجعية التراثية أو مجادلتها إيجابياً.

وقد أضـاف هـذا الوضع عـدداً من الأنسـاق المتشـددة في الاعتصام بالمرجعية الفقهية اعتصاماً دوغمائياً، يـتراوح مسـتوى تشددها بين انغلاق بالغ التزمت على ماهو شكلي من (القشــور التراثية) وبين قابلية المساءلة الحذرة لكثير من عناصر التراث، الفقهية وغير الفقهيـة، بمعايرتها على النص القـرآني.. إنما دون أي محاولة لتمثل المنــاهج العلمية الحديثة بغية اسـتخدامها في تلك المعايرة!.. إننا إذا جمعنا هذه الأنسـاق إلى أنسـاق الحركة التنويرية التي حـاولت أن تتفهم (الآخر الغـازي)، في النظر إليه وإلى منجزاته وفقــاً لما تدركه من أصــول مرجعيتها التراثيــة، مثلما حاولت أن تتفهم (الذات /الهوية) - بأبعادها التراثية- وفقـاً لما حصلته من معرفة بذلك الآخر الغـازي ومنجزاتـه، فـإن ذلك الجمع سيعطينا صورة إجمالية عن أعـداد الأنسـاق الـتي كـونت أساس (المشهد الأصولي الإسلامي) الراهن: العربي منه وغير العربي!

لكن هـذا ليس كل شـيء . فآليـات فعل الغـزو الرامية إلى تطويع البنى الاقتصـادية / الاجتماعية / الثقافية المغـزوة : عـبر نسف هويتها واســتبدال منظومتها القيمية المتوارثة بالمنظومة البراغماتية الشــايلوكية، تلك الآليــات لا تمر دائمــاً عــبر الآلة العسكريتارية للغزو وعبر المؤسسات الـتي تقيمها في الأقطـار المغزوة.. بل إن العملية الرأسمالية الإجمالية تنتج "مؤسســات " ذات طابع ثقافي محض، لكنها تـؤدي "وظـائف" جذرية وذات أمداء اسـتراتيجية واسـعة في سـياق إنجـاز التطويع والتخـريب المذكورين.

وإذا وضعنا جانباً تلك المؤسسات ذات المهمة الإعلامية والتعليمية التي كانت تتبع مباشرة لإدارة الغزو في كل قطر على حدة، فإن أبرز المؤسسات التي تواجهنا هنا هي " مؤسسة الاستشراق" بفروعها المختلفة: من فرع البحث الأثري، إلى فرع البحث التراثي، وفرع البحوث الاجتماعية .. والألسنية.. وما إلى ذلك مما يتعلق بواقع المغزوين ولغتهم وتاريخهم وحضارتهم!

ومؤسسة الاستشراق هذه لن يعثر عليها بتاتاً- حتى الآن- في صورة الهيئة المستقلة، لكنها تتوزع على مختلف الأكاديميات والجامعات الغربية في صيغة (مجموعات) للبحث في "العلوم الإنسانية" عموماً، وفي صيغة (أفراد متخصصين): هواة ومحترفين، والجميع يصبون جهودهم في سياق ذي اتجاهين:

1- إنجاز البحوث المشكّلة في جوهر الثقافة والقيم والهوية الحضارية للمغزّوين، وهي بحوث حافلة بالتزوير والتمحل.. وما إلى ذلك.

2- تصدير "الجهاز المفاهيمي" لنظرية المركزية الأوروبية في الثقافة، ومعايرة سائر الثقافات العالمية على أسس تلك النظرية عبر الجهاز المفاهيمي المذكور.

وفيما بعد أضيف اتجاه ثالث متفرع عن الثاني وهو:

تصدير النظريات المعرفية الأوروبية، والفلسفات، والبناءات الفكرية المختلفة.. جاهزة إلى البلدان / موضوع النهب، مثلما تصدر السلع والبضائع حيث يجري استخدامها دون تغيير أو إعادة نظر.. وحيث ستعتبر أية خروجات على هذا الاستخدام مواقف مضادة للعلمنة والتحديث والعصرنة!!

فالعلمنة والتحديث والعصرنة في مفهوماتها الشائعة، وخصوصاً كما يستخدمها السيد الجنرال بيريس هنا في كتابه، هي الأخذ بالأساليب الغربية في سائر مجالات الحياة، وتبني قيمها البراغماتية القائمة في أساسها، دون أية مساءلة علمية أو مجادلة أو معايرة على الثقافات والقيم والهويات الحضارية الأخرى! فهذه كلها يجب أن تكون قد (تم إلغاؤها!)..ونهائياً، بالطبع!!

على أن تاريخ العملية الاستشراقية ليس شراً كله بطبيعة الحال. لكن هذا التاريخ- بما أنجزه فيه أفراد كثيرون، ومجموعات بحث عديدة من الأوربيين المنوط بهم تحقيق الأهداف الاستشراقية في سياق الفعالية الرأسمالية الإجمالية- يفسر لنا أسباب تعثر الحركة التنويرية النهضوية العربية.. بل هزيمتها الإجمالية حتى الآن، مثلما يفسر لنا سر إمعان المتشددين المتزمتين في تشددهم وتزمتهم لاحقاً، إلى درجة الإحلال الكامل للقشور محل الجوهر في مجموع الميراث

العربي الضخم والمبهر أيضاً[*].

إن الجهـاز المفـاهيمي لنظرية المركزية الأوروبيـة، شـأنه شـأن منظومتها القيمية الـتي بينا أصـولها في الفصل الأول، لا يصلح موضـوعياً لتفهم المـيراث العـربي الإسـلامي الـذي ينص القـرآن الكـريم في أكـثر من مكـان على أنه امتـداد وإكمـال و(إعادة بناء) لما سبقه من ميراث حضاري في المركز العـربي منذ تأسست الحضـارة، وفي أطـراف هـذا المركز الملحقة به على امتداد التاريخ. فكيف إذاً سيكون الأمر، وفي إعتبـار جميع المستشرقين أن تلك "الحفنة من العبرانيين" هي "أصـل!" ذلك المـيراث الهائـل؟.. وأن "توراتهـا" المتداولة هي المرجع لكل تـــاريخ ذلك المـــيراث، رغم أنف الكشـــوف الأثرية ووثائقها المذهلـــة: في العـــراق، وســـورية الطبيعيـــة، ومصـــر؟!! وكيف سيكون الأمر إذا ما أحيلت كل أفعال وأعمال المستشرقين- إلا من رحم ربـــك!- لتوظيفها في ســـياق الغايـــات الرأســـمالية/ الشـــايلوكية الـــتي تأسس الاستشـــراق عمومـــاً لـــدعمها على المســـتوى الايبســـتمولوجي، أي على مســـتوى تخـــريب وعينا التاريخي لهويتنا الحضارية الحقيقية في أسسه الجوهرية؟!

لقد امتـــدت آفـــاق التخـــريب ذاك إلى التشـــجيع المتواصل لأولئك المتزمـــتين الأصـــوليين إلى حد التعصب الأعمى لقشـــور المـــيراث بعد الـــذي تم- استشـــراقياً- من محـــاولات طمس لجوهره، وساعدت في ذلك سائر الجهـات والأجهـزة الإمبريالية المعنيـة، وبمختلف الأسـاليب والوسـائل. وهكـذا تحـول صـراع الأصـــوليين المتعصـــبين من صـــراع ضد الغـــزو الاســـتعماري، فالإمبريـالي الصـهيوني اللاحـق، إلى صـراع داخلي: ضد النخب المثقفة الباحثة عن تأصيل الحداثة عربياً.. وحتى ضد المتنـورين داخل المشهد الأصولي العربي/ الإسلامي ذاته!

وبالطبع، فالسيد الجنرال الـوزير بـيريس ليس "خائفـاً" من هؤلاء، بل هو خائف من تنظيمـات معينة أدركت طبيعة الصـراع بين العـرب وعمقهم الإسـلامي وبين الغـزاة جميعـاً- بما فيهم "دولته!" الـتي أنجزتها تجربة جيله الأشـكنازي الخـزري!- مثلما تحاول أن تتفهم جوهر الإسلام ذي الأساس العربي الصريح في المسـتوى الحضـاري- وبصـرف النظر عن كونه دينـاً سـماوياً، فنحن نتكلم في ما نعرفه من أمـور الـدنيا وحسـب!- ولو أنها أعربت عن ذلك بتمسكها البدئي بما هو مظهري، فهي تمـارس قاعـــدة أساســـية من القواعد الإيمانيـــة/ القيمية الإســـلامية الصـــريحة: محاربة الشر بما تلك المحاربة جـــزء من "الأمانة الإلهية البدئية"!

وبالتأكيـد، لسـنا بحاجة هنا لتعريف الجـنرال الـوزير بـأن "البهائية" مثلاً لا تمثل الإسـلام لا في قليل ولا في كثـير.. مثلما

---

[*] (*) هناك بين المستشرقين كثرة من (الباحثين اليهـود) إضافة إلى البقية من الكاثوليك والبروتستانت والأنغليكان- والقلة القليلة من هـؤلاء كـانت منصـفة إلى حد ما في تعاملها مع حضـارة المنطقـة، ومع العصر الحضـاري العـربي الإسـلامي بوجه خـاص. والنـدرة من هـذه القلة المنصـفة فهمت جيـداً روح الإسلام وجوهره وتعاملت معه بدرجة مقبولة من الموضوعية!

لسـنا بحاجة إلى تـذكيره بـأن الوهابية ليست "كل الإسـلام!" شأنها شأن ابنتها السنوسية التي أسـقط معمر القـذافي حكمها في ليبيا. لكننا نريد مساءلته: من الذي صنع "الأفغـان"؟!.. وإذا كـان (التـدين الشـعبي) في الجزائر هو السـبيل الوحيد لنضـال العروبـيين الجزائـريين ضد "الفرانكوفونيـة" أساسـاً، وضد التمزيق الـذي عُمِل غربيـاً بـداب فظيع لإثارته عند القبائل الأمازيغية، وإذا كان نهب الجزائر- وغيرها أيضاً- قد تم بالصـورة البشعة الـتي صـارت معروفة للجميـع، فلمـاذا يتصـور الجـنرال المبشر الصـهيوني أن النـاس ليس من حقها أن تـدافع في النهاية عن حياتها وهويتها الحضارية؟! أو أن هـذا الحق مقصـور على اليهود؟!

ومع أن الجمهورية الإسـلامية الإيرانية ليست بحاجة لمن يدافع عنها، إذ هي أكثر قـدرة على ذلـك، فـإن السـيد الجـنرال يرغمنا - بطريقته الاسـتفزازية- على أن نسـأله: وفق أي نهج، وأي جهـاز مفـاهيمي وقيمي، كـان يمكن للمجتمع الإيـراني أن يـدافع عن حياته ضد ما أوقعه بها الشـاه وطغمته من خـراب وفقر وفسـاد؟!.. أبجهـاز مفـاهيمي مسـتورد من الغـرب الإمبريـالي الـذي دفع الشـاه وطغمته دفعـاً إلى ذلك التخـريب الكاسح في إيران، أم بالجهاز المفاهيمي الذي كان مطبقاً في شرق أوربا- والجنرال يمقته بشدة طبعاً!- وقد أثبتت الأيـام بعد عقد واحد فقط أن تطبيقه قد شاخ وصار غـير قابل للاسـتمرار ناهيك عن تعارضه مع الروحية الخاصة الـتي في عمق التركيبة الحضارية للمجتمع الإسلامي الإيراني؟!..

إن الجـنرال بـيريس لا يخفي طلبه من جميع من في المنطقة أن ينسـلخوا من جلـودهم، وأن يلغـوا هويـاتهم الحضـارية، وأن يتبنـوا ما يريـده- هو ومن وراءه- من عصـرنة وتحديث سوف نعود إلى مناقشـتهما معـه! وهـو، بالمناسـبة، لا يهمُـهُ من العصـرنة والتحـديث غـير أن يتلقى هو ودولته ومن وراءهما كل ما يريدونه من مسـاعدة.. أو على الأقـل: من صمت عما يفعلونه، بدليل أنه لم يذكر دولاً عربية عديـدة ودولاً إسـلامية أيضـاً لا بشـفة ولا بلسـان فيما هو يتشـدق (بأفكـاره ومواعظه التهديديـة) عن تلك العصـرنة وذلك التحـديث المطلوبين على الطريقة الصهيونية/ الأميركية المشـتركة. فكل تلك الدول- وهي تدعي حمل لواء الإسلام- تدير مياه سياسـاتها نحو طاحونته أو إنهـا، على الأقـل، لا تُظهر أنها معْنيَّةٌ بكل ما كان ويكون بالقدر المطلوب!!

ولكن هل إيـران دولة نووية فعلاً؟! سـؤال إجابته معروفة للجميع. والجنرال يدرك أكثر من سـواه أنها بعيـدة جـداً عن أن تحصل على هـذه التكنولوجيـا. ومع ذلـك.. وما دامت إسـرائيل دولة نووية وحيـدة وغازية في كل هـذه المنطقـة، وما دام البرنـامج الـذي أنشـئت على أساسه هو برنامجـاً عـدوانياً من ألفه إلى يائه ضد الجميع، أليس من حق إيران وسواها من دول المنطقة أن تبحث عما يحميها من هـذا العـدوان المحتمـل.. أو لنقل عما يردعه باعتباره جزءاً من برنامج قيد التنفيذ؟!

إن الجنرال لم يكلف خاطره بالسؤال لماذا تبحث إيران عن التسلح. ولكن ما دام حضرته يبشر بضرورة فقداننا للذاكرة ونسيان كل ما ارتكبه الإمبرياليون- والشايلوكيون خصوصاً - بحق العرب وسواهم وفلابد لنا أن نعمد نحن إلى تذكيره.

إن حادثة الغزو الأميركي الصغير لإيران عقب سقوط الشاه- حادثة ضياع طياراتها في صحراء لوط- كان يمكن أن تتحول إلى غزو كبير ماحق لولا عاملان اثنان: **الأول** هو الذيول النفسية/ السياسية للتجربة الفيتنامية ومنعكساتها الداخلية على الشارع الأميركي. **والثاني** هو وجود الاتحاد السوفييتي آنذاك على حدود إيران الشمالية حيث كان يمكن لغزو أميركي واسع أن يجر إلى مجابهة عالمية كارثية.

ولكن أميركا لم تسكت. وبدلاً من الغزو الواسع المباشر دبرت لإيران حرباً بديلة طويلة قادها نظام صدام حسين في العراق لمدة ثماني سنوات متواصلة.

لقد أنهكت تلك الحرب إيران إقتصادياً، أي إنها دفعت غالياً ثمن (عدم امتلاكها) سلاحاً رادعاً للآخرين. وما إن انتهت تلك الحرب أي (حرب الخليج الأولى) حتى عادت أميركا ودبرت أسباب حرب الخليج الثانية عبر اجتياح صدام للكويت. وعندها جاء الأميريكان في ثوب المحررين وصارت منطقة الخليج ومياهه مرتعاً لآلة الحرب الأميركية، خصوصاً، ترودها متى شاءت!.. وتلك الشواطىء- وأظن أن السيد الجنرال ما زال يعرف ذلك- هي "التخوم الغربية" لإيران[*] الأمر الذي يجعلها مهددة جدياً من قبل (الكاوبوي الأميركي!)، مثلما تجعلها احتمالات نجاح السيد جيرونوفسكي في انتخابات الرئاسة الروسية المقبلة مهددة من قبل روسيا. فأي خيار يتركه مثل هذا الوضع لأي بلد كان غير أن يحاول البحث عن وسائل للدفاع عن نفسه؟!

إن السيد الجنرال لم يكن لينقم على تسلح الجمهورية الإيرانية الإسلامية لو أن "إسلامها" نهجَ منهج دول مسلمة أخرى في التبعية للغرب، لكنه ناقم عليها وعلى حكامها بسبب إدراكهم للشرور الكارثية التي استجرها النظام الرأسمالي/ الشايلوكي على العالم عموماً، وعلى البلدان الإسلامية خصوصاً، مثلما وجدوا أنهم ملزمون- وفق الأسس الإيمانية لسائر المذاهب الإسلامية- بوجوب مكافحة هذا الشر المدمر الذي يعتبر الذراع الصهيوني ركناً من أركان صنعه: ركناً مهماً إن لم يكن هو الركن الأهم!.. وفي إطار ذلك الإدراك رأى أولئك الحكام- الذين عانوا مع شعبهم تلك التجربة الطويلة المريرة لحكم عائلة بهلوي ومرتزقتها- أن من واجبهم: الديني والإنساني، أن يعملوا على حماية المسلمين وديار الإسلام

---

* (*) ليكن واضحاً أننا ضد أية أطماع إيرانية- صغيرة أو كبيرة- في أية أرض عربية تحت أية ذريعة، غير أننا- بالمقابل- نميز جيداً بين موقفها العام المناهض لآليات الابتزاز الامبريالي الصهيوني، وبين الخلافات الحدودية الجزئية مع بعض الأقطار العربية، وهي خلافات سهلة الحل في نهاية الأمر!

بكافة السبل المتاحة.. وهذا ما دفعهم، أولاً بأول لإعلان رفضهم وخصومتهم للدولة الأصولية الصهيونية التي يتكلم باسمها السيد الوزير بيريس!

ومن الغريب أن السيد الجنرال المبشر هذا يبيح لدولته الخزرية الاستيطانية أن تعلن حمايتها ورعايتها الشاملتين لكل يهودي في العالم، وأن تتصرف على أساس ذلك.. بينما لا يسمح منطقه لأي دولة إسلامية أن تعلن حمايتها ورعايتها لمصالح أكثر من مليار مسلم، حيث تم نهب هذا "المليار" الذي يعادل خمس سكان الكرة الأرضية.. وهدرت مصالحه.. وخربت بناه الاقتصادية/ الاجتماعية.. وهدمت منظومات قيمه.. وصارت هوياته الحضارية، المتمايزة قومياً داخل الإطار الإسلامي الأشمل، مهددة بالانقراض.. وكل ذلك تحت سمع وبصر "حكومات" تدعي العمل بروح الإسلام ظاهرياً، وتشتغل في الجوهر "كأجير" منفذ للمتطلبات الرأسمالية العالمية، على اختلاف القوى صاحبة تلك المتطلبات.. ومنها القوة الصهيونية العالمية!

منطق ظريف طريف يستخدمه هذا السيد الوزير المبشر الصهيوني الذي لا يريد- في الجوهر- أن يرى غير المشروع التلمودي للسيطرة على العالم!.. وهو بالطبع يتعذب كثيراً كي يجعل منطقه مُوقّعاً بنبرة (هديل الحمام!) ويجهد، من أجل ذلك، كي يبرز ضحاياه في صورة (الذئب!) لكن الوقائع والحقائق تكذبه- كما هي راهنة، وكما يمكن أن تؤول إليه في المستقبل!- وهو إذ "يخرّج" هجمته على إيران وليبيا وسواهما من الرافضين لما سببه "النظام الرأسمالي" للعالم من شرور، فإنه لا يجد ما يقوله غير:

(هل يمكن للمتطرفين الذين يعتقدون بأنهم يحملون مفاتيح السماء أن يتصرفوا بتعقل إذا ما امتلكوا السلاح النووي؟؟!)

حسناً: المتطرفون هم إذاً من يناهضون (الفتح والثقافة الغربية ويعملون على التراجع عن التحديث والعصرنة)- والعبارة هنا هي لصاحبنا الجنرال حرفياً، كما سبق الذكر- وإذا كان "الفتح!" والثقافة الغربيان قد سببا للبشرية كل هذه الكوارث، فأي منطق سليم هو الذي يقول بعدم مناهضتهما؟!

إن معيار صحة نمط حضاري معين هو مدى نجوعه في خدمة بقاء البشرية وارتقائها، وليس في (مظاهر الرفاه) التي تتمتع بها النخب الأوليغارشية العالمية على حساب سائر المجتمعات البشرية واحتمال فنائها.. والعالم محتاجٌ الآن إلى حوار "إنساني" فعلاً بين مختلف الحضارات المتمايزة إلا إلى "السلطة!" القمعية لثقافة كثقافة الغرب التكنولوجية/ الشايلوكية!.. وأظن أن هذا ملخص درس يجب تعليمه بلا تحرج لهذا السيد الجنرال المبشر، مع "شمطة أذن!" أيضاً، كي يتعلم كيف يكون "إنساناً" فعلاً، لا ذئباً في قناع الإنسان!!

وإذا كان هؤلاء المناهضون (للفتح!!) الغربي، والصهيوني معاً، لا يمتلكون الأسلحة النووية، بينما يمتلكها الرأسماليون

وحدهم، فمن هو إذاً بين الطرفين ذلك الخطر فعلاً على سلام العالم وأمنه: الفاتحون النوويون الاستيطانيون الشايلوكيون، أم من يرفضونهم؟!.. ومرة أخرى سنحيل الجنرال المبشر الصهيوني إلى منظومة القيم الإسلامية/ عربية الهوية والمنشأ، حيث تحيتنا هي (السلام عليكم)، أو (السلام لكم) في أصلها المسيحي الإيتوري الآرامي/ العربي.. فربما تعلم شيئاً، مع ثقتنا بأنه: كشايلوكي/ خزريّ/رأسمالي/ مستوطن، لن يستطيع أبداً أن يتعلم مثل هذا الدرس الإنساني الأصيل!

على أن ظرافة الجنرال وطرافة منطقه يجعلانه يستخدم عبارة: (يعتقدون بأنهم يحملون مفاتيح السماء) في وصف مناهضي الفتح الغربي والثقافة الشايلوكية البراغماتية!

إن من المعروف تاريخياً- وراهنياً أيضاً- أن أحداً من المسلمين: عرباً أو غير عرب، لم يجرؤ على الادعاء بأنه أكثر من "عبد" لله سبحانه، والله هو مالك السماوات والأرض وما لا يعلم من ملكه، وذلك مهما بلغت الجسارة بذلك الـ"عبد الله" أن يتنطع لمهمات دنيوية، صحيحة كانت أم غير صحيحة.. أما السيد الجنرال المبشر فهو يعلم جيداً أن الأسفار الأساسية في توراته المتداولة تحيل (الرب= يهوه) إلى "مجند" لخدمة الأهداف الدنيوية "للشعب اليهودي المختار!"- حيث ينص التلمود لاحقاً على أن سائر الأقوام الأخرى، "الغوييم"، هم بالنسبة لليهود كالبقر والحمير.. والكلاب أيضاً! وأن "الرب يهوه" قد أباح لليهود أموال الغوييم وأعراضهم.. ودماءهم، فوق ذلك!- ثم سينص التلمود على أن الرب (= يهوه) لا عمل له غير أن يطيع الحاخامات.. وعلى أن "طاعته!" هذه ستظهر يوم الدينونة على الأرض: بجعل "أورشليم" سيدة على العالم، حيث ستتحقق سيطرة (إسرائيل)على الشعوب جميعاً، وحيث تعمر هذه الـ"أورشليم" بحجارة الذهب والزمرد واللؤلؤ.. ويجلس يهوَة مع الحاخامات والمختارين من شعبه، فيدينون من يريدون من "الغوييم" ويصفحون عمن يريدون- طبعاً، كل الرأسماليين سيظفرون بهذه النعمة العظيمة!!- ثم تبدأ "الوليمة اليْهوِيّه!" حيث يأكل "المختارون" من لحم اللوياثان المحفوظ منذ أن صرعه يهوه، ثم يباع الباقي في أسواق أورشليم!!!

والآن نسأل السيد الجنرال: (من هو الذي يدعي فعلاً أنه يملك مفاتيح السماوات والأرض معاً: المسلمون- عرباً أو غير عرب- أم اليهود الاشكنازيم، الذين عمّموا "البرنامج الصهيوني" على جميع يهود العالم، مع ملاحظة أن ذلك البرنامج يلتزم التزاماً شيه حرفي بمنطوق التوراة وتفسيراتها التلمودية؟!!

الجنرال المبشر يعرف الإجابة أكثر مما نعرفها!.. وهو إذ يرتكب حماقة هذا التزوير (الظريف!!)، يرتكب أيضاً خطأً سياسياً آخر. هذا الخطأ السياسي يتمثل في إدراج ليبيا مع الدول (المتعصبة دينياً)!!

إن ليبيا إذا كانت تعارض وحشية النهب الإمبريالي ذات الطابع الشايلوكي فهي لم تدّعِ ما يسميه هو (التطرف

الديني!). صحيح أن ليبيا هي في النهاية "دولة مجتمع مسلم"، أي إن الروحية الإسلامية والقيم الإسلامية قائمة في أعماق تكوينها البنيوي، لكن حكومة هذه الدولة العربية تعتمد منهجاً للتحديث لا يقوم على التزمت الديني، مثلما لا يقوم على التبعية (للفتح والثقافة الغربية) التي يلوم السيد الجنرال المبشر كل مناهضيها، ومناهضي "الفتح!" الذي تنتهجه، من مسلمين: عرب وغير عرب.. ويتهمهم بأنهم ضد (التحديث والعصرنة)! أما من يتطوعون لخدمة الأطماع الغربية الإمبريالية- بما فيها الصهيونية و"دولتها" التي جعلتها ثكنة قومية نووية بالفعل(*)- من بقية حكام المسلمين، فهؤلاء يصمت الجنرال عنهم كلياً، رغم أن مجتمعات بعضهم لا تزال تعيش في أقسى ظلمات العصور الوسطى: من حيث العلاقات والتكوينات البنيوية ونوعية المعرفة وسويتها، والصيغ القانونية، والهيكلية المؤسساتية المعتمدة، وأولويات تحقيق "حقوق الإنسان" إلى آخره!

السيد الجنرال المبشر إذاً يريد عرباً ومسلمين تابعين كلياً- وبخنوع شامل- للفتح والثقافة الغربيين ومستجراتهما الشايلوكية الصليبية المشتركة!.. أي إنه يريد مليارا من البشر الذين يقبلون التخلي طوعياً عن هوياتهم الحضارية القومية، المتمايزة داخل إطار وحدة المنظومة القيمية الإسلامية الجامعة، والتخلي بالتالي عن كل ما تتطلبه هذه المنظومة من مقاومة الشرور الكارثية التي ألحقها ويلحقها الرأسمال العالمي بالبشرية كلها!.. وكل ذلك مقابل وعود بأن يكون لهذا المليار ما يأكله من فتات المائدة الإمبريالية الكبرى في ترتيبها الصهيوني/ الأميركي الجديد!!

وهكذا نجد أنفسنا- ومن جديد- أمام توضيح أكبر لصيغة "مفترق الجحيم" التي تبشرنا بها مخططات السيد الجنرال الوزير، تحت كل هذه الأغطية من التزويرات والتلفيقات التاريخية وغير التاريخية، وعبر تأنيب مجتمعات تضم خمس سكان الكرة الأرضية على أنها لا تقبل (الفتح، والثقافة الغربية) من أجل "التحديث والعصرنة".. والديموقراطية أيضاً!

-4-

لاشك في أن كلمات مثل: التحديث، والعصرنة، والديمقراطية، هي كلمات تجعل "اللعاب يسيل" اشتهاءً لها في مجتمعات تعرضت، عبر هذه القرون من الفعالية الرأسمالية/ الإمبريالية، لكل هذا التخريب والتدمير والنهب والابتزاز ومصادرة حق الحياة المتفتحة وتطورها.. بمختلف

(*) يوم كتابة هذه الكلمات 15/11/1994/ نقلت إذاعة مونت كارلو تقرير إحدى المجلات الانكليزية المعنية بالدراسات العسكرية والاستراتيجية حول التسلح النووي" لدولة اسرائيل" فأبرزت اعتمادا على صور الأقمار الصناعية أن لديها سبع منشآت نووية متكاملة نذكر منها: مفاعل ديمونة المشهور، ومركزاً شرقي حيفا لتخزين الأسلحة النووية التكتيكية، ومركزاً آخر تحت الأرض يضم خمسين قاعدة- أي مجموعة منصات- لإطلاق الرؤوس النووية ذات المدى الاستراتيجي، وجميعها محمل على صواريخ أريحا2، بعيدة المدى والغايات أيضاً!!

الأساليب والأدوات التي وظفتها- ولا تزال توظفها- تلك الفعالية الشـرانية المدوخـة! ويميل الكثـيرون داخل هـذه المجتمعـات، حتى ممن يعتبرون أنفسهم مفكرين كباراً وتقـدميين جـداً، إلى تحميل أسباب تلك المستجرات الكارثية لما هو ذاتي محض في تلك المجتمعـات، خصوصـاً حين يجعلـون "ميراثاتها الحضـارية" هي وحـدها العـائق في وجه التطـور التكنولـوجي و(اللحـاق بالغرب)، بالتالي!

أما لمـاذا (اللحـاق بـالغرب)، أي الصـيرورة "على مثاله صورته!" كما يقال؟!.. وهل فعلاً ينبغي إنسـانياً- أو حـتى يمكن راهنيـاً- أن يكـون الأمر كـذلك؟! فـذلك ما لا أسـتطيع- لا أنا ولا غيري- سـبر أسـبابه الكاملـة، بكل الدقة المطلوبـة، في عقـول أولئك المفكرين!

وأعتقد أنني قد أطلعت في حياتي على كم وفير وكافٍ من التنظـيرات، والمشـروعات الفكرية التنويريـة، والكتابـات ذات الطـابع السـلفي، وبـرامج أحـزاب من اتجاهـات مختلفـة، ومجادلات فكرية وعقائدية متنوعة الغايات.. الأمر الذي يؤهلني لأقـول جازمـاً بـأن أحـداً من سـائر المفكـرين في النطـاقيْن العـربي والإسـلامي لم يضع يـده على لب القضـية المطروحة أعلاه وجوهرها وأساسها:

النظام القيمي الغربي، مدروساً أو منظـوراً إليه في سـياق تكونه التاريخي، وما يستدعيه من نمط فعالية بالضـرورة، حيث يجب أن يُـرى النظـام الرأسـمالي/ الإمبريـالي العـالمي ومستجراته في إطار مقتضيات ذلك النظام القيمي الذي يصـنع التكـون التـاريخي الاجتمـاعي/ الاقتصـادي لأصـحابه، وينظم سيرورته، بقدر ما يؤكد ذلك التكون والسيرورة مجموع النظـام القيمي المعـني وتفصـيلاته.. ثم النظـام القيمي العـربي/ الإسـلامي منظـوراً إليه أيضـاً في سـياق تكونه التـاريخي.. إلى آخر ما أوجزناه في الأسطر الثلاثة السابقة عن النظـام القيمي الغربي.

وبالطبع، يجب خلال ذلك العمل الفكري المزدوج أن تجـري المقارنة دائمـاً بين النظـامين القيمـيين المـذكورين وإظهـار ما بينهما من تعـارض، ودائمـاً: بالإرجـاع إلى معـايرة كل من النظـامين مع مسـتجراته إلى "وظيفـة"- أو وظـائف- كل منهما في خدمة نجـوع البقـاء الحضـاري للبشـرية.. أو مصـادرة هـذا النجوع ونقضه!

إن كل بحث لا ينطلق من هـذا الأسـاس الايبسـتومولوجي لكشف ما هو وظيفي في سياق تطور التـاريخ الحضـاري العـام هـو- في رأينـا- بحث لا ينتهي إلا إلى "تيـه" أو غلط قاتـل. وقد يكـون مفيـداً هنا أن نضـرب بعض الأمثلة الدالـة، واعـدين بـأن تقتصر على ما يخدم مجادلتنا لأفكـار السـيد الجـنرال المبشـر، وحسب.

الكتابـات ذات الطـابع السـلفي مثلاً لا تـزال تحتفي فقط بـالتركيز على "عظمة الإسـلام" متباهية بما قـدمناه للحضـارة

العالمية من منجزات روحية وعلمية.. دون أن تقول لنا بوضوح ماهية "القيم" التي انطلق منها عصر السيادة الحضارية العالمية للثقافة العربية الإسلامية، باعتبار تلك "القيم" منظومة ناظمة لسياق حركة التاريخ في ذلك العصر، وباعتبارها قبل كل شيء- وبصرف النظر عن طبيعة مصدرها: إلهياً كان أم بشرياً- موضوعة للاستعمال الدنيوي الإنساني.

وهكذا لا تكتفي الكتابات السلفية النمطية بتجاهل المستقبل الدنيوي، بل إنها أيضاً ترده إلى ماضٍ مفهوم بصورة انتقائية.. والكل مردود إلى (عالم الغيب الإلهي)، حيث العالم الدنيوي يكاد لا يساوي شيئاً أكثر من كونه "معبراً" يمارس فيه الأفراد تطهير ذواتهم شعائرياً كي يظفروا بنعيم عالم الغيب! ولا أعتقد أن جوهر الإسلام يدعو إطلاقاً إلى حصر العالم الدنيوي في مثل هذا الاعتبار الفقير!

على أنه من الطريف أن تكون واحدة من آخر المحاولات الفكرية لمصالحة أصل الإسلام (أي القرآن الكريم) مع العصر هي "عملية مركسة" مبتذلة للقرآن، بمنظوماته الدنيوية والأخروية معاً! ومن لا يصدق فليتمعن جيداً في كتاب (القرآن والكتاب) لمؤلفه الدكتور المهندس محمد شحرور، وليتبصر في ما توصل إليه من نتائج تدعو إلى الرثاء! وبالمقابل كانت الردود عليه أكثر إثارة للشفقة منه ذاته!!

ولن نعرض هنا للدوغمائية الماركسية العربية على اختلاف تياراتها خلال ما انصرم من هذا القرن، فهذه حديثها يطول.. لكننا سنشير إلى أن مفكراً مثل صادق جلال العظم يدعو في كتابه (ذهنية التحريم)- وفي معرض دفاعه عن سلمان رشدي- إلى ضرورة (إسقاط المقدس)، على طريقة ما فعله المفكرون والمثقفون الغربيون خلال عملية "نهضة أوربا!" كي نستطيع أن "نتقدم!" ونلحق بالغرب وننافسه، وعلى طريقته!!

أي مقدس يجب إسقاطه؟! وكيف؟! ولماذا؟! ذلك ما نستطيع المجادلة فيه.. ولكن في غير هذا المكان! ولنلاحظ أن أي مجتمع أو كائن فرد لا يمكنه الاستمرار المتوازن بدون (مقدس ما). فإذا كان الغرب يقدس الثروة وتملكها، ويؤله المادة التي هي منشأ الثروة، ومدار التملك، وأساس استجرار الكوارث على البشرية.. فما هي مسوّغاتُ إعادة تكوين "صورتنا" الحضارية على مثال صورته؟؟

أما المثال الأخير الذي نعرض له هنا فهو مشروع الدكتور محمد عابد الجابري المتمثل في ثلاثة كتب من قائمة مؤلفاته الكثيرة: (تكوين العقل العربي- بنية العقل العربي- العقل السياسي العربي). فقد شكلت هذه الكتب الثلاثة محور مشروع تنويري مختلف عن المشروعات الأخرى الكثيرة إلى حد ما، والمتشابهة في أهدافها.. وإن اختلفت مجريات البحث في كل منها عن الآخر.

ولاشك في أن مشروع الجابري هذا ينم عن الإطلاع الواسع والموسوعي في ميدان الثقافة العربية: تاريخها،

ومجريات حركتها، وتطور نظمها الداخلية.. إلى آخره. لكن هـذا المفكر يرتكب بضعة أخطاء قاتلة، يدخل أهمها في صميم منهج البحث لديـه. وأول هـذه الأخطـاء هي: فصـله التعسـفي ما بين الأيبيســتومولوجي (المعــرفي المحض) وما بين الأيــديولوجي- ونحن نقول: الوظيفي- عند بحثه في نظم الثقافة العربية الـتي أنجزها العقل العـربي الإسـلامي، مشـرقاً ومغربـاً، مثلما أعـاد إنتاج ذاته عبر إنجازها ذاك. وإذا كان هذا "الفصل" قد أعــدم أو كــاد، وحــدة ســياق الصــيرورة المعرفية على حركة حاملها الاجتمـاعي/ الاقتصـادي، فإنه بـذلك- أي بالفصل بين المعـرفي ووظيفتــه- قد أهمل كليـاً أن يلتفت أي التفـات إلى المنظومة القيمية الأساســية المتضــمنة في (النص القــرآني الكــريم).. وبذلك صب الجابري مجهوده الإجمالي في مشـروعه هـذا على البحث في كيفيــات "القــراءات" المعرفية للقــرآن- عــبر المجـادلات والسـجالات المذهبية ذات المرتكـزات الاجتماعيـة/ الاقتصـادية/ السياسـية، في الأصل - وبدلالة اللغة العربية الـتي لم ير فيها هذا الباحث غير "بناء مقسور ومصنع" أنجزه صـاحب معجم العين، وحــدده "عــالم البــدوي النمطي" في صــحرائه الفقيرة.. الأمر الذي ضيع أيضاً تـاريخ اللغة ومواريثها العريقـة، مثلما ضــيع المعــنى العــام لكلمة الإســلام، حسب المنطــوق القـرآني ذاتـه، حيث كـان يتم التأكيد مـرة بعد مـرة على أن ما جاء به النبي العـربي(ص) إنما كـان تجديـداً وإكمـالاً لكل ما هو إيجابي في مواريث منطقتنا العربية منذ تأسيسنا للحضارة حتى لحظة البعثة المحمدية. والآيات القرآنية الكريمة في هذا البـاب كثيرة لمن شاء مراجعتها والتمعن فيها!

أما الخطأ القاتل الآخــر، والبــالغ الأهمية في مشــروع الجـابري، فهو اعتمـاده (النظـام المعـرفي الأرسـطي) كمعيـار "للعقل العلمي" في جميع العصـور السـابقة على نهضة أوربـا- والجابري منحاز كلياً للعقل العلمي كما يقول-، وبالتالي كمعيـار تقــاس عليه صــلاحية النظم الثقافية العربية الثلاثــة: البيــاني، والعرفــاني، والبرهــاني! إن الخطأ القاتل هنا لا يتمثل فقط في أنه يأخذ على "الحضارة العربية الإسلامية" برمتها عـدم إنجازها لما ستنجزه أوربا لاحقاً باعتمادها على الأرسـطوية منقولة إليها عــبر الرشــدية.. وبالتــالي: إن ذلك الخطأ لا يتمثل فحسب في تطلعه إلى أن "نلحق!" بأوربا المعاصرة تكنولوجيـاً واقتصـادياً- وكأنما التكنولوجيا والاقتصــاد لا يتأسســان على منظومة قيمية معينة تكمن في أســاس حركتهما ونموهمــا!!- بل هو أساســاً ينحـاز للنظـام المعـرفي الأرسـطي دون أن ينظر إلى السـياق التـاريخي الـذي أنجز فيــه، وإلى منظومة قيم العصر العبـودي الإغـريقي حيث امتلاك الـثروة النـاجم عن الاحتفـاء "بالمـادة"- ولنجازف بالقول: المـادة المؤلهة فعليـاً!- هو "المنـاخ النـاظم" لإنتـاج الأرسـطوية. والأرسـطوية الـتي أنجـزت في بلاط فيليب المكــدوني وابنه الاســكندر كــانت مجــرد دحض مــاديّ لســائر الفلســفات اليونانية الســابقة الــتي أنجــزت في ظل الروحية المصــرية/ السـورية القديمـة، وتحت ثقل تأثيرهـا، وهـذا ما قد يفسر لنا سر عدم استرسال أرسطو- كما يقـول الجـابري- في

البحث حول "المحرك الأول" للكون والذي هو غير متحرك، أو "العقل الفعال" المفارق للمادة والفاعل فيها باستمرار، أي (الله). لقد كان أرسطو يبحث في قضايا العالم المادي، وأوصلته مقتضيات تطبيق (جهازه المفاهيمي) إلى القول بوجوب وجود هذا (العقل الفعال المفارق)، دون أن يرتب على ذلك أية قيمة على مستوى العلاقات الدنيوية بين البشر.

ملخص القول: إننا لا نستطيع أن نوافق على وجود "معرفة من أجل المعرفة"- حسب قولة الجابري عن أرسطو- أي إننا لا نستطيع أن نوافق على وجود معرفة بلا وظيفة في المحصلة النهائية. ومشروع الجابري، الذي يُلخَّص بتوصيف ممتاز نظم الثقافة العربية الإسلامية في نشأتها وسيرورتها على المستوى الايبستيمولوجي المحض، إنما يريد أن يؤسس لنا "أرضاً معرفية" لتراثنا كيما يقول لنا: هذا هو طريق اللحاق بالغرب، تكنولوجياً واقتصادياً وسياسياً، فكأنما القيم واحدة هنا وهناك.. وبالتالي، كأنما هذا التراث قابل لتغيير إيقاعه في عمق الكينونة الاجتماعية العربية والإسلامية كي ينهج نهجاً أوربياً خالصاً، وسط كل الخراب الذي استجرته أصلاً هذه الغاية ومسبباتها الخارجية!

واستكمالاً للصورة الثقافية والفكرية العربية القائمة نشير بسرعة إلى أولئك (المستغربين) كأدونيس الذي يرى أن معرفتنا لهويتنا لابد أن تمر عبر معرفة (الآخر/ الغرب) في منجزاته الإبداعية وحسب.. أو إلى أولئك الذين يطالبون بضرورة إسراع العرب في إيجاد موقع لهم داخل النظام العالمي الجديد!! [*].. فهؤلاء جميعاً "يفكرون!" للشرق الذي خرجوا منه بمناهج غربية خالصة، ومن مواقع (الترف المعاشي) الذي أمَّن لهم كمشتغلين في العمل الأكاديمي أو ما يوازيه في عواصم ذلك الغرب المبهر!!

إن ما نريد أن نخلص إليه من هذا الاستطراد الموجز، ونحن نهم بمناقشة الجنرال الوزير بيريس في مسائل العصرنة، والتحديث، والديمقراطية، كما يراها هو ويريدها لنا، هو أن بانوراما الفكر العربي الراهن الذي كان يجب أن يتحقق فيه وعي الذات والهوية الحضاريين، هي بانوراما متشكلة من نمطين آثنين للتبعية المعرفية:

الأول: نمط التبعية السلفية ذات الطابع الانتقائي، حيث يجري اختيارٌ جُزافيٌّ لمجموعات من (معارف الماضي) وحيث تجري بذلك- ذهنياً- مصادرة المستقبل وإعادة تأسيسه على مثال صورة ذلك الماضي.

الثاني: نمط التبعية للغرب، بمناهجه وطموحاته وما هو شكلي في إنجازاته. وهنا يصاغ المستقبل العربي- ذهنياً-

---

[*] (*) جاء ذلك في ندوة عقدت بباريس للبحث في قضية (العرب وموقعهم من النظام العالمي الجديد) شارك فيها عدد من كبار مثقفينا العرب المستغربين، وكان ذلك عام 1990. وقد نشرت الندوة كاملة في أحد أعداد مجلة الفكر العربي المعاصر آنذاك. ونعتذر من القارىء لعدم تحديد رقم العدد وتاريخه نظراً لفقداننا مناً، وعدم توفره وقت كتابة هذا الكتاب.

على مثـال صـورة الغـرب الظاهريـة، ودون النظر إلى خصوصـية موجودية الشـرق إلا في جـوانب التخلف الاقتصادي والتقني وحسب.

وكنا قبلاً نضـيف نمطـاً ثالثـاً من التبعية هو نمط التبعية الدوغمائي (لشرق الغرب) الاشتراكي السابق، حيث كان أتبـاع هذا النمط يرون حتمية إنشاء مستقبل العالم برمته- لا مستقبل العرب والمسلمين وحدهم- على مثال صورة ما تحقق في دول المنظومة الاشـتراكية. لكن انهيـار هـذه المنظومة قلّص- بعمق وقوة- من بقاء هذا النمط وانتشاره.

وفي كل هذه الأحوال ينتفي النظر الموضـوعي النـاجع في حقيقة هويتنا الحضـارية الـتي هي جـوهر تركيبتنا التاريخيـة/ الاجتماعية/ الاقتصـادية.. والـتي تأسست واكتملت على قاعـدة منظومتنا القيمية المعيارية الخاصة مثلما تعززت فيها وبها هـذه المنظومة.

إن السـيد الجـنرال بـيريس، وهو ينعى على العـرب وبقية المليـار من المسـلمين أنهم (يعارضـون!) التحـديث والعصـرنة مثلما ينعى عليهم أنهم غير قـابلين للديمقراطية وفق منظـوره، يـدرك جيـداً عمق الخـراب البـنيوي التحـتي للشـرق العـربي والإسلامي بسـبب الممارسـات الإمبريالية عليهم.. مثلما يـدرك جيداً أيضاً أوجه القصور المعرفي العام عندهم لحقيقة (الذات) بازاء (الآخر/ الغرب) بما فيه الصهيونية!

فما هو هذا التحديث والعصـرنة والديمقراطية الـتي يريـدها لنا؟! وكيف؟! ولماذا.؟!

واضح تمامـاً أن السـيد الجـنرال يعـني بكلمة (التحـديث): إعادة تشكيل البنى المجتمعية التحتية في البلدان العربية وبقية منطقة الشرق الأوسط ذات الصلة بـرؤاه ومخططاتـه- ودائمـاً يجب أن نتذكر أن هذه البـنى متخربـة: بفعل إنهاكـات ذاتية من قـرون الانحطـاط، ثم بفعل الابـتزاز الرأسـمالي التـدميري فيها لاحقاً- لكن ذلك التشكيل الذي يطلبه ينحصر في جعلها (نسـخة طبق الأصـل) عن البـنى شـبه الأوربيـة: من النـاحيتين الهيكلية والمفهومية، كما من الناحية القيمية. ونقول: (شـبه أوربيـة)- أو مغربة بـالأحرى- لأن هـذه البـنى يجب أن تظل تابعـة، ولكن بصورة تؤهلها للمسـاهمة في التجديد النـاجع لـدورة الرسـاميل عبرها! ففي منطقة الشرق الأوسط يوجد (60% من المصـادر النفطية العالميـة، كما إن الشـرق الأوسط يمثل سـوقاً هائلة محتملة، ونجاحه إنما يفتح فرصاً لا حدود لها في المنطقـة) ص 39-

إننا أمـام قولة الجـنرال هـذه نكـون قد وصـلنا إلى بيت القصـيد في كل أطروحاته التبشـيرية حـول شـرق أوسـطه الجديد.

إن الفـرص الـتي لا حـدود لها في المنطقة هي لمن يملك المقومـات الثلاثة للقـوة حسـبما عـدها تـوفلر: الآلة العسـكرية والمعرفة العلمية التكنولوجية، والـثروة الرأسـمالية. وواضح أن

من يمتلك هذه المقومات الثلاثة في المنطقة امتلاكاً متوازناً هو الذراع الرأسمالي الصهيوني، الفاعل عبر ثكنته: (دولة إسرائيل الحديثة!).

وعليه، فإن إعادة هيكلة البنى الاجتماعية الشرق أوسطية، في شروط الحدود المفتوحة والحركة الحرة للرساميل، حسبما يلح الجنرال باستمرار، إنما تعني وفق منطقه إعادة تأهيل لتلك البنى كي تخدم (فرص الرساميل التي لا حدود لها في المنطقة) علماً بأنها أولى المناطق الاستراتيجية في العالم، وبسائر المقاييس.

لكن التأهيل المطلوب في مستوى إعادة التشكيل لتلك البنى المخربة يتطلب نفياً عاماً لكل المفهومات الإيجابية المتبقية لديها من موروثات الماضي.. وهنا يظهر لنا بعد إجرائي جديد لما كان السيد بيريس قد نصحنا به قبلاً من ضرورة نسيان ما يرى هو أن علينا نسيانه من التاريخ.

لكن مسألة نفي موروثنا والانخراط في المشروع الصهيوني وفقاً لأسسه الشايلوكية/ التلمودية، تحتوي ضمناً وجوب تنكرنا لمنظومتنا القيمية العامة مع كل ما ارتبط بها من ثقافة وعلاقات واعتقادات خلال تاريخنا الحضاري الكلي، واستبدال ذلك كله بمنظومة القيم البراغماتية الشايلوكية مع ما يلحق بها من ثقافة وعلاقات.. أو ببساطة: قبول النفي الشامل لهويتنا الحضارية المخصوصة التي يقوم وجودنا عليها وعلى احتمالات تطورها الذاتي في سياق الحياة الإنسانية. ويبدو أن هذا هو ما يراه السيد بيريس شرطاً حتمياً لنجاح فرص الرساميل في الحركة الحرة عبر الحدود المفتوحة، أي داخل كل تكويناتنا الاجتماعية/ السياسية/ الثقافية الراهنة.

وكي يقنعنا السيد بيريس بهذا كله دون إحراج فهو يعلن لنا بنبرته الوادعة: (ما يصلح لبقية العالم يصلح لإسرائيل والعالم العربي) ص38- وبالطبع، كان الأجدر به أن يكون أكثر انسجاماً مع نفسه ومع منطق تبشيره فيقول: إن ما يصلح لكم كعرب مصادرٌ صهيونياً وإمبريالياً، وإن لم تقبلوا فإن كل عناصر القوة التي نملكها نحن وحلفاؤنا كفيلة بإرغامكم على القبول.

والواقع، إن (ما يصلح للعالم)، أو ما أرغمت غالبية شعوب العالم على القبول بأنه يصلح لها، إنما كان يأتيها في صيغة غزو من الخارج، أما نحن العرب فيأتينا ذلك الآن من الخارج، ومن الداخل بصورة أساسية.. فالمشروع الشرق أوسطي في صيغته البيريسية هو محاولة لتفكيكنا نهائياً من داخلنا كيما تتم استجابتنا لما هو خارجي دون أية معارضة، وهذه نقطة حاسمة أو نقطة اختلاف جوهرية لا مناص من وضعها في أساس المقارنة مع أي وضع مشابه في العالم!

إن للمستوطنين الغزاة في تاريخ المرحلة الرأسمالية كلها أسلوباً موحداً في التعامل مع ضحاياهم. فغزاه أميركا الأوائل كانوا يقدمون للهنود الحمر البسطاء كثيراً من الخرز الملون التافه كي ينعموا بكرم ضيافتهم الأصيل، وعندما تحين لهم

الفرصة المناسبة يبيدونهم ذبحاً وتقتيلاً. والسيد بيريس، المتشبع بتعاليم صهيونيتِهِ (ومهامه التبشيرية الأولى) خلال تجربة جيله الاشكنازي سابقة الذكر، لا يستطيع أن يخرج عن أسلوب الغزاة الموصوف أعلاه. إنه هو الآخر يحاول أن يقدم لنا (خرزه النافه)- رغم علمه أننا لسنا الهنود الحمر- فيما هو يحاول أن يدوّخنا "برقصه الثعلبي" تحت شجر الكلام المخاتل عن رؤاه التحديثية. فلنلخص كل ما عرضنا له حتى الآن من مقدمات تقديم ذلك "الخرز" لنا:

حسب الجنرال، الناس في منطقة الشرق الأوسط غرقوا في اليأس والإحباط لأنهم حاولوا الصراع ضد تجربة جيله الاشكنازي ونتائجها.. وهذا الصراع حمل الزعماء (على تجاهل قدرات بلادهم التنموية، كما تجاهلوا مستوى المعيشة ورخاء الشعوب) ص36- إن الأمر إذاً- حسب هذا المنطق- هو أمر "غباء شعوب، وأمر انتهازية زعماء مفسدين!" ولا صلة للنهب الإمبريالي التدميري بشيء من ذلك كله!.. والدليل هو أن الجيل الاشكنازي الخزري الفاتح "حارب الاستعمار!" هنا في هذا "العالم الجديد!!" وانتزع استقلاله من ذلك الاستعمار- أي نعم!!- وأقام (دولة إسرائيل الحديثة!) التي أكملت "قصة الأجداد وقضيتهم!" وجاء معها بالعلم والتكنولوجيا والرفاه.. إلى آخره، وذلك بعد مرحلة انقطاع سادتها الكوارث والزلازل والفيضانات وسفك الدماء، ليس غير!.. إلى آخر المعزوفة الصهيونية المعروفة. وهكذا، فإن بؤس الناس- أي العرب- وياسهم المحبط هو محصلة "غبائهم" في التعامل مع (إسرائيل الطيبة والجيل الخزري الاشنكازيّ المختار!) ومحصلة فساد زعمائهم الذين لا يريدون إلا كراسيهم تحت ستار كثيف من الشعارات المضادة لهذه الـ(إسرائيل) العجيبة!

إن هذه المقدمة الفهلوية ترمي إلى إعدادنا لتقبل تبشيرات الجنرال بعصر رفاهه الصهيوني/ الإمبريالي المشترك في ما يسمى النظام العالمي الجديد. وهنا يتوجب علينا نسيان ما اصطنعته القوى الإمبريالية من "أدوات" حاكمة في كثير من أقطار الشرق الأوسط، باعتبارها الأدوات الخادمة/ الحاكمة في أمر تدبير مسيرة الحياة الذاتية العامة للمنطقة بما يخدم مصالح تلك القوى في نهاية المطاف.

وهذه الفهلوية في التبشير من قبل السيد بيريس- بكل ما فيها من تزوير ودجل معرفي وسياسي- يسوقها حضرته في خطاب طنان مطنطن لغاية تجريض الشعوب- والعرب خصوصاً- على رؤية ما يريد لها أن تراه.. ليس غير. وهو إذ يعلن برنامجه لاحقاً فإنما يكون بذاك الخطاب قد هيأها للتكاتف مع (دولته الطيبة جداً جداً!) من أجل إستثمار ثروات المنطقة بإشرافها. وسنرى قريباً ما يعد به فعلاً هذه الشعوب (المصابة باليأس والإحباط!) بعد إعادة تأهيلها الموصوفة سابقاً للعمل في خدمة الوليمة الموعودة- أو المائدة- التي ترجوها الإمبريالية الصهيونية/ الأميركية وتوابعها من خطط الجنرال لاستثمار شرقنا العربي واعتصاره كلياً واستنزافه!

وإذا شئنا استباق الأمور قليلاً، لحاجة مجادلتنا مع الجنرال إلى ذلك، فإنه يمكن لنا القول:

إن العرب سيحصلون من فتات الوليمة على ما يكفي لسد رمقهم، ولجعلهم قادرين على الاستمرار في خدمة المائدة الإمبريالية الكبرى الموعودة. وبعد تمام استنزاف ثروات المنطقة يكون لكل حادث حديث، وفقاً لما سيكون من تغييرات وما سيحدث من مستجدات: محلية وإقليمية وعالمية!

وليكن الجميع حذرين!.. فمن يبارك ما هو مطلوب في برنامج استثمار الـ(60% من المصادر النفطية العالمية.. ومن يدخل كتابع في السوق الهائلة المحتملة.. ويساعد على تأمين فرص الرساميل التي لا حدود لها في المنطقة) فإنه سيظفر بالخرز الملون، وبشرف الخدمة حول المائدة الكبرى المرتقبة!.. أما أولئك المترددون، ومن يظهرون أقل الرفض للتعاون فإنهم "إرهابيون".. وخطرون على السلام العالمي.. والتتمة معروفة!

ذلك هو (التحديث)، وأولئك من هم معه ومن هم ضده حسب منطق الجنرال. فماذا إذاً تعني "العصرنة" تبعاً لذلك وتأسيساً عليه؟! ثم كيف ترتبط بها مسألة الديمقراطية انطلاقاً من كل ما سبق؟!

ببساطة، تتضمن العصرنة- حسب منطق بيريس- جانبين رئيسيين متعلقين جذرياً بصيغة التحديث التي سبق شرحها، وكل من هذين الجانبين يتكامل مع الآخر تكاملاً ديناميكياً لتكون محصلتهما نوعاً من الصيغة العملية الإجرائية لنفي واجتثاث أسس الهوية الحضارية العربية أولاً بأول، وبقية الهويات القومية لأعداد من الشعوب الإسلامية الأخرى لاحقاً.

ويتلخص **الجانب الأول** هنا بفكرة بيريس عن الدولة العصرية باعتبارها مجموع هرم مؤسساتي يتحرك وفقاً لمجموع من القوانين الناظمة.. على أن يكون "الكل" مشروط الفعالية بوظائفه في خدمة حركة الرساميل الشايلوكية/ الأميركية خصوصاً عبر الحدود المفتوحة! أي " صورة مُغرَّبة " من صور الدولة الغربية مع تبعيةٍ كاملة مُعلنة! أما **الجانب الثاني** فيتلخص في إقامة (المشروعات التكنولوجية) والمؤسسات المالية والمصرفية الموازية.. في نطاق الاشتراطات الوظيفية السابقة ذاتها.

وعلى هذا وذاك تكون الديمقراطية المعنية في مشروع السيد بيريس هي (حرية!) الجميع في تقبل اغترابهم النهائي داخل تلك الاشتراطات الوظيفية ومستجراتها العامة التي تلخصها عبارة (الفتح والثقافة الغربية)! والسيد بيريس، إذ يخاطبنا بطريقته التمويهية الماكرة، يعرف جيداً أن المجموع الشعبي يجاهد فعلاً، منذ أكثر من قرن، من أجل التحديث والعصرنة والديمقراطية وسائر مستجراتها ومتطلباتها.. ولكن: على أسس أخرى متناقضة جذرياً مع أطروحات الصهيونية والإمبريالية وغاياتهما، أي مع أطروحات بيريس في برنامج

صهيونيته حسبما قدم لنا صياغته!.

وإذا كنا لسنا في صدد تحديد تلك "الأسس الأخرى" وبسطها هنا، فإننا نستطيع الجزم بأن (أجواء اليأس والإحباط) التي يتحدث عنها الجنرال، إنما جرى ترتيبها بكثافة في هذه المنطقة، منذ أيام زميله الصهيوني المعروف كيسنجر في الخارجية الأميركية، كطريقة في الإعداد السيكولوجي لكل شعوب الشرق الأوسط كيما تتقبل- أو تصبح جاهزة لتقبل- كل ما يجرى الآن من خطوات على طريق تحقيق مشروع بيريس الذي سبق أن سميناه (الحلقة الوسطى) من برنامج الهيمنة الصهيونية على العالم: حلقة إنجاز الإمبراطورية العسكرية والاقتصادية الصهيونية في هذه المنطقة الذي سنظل ندعي أنها "قلب العالم" فعلاً.

أفليس كل شيء في أطروحات بيريس يريد أن يمسك بنا هادئين صامتين على مفترق الجحيم القادم، بعد أن استغرقت تهيئتنا الإجمالية لذلك أكثر من قرن؟!

إننا إذ نترك الجواب معلقاً، نظراً لشدة وضوحه عند القارئ، لا يسعنا إلا أن ننظر الآن في قضية قد تكون ذات أهمية بالغة لمن يهمه الأمر من سائر الحكومات والحكام العرب، وسواهم من حكام المسلمين أيضاً.

إن من المعروف، وفقاً لقوانين علمي الاجتماع والتاريخ، أن كل تجديد في هيكلة وتأهيل البنى التحتية الاجتماعية/الاقتصادية/الثقافية- طبقاً لاشتراطات وظيفية جديدة- يستلزم بالضرورة تجديداً موازياً في مجموع مؤسسات البنية الفوقية التي سنلخصها هنا- تجاوزاً- بكلمة "الدولة".. ويستلزم بالتالي تغيير أدواتها: أفراداً ونظماً، بما ينسجم مع المقتضيات الوظيفية الاستراتيجية الجديدة، ومشروعات صانعيها.

والسؤال الذي يفرض علينا نفسه هنا بقوة هو:

أليست مختلف الحكومات في المنطقة موضوعة هي الأخرى- مثلها مثل شعوبها- على مفترق الجحيم في إطار ما هو مطلوب صهيونياً وإمبريالياً.. وفي القريب العاجل؟!

سؤال يخص جوابه أهل الحكم في المنطقة بالطبع، ولهذا فإننا نقول ببساطة: إنه- أي الجواب- لا يعنينا بصورة مباشرة كمجادلين لتصورات خصم في غاية الدهاء.. جدالاً على المستوى المعرفي والإيديولوجي النظري، لا أكثر ولا أقل!

***

ثمة ملاحظة أخيرة قد لا تكون داخلة في صميم معالجتنا لكتاب السيد بيريس، ولكنها عميقة الدلالة في هذا السياق إذ هي تكشف عن حقيقة رغبات الصهاينة بما يسمونه (السلام!) مثلما تكشف عن مدى (حيادية!) أميركا في موقفها مما تسميه (أطراف النزاع في الشرق الأوسط). وهذه الملاحظة هي

معلومات عن حجوم إمدادات السلاح "لإسرائيل" ونوعيته.. وما إلى ذلك. فقد أوردت مجلة الكفاح العـربي البيروتية في العـدد 851- تـــاريخ 21/11/1994 ما يلي: تبلغ الميزانية العســكرية الإسـرائيلية للعـام 1995 مبلغ (8.3) مليـار دولار أي بزيـادة / 600/ مليون دولار من عام 1994، مثلما حصلت على أسـلحة أميركية حديثة (50 طــائرة F16و400 عربة نقل مدرعة وعــدد من صواريخ باتريوت) بقيمه 3 مليـار دولار كهديـة! وفـوق ذلك أوصت على 20 مقاتلة عالية الحداثة من طــراز F15 ووُعــدت بتزويدها بالسوبر كومـبيوتر لمسـاعدتها في إنجـاز برنامجها عن الصواريخ بعيدة المدى (1500كم).

ومن جهة أخــرى نقلت إذاعة لنــدن بتــاريخ 21/11/1994 عن الســيدة ريم خلف وزيــرة التجــارة الأردنية أنها أنــذرت المنتجين الأردنــيين بحتمية الخســائر الــتي ســتلحق بهم في شروط التنافس الجديـدة (هكـذا!!!) مع المنتجين الإسـرائيليين الذين يصدرون منتجاتهم بمواصفات عالمية عالية(!!!).

فليقارن القارىء بما سبق أن أوردناه وليتأمل كم هو ضـيق وصعب وقصير مفترق الجحيم هذا الـذي يريد الصـهاينة حشـرنا فيه تحت شعارات مُضلِّلةٍ عن (سلام ورفاه) زائفين!!

❐❐❐

.....ÊÄÆÍÅ ÁÇ ÈÏ ÃÄÅ

.....ÃÏÎÁ

.....ÇÁÝÕÁ ÇÁÃÆÁ: ÚÄ ÃÓÑÍ ÑÞÕ ÇÁÔÍØÇÄ

.....ÇÁÝÕÁ ÇÁËÇÄÍ: ÃÞÇØÚ ÃÄ "ÅÏÍÁ" ÇÁÐÆÇÈ

.....ÇÁÝÕÁ ÇÁËÇÁË: ÃÝÊÑÞ ÇÁÌÍÍÃ